د. بيريل سمالى

المؤرخون فى العصور الوسطى

ترجمة الدكتور قاسم عبده قاسم
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب – جامعة الزقازيق

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إهـــداء

إلى زوجتي ... المــرفأ والواحة

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هى الطبعة الثانية، من الترجمة العربية، لكتاب بيريل سمالى: المؤرخون فى العصور الوسطى. ومنذ ظهرت الطبعة الأولى ـ قبل ثلاث سنوات ـ لم يحدث أن ظهر كتاب فى هذا الموضوع باللغة العربية. ولست أظن أنه يمكن لباحث عربى أن يكتب شيئا عن التدوين التاريخى فى أوربا العصور الوسطى دون أن يكرس لذلك العمل شطرا كبيرا من حياته، وربما يأتى النتاج فى النهاية إخفاقا فى فهم روح الثقافة الأوربية فى العصور الوسطى على نحو ما يفعل المستشرقون فى كثير من الأحيان عندما يفشلون فى فهم الثقافة العربية الاسلامية. ومن ثم؛ فإننا نرى أن الوسيلة المثلى لتعريف القارئ العربى بخصائص هذا التراث الأوربى، هى ترجمة مؤلفات الأوربيين ذات المستوى الممتاز والطابع الراقى.

وفى هذه الطبعة زيادات طفيفة فى تعليقاتى التى أحاول بها شرح بعض الغموض فى النص الذى يخاطب القارئ الأوربى أساسا، فضلا عن بعض التعديل فى صياغة الجمل العربية والتراكيب اللغوية فى محاولة منى لوضع لغة عربية سهلة يستمتع بها القارئ كما لو كانت هى لغة التأليف الأصلى. وإننى إذ أقدم هذه الطبعة لأبناء وطننا العربى أرجو أن تكون مساهمة مفيدة ـ على الرغم من تواضعها ـ على طريق البحث والمعرفة، والله الموفق والمستعان.

الهرم ١٨ مارس ١٩٨٤م

قاسم عبده قاسم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

من المسلم به أن التاريخ ـ كنشاط اجتماعى له وظيفته المحددة ـ يبدأ مع بداية الوجود الانسانى نفسه. وقد وجد التاريخ فى شكله الجنينى منذ بدأ الانسان يسجل شيئا عن ماضيه بطريقة أو بأخرى مبتكرا بذلك معرفة جديدة قدر لها أن تساهم فى بناء الفكر والحضارة الانسانية. ولم تخلف لنا الفترة الباكرة فى التاريخ الانسانى أية مصادر تاريخية أدبية، مما جعل البعض يستخدم مصطلح «ما قبل التاريخ» للدلالة على تلك الفترة الغامضة المحيرة التى شهدت بدايات التطور الحضارى البشرى، إلا أن جهود علماء الآثار كشفت النقاب عن معظم خبايا هذه الفترة، مما جعل استخدام هذا المصطلح المضلل أمرا غير مقبول ولا منطقى. ولعل من الأفضل أن نستخدم مصطلح «ما قبل التاريخ المكتوب» للدلالة على تلك الفترة.

ذلك أن الانسان سجل تاريخه ـ حتى قبل اختراع الكتابة ـ من خلال ما خلفه من رسوم ساذجة على جدران الكهوف التى عاش فيها. وهو ما يعنى أن التدوين التاريخى قديم قدم الحياة البشرية وأنه يعود فى أصله إلى أى تسجيل للنشاط الانسانى مهما كان شكله. ومن ناحية أخرى، تعتبر الأسطورة هى الأب الشرعى للتاريخ. فقد ولد التاريخ من ضلع الأسطورة، ونما وترعرع فى رحابها. وإذا كان التاريخ، من حيث هو سجل للماضى الحضارى الانسانى، قد بدأ مع بداية الوجود الانسانى نفسه، فإنه كان آنذاك موغلا فى ضبابية الغموض والخيال بشكل جعل بعض الباحثين يصفون الكتابات التاريخية الأولى بأنها «أوسع الأساطير وأكثرها جرأة». والواقع أن الكتابات التاريخية الأولى لم تكن فى حقيقة أمرها سوى كتابات أواخر عصر الأسطورة التى كانت وظيفتها الفكرية ـ الاجتماعية ترقيع النقص والنسيان فى ذاكرة الأزمنة الماضية مستعينة بالخيال لتعويض النقص الناتج عن الجهل بالحقيقة. كما أن الأسطورة ـ من ناحية أخرى ـ تعتبر بمثابة المحاولة الأولى لتفهم الترتيب الزمنى للخلق والأحداث؛ أى أنها محاولة بدائية لخلق علم كونى يهتم بالكون بأسره، ولا يقتصر على الأرض فقط. كما أنها محاولة لتتبع أنساب الآلهة والبشر. وهكذا تتوه البدايات الأولى للمعرفة التاريخية بين الأسطورة والدين.

ولكن يبقى السؤال مطروحا : لماذا سعى الانسان إلى المعرفة من خلال الأسطورة التى خلق التاريخ فى رحمها؟ الواقع أن الرغبة فى الكشف عن لغز الوجود الانسانى وأصوله من ناحية، وأصول العادات والتقاليد وغيرها من ظواهر الحاضر من ناحية أخرى، هى التى دفعت الانسان منذ القدم ـ ولا تزال تدفعه حتى اليوم ـ إلى محاولة فهم حاضره من خلال ماضيه. وبذلك فإننا لا نبالغ إذا قلنا إن للتاريخ ضرورة اجتماعية. فالقبيلة البدائية التى تعيش فى عزلة نسبية تحاول الكشف عن تراثها لابراز بطولات الأجداد ومآثرهم. بينما يسعى المجتمع الأكثر تعقيدا فى تركيبه إلى تحقيق معرفته بذاته من خلال التفتيش فى الماضى للتعرف على شخصية المجتمع وهويته، وأصول المشكلات التى تواجهه. وهو الأمر الذى يفسر لنا ـ ويبرر إلى حد ما ـ السبب فى توجيه الأطفال المصريين إلى دراسة التاريخ المصرى، والانجليز إلى دراسة التاريخ الانجليزى.. وهكذا ـ رغبة فى غرس الروح القومية فى وجدان الأطفال.

كان التاريخ ـ ولايزال ـ هو الوسيلة الوحيدة المتاحة لتحقيق هذا الهدف، بيد أن التطورات التى مرت به ـ منذ كان وليدا يحبو فى حجر الأسطورة، حتى أصبح علما قائما بذاته تخصص له الأقسام الأكاديمية والكراسى فى الجامعات ـ جعلت البعض يحاولون من حين لآخر تتبع هذا التطور من خلال الكتب التى ألفوها فى تاريخ التاريخ.

* * *

والكتاب الذى بين أيدينا واحد من هذه الكتب، إذ أنه يقدم محاولة جادة ومتعمقة لدراسة التدوين التاريخى فى غرب أوربا فى العصور الوسطى، بيد أنه يتوقف عند نهاية القرن الثالث عشر.

ومؤلفة الكتاب هى الدكتورة بيريل سمالى Dr. Beryl Smalley التى تعتبر من علماء تاريخ العصور الوسطى البارزين، وكانت تشغل من قبل منصب وكيل كلية سانت هيلدا St. Hilda بأوكسفورد، ومن بين مؤلفاتها فى تاريخ العصور الوسطى كتاب عن دراسة الكتاب المقدس فى العصور الوسطى «The Study of the Bible in the Middle Ages» وآخر عن الصراع الذى خاضه بيكيت اسمه :

«The Becket conflict and the schools : a study of intellectuals in politics in the twelfth century.»

وقامت المؤلفة باستعراض تطور التدوين التاريخى فى أوربا العصور الوسطى منذ أواخر عصر الامبراطورية الرومانية، مشيرة إلى أن التفاعل بين التراث الرومانى، والتراث اليهودى ـ المسيحى، والتراث الجرمانى من ناحية، وظروف الحياة الجديدة فى أوربا العصور الوسطى من ناحية أخرى، خلقت أنماطا جديدة من الكتابة التاريخية

جاءت تلبية لمتطلبات المجتمع الجديد.

وما يميز هذا الكتاب أنه يستعرض تطورات الكتابة التاريخية فى ضوء التطورات الاقتصادية والاجتماعية، والثقافية والسياسية التى جرت على أرض الواقع الأوربى فى العصور الوسطى، وما خاضته بلدان الغرب من حروب وصراعات دموية، أو نزاعات عقائدية. ولا حاجة بنا فى هذه المقدمة إلى ترديد ما ذكرته المؤلفة فى ثنايا كتابها، وحسبنا أن نقرر هنا أن هذا الكتاب - وهو الأول فى موضوعه باللغة الانجليزية على ما نعلم - يقدم زادا طيبا لمن يهتمون بدراسة تاريخ العصور الوسطى من الناطقين بالضاد، كما أنه يقدم نموذجا جديرا بأن يحتذى فى الكتابة عن تاريخ التدوين التاريخى. وقد حرصت على تقديم هذه الترجمة فى أسلوب عربى خالص بقدر ما أمكننى، كما قدمت التعليقات والهوامش التوضيحية حيثما أحسست بالحاجة إلى ذلك.

ويجدر بى أن أرجع الفضل لأهله: فأتوجه بالشكر إلى الصديق الأستاذ الدكتور على الغمراوى أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة عين شمس لما قدمه من تشجيع ونصائح علمية قيمة، وإلى الصديق الدكتور/محمد خليفة حسن مدرس الأديان المقارنة بجامعة القاهرة لتفضله بمراجعة بعض فصول الكتاب.

والله الموفق والمستعان

الهرم ٥ يوليو ١٩٧٨

دكتور/قاسم عبده قاسم

مقدمة المؤلفة

يهدف هذا الكتاب إلى مساعدة الطلاب وعامة القراء على الاستمتاع بقراءة تواريخ ومدونات العصور الوسطى. وسوف أستخدم مصطلح « التدوين التاريخى historiography » للدلالة على الكتابات التاريخية. إذ كان كتاب العصور الوسطى يميزون بين عدة موضوعات؛ فقد كان « التاريخ history » يعنى شيئا، وكانت « المدونة التاريخية chronicle » تعنى شيئا آخر، على حين كانت الأشكال العديدة التى اتخذتها كتابة التراجم biography تدل على شىء غيرهما. وينبغى أن نشير إلى أن تاريخ الكتابة التاريخية دراسة مستحدثة إلى حد ما، فقد درج المؤرخون المحدثون على قراءة كتب قدامى المؤرخين باعتبارها مصادر يتعرفون من خلالها على الحقائق والآراء والمواقف التاريخية. ولا يزال هذا هو موقفنا من الكتابات القديمة. ويرجع الفضل إلى كروتشه[1] وتلاميذه فى وضع تاريخ التاريخ على خريطة الدراسات الأكاديمية. وفى هذا الكتاب سوف أحاول الكشف عن الأهداف التى كان مؤرخو العصور الوسطى يسعون إليها، كما أننى سأحاول التعرف على كيفية تطور فن التدوين التاريخى عبر العصور.

ولابد لنا فى البداية أن نتعرف على الظروف والأحوال المادية التى كان مؤرخو لعصور الوسطى يعملون فى ظلها. كما ينبغى أن نعرف ماهية الكتب التى كانوا يقرأونها وكيف أثرت قراءاتهم فى تشكيل عقلياتهم كمؤرخين. وأجد نفسى مضطرة إلى لاختيار المتعسف فى استعراضى للمؤرخين؛ إذ كان على أن أغض البصر عن الكثيرين

(١) Benedetto Crocé (١٨٦٦ – ١٩٥٢) فيلسوف إيطالى، ومن أشهر الفلاسفة الذين اهتموا مسألة العلاقة بين الفلسفة والتاريخ، وكان هذا المؤرخ الفيلسوف قد تولى وزارة التربية بإيطاليا سنة ٢ – ١٩٢٢، وبعد استيلاء موسولينى على الحكم اتخذ كروتشه موقفا معاديا من الحكم الفاشى مما رضه لبعض المتاعب. وبعد سنة ١٩٤٧ أسس « المعهد الايطالى للدراسات التاريخية Instituto Italiano di studi Storic ». كتب فى الفلسفة، والتاريخ وعلم الجمال وتاريخ التاريخ. أشهر مؤلفاته تاب « فلسفة الروح Filosofia delle Spiritu » الذى ضمنه آراءه فى هذا المجال. ومن اهم آرائه أنه نكر فلسفة التاريخ على اساس أن التاريخ فلسفة وأن الفلسفة تاريخ. وهو يرى أن المعاصرة هى ساس الكتابة التاريخية لأن الحكم التاريخى فى لحظة تولده إنما يكون نتيجة لاهتمام المؤرخ بالحياة حاضرة، كما يرى أن الحوادث الماضية لا توجد إلا حين يفكر فيها المؤرخ. وفى هذه اللحظة توجد نصبح معاصرة بالنسبة للمؤرخ. اى ان التاريخ كله معاصر. (المترجم)

من مشاهير المؤرخين القدماء. ومن ناحية أخرى، فإننى حصرت دراستى للتدوين التاريخى فى حدود المنطقة التى تمتد ما بين بحر الشمال وجبال البرانس ونابولى، مع استثناء واحد من بولندا. ومن الناحية الزمنية، تدخل فترة الحروب الصليبية فى إطار الدراسة لا سيما وأن المملكة اللاتينية فى بيت المقدس كانت أشبه ٣ب «فرنسا ما وراء البحار». وقد استبعدت «التراجم الذاتية autobiography» وسير القدسين hagiography»، التى تتحدث عن حياة القدسين وما لاقوه من آلام، لأن التراجم الذاتية فى العصور الوسطى كانت من الندرة بحيث لا تصلح موضوعا للدراسة، كما أن سير القديسين، من جهة أخرى، كثيرة بدرجة تجعلها تستحق أن تفرد لها صفحات كتاب مستقل. وآمل أن أكون قد وفقت فى صياغة فكرة ما عن مدى الثراء والتنوع المحير فى مجال التدوين التاريخى فى العصور الوسطى. وربما يظن المتخصصون أننى أولى اهتماما كبيرا بالفلتات الشاذة، بيد أن الدارس يمكن أن يصوب هذا الظن من خلال تصفحه السريع للحوليات والمدونات العادية المستوى. ذلك أن الفلتات والافذاذ والفنانين والمفكرين الكبار الذين اخترتهم موضوعا للدراسة قد يحثونه على قراءة أعمال المؤرخين العاديين.

الفصل الأول

ظروف الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى[1]

ترى ما هى الدوافع التى حدت بالناس إلى كتابة التواريخ والمدونات فى العصور الوسطى؟ هذا ما سوف نحاول الاجابة عنه فى سياق هذا الكتاب. وللحيلولة دون سوء الفهم، فسوف أبدأ باستبعاد الدوافع المسلم بها فى أيامنا هذه. إذ أن التدوين التاريخى المعاصر قد اتخذ سمة تجارية؛ ذلك أن الكتاب المدرسى، أو الكتاب الذى يعالج موضوعا مبتذلا ابتغاء الكسب المادى، يدر على مؤلفه قدرا من المال قد ينفقه فى أحد وجوه المتعة، أو يضيفه إلى رصيده. أما العمل الذى يتخذ صفة البحث العلمى فإنه يساعد مؤلفه على التنافس من أجل المناصب فى سوق العمل. وفى داخل هذا الاطار تأتى متعة الكتابة والارتباط بها؛ إذ أن زمن الباحثين الهواة قد ولى إلى غير رجعة. وفى العصور الوسطى لم يكن التأليف يدر مالا على من يشتغلون به.

ويكشف لنا تاريخ إنتاج الكتاب فى العالم القديم عن حقيقة مؤداها أن الكاتب لم يكن يجنى أية فوائد مباشرة من كتابه، رغم أنه يستطيع أن يعول على جمهوره من القراء فى الأوساط الأرستقراطية والبورجوازية. حقيقة أن العصور القديمة قد عرفت ناشرى الكتب وبائعيها الذين مارسوا مهنتهم فى مدن العالم القديم، ولكن ارتفاع تكاليف النسخ آنذاك لم تكن تجعل من الممكن اقتسام الربح الضئيل الناتج عن الكتاب بين الناشر والمؤلف، وكان الكاتب الموسر يملى كتابه على أحد العبيد المتمرسين على أعمال النسخ، وتكتب بهذه الطريقة عدة نسخ يتم توزيعها وتداولها على حسابه الخاص. أما المؤلف الأقل ثراء، فكان يعهد بكتابه إلى أحد الناشرين الذى قد يعطيه مبلغا زهيدا من المال مقابل المخطوطة، ولكن من المرجح أن المؤلف هو الذى كان يدفع قدرا من المال فى سبيل نشر كتابه. وفى ذلك الحين لم تكن حقوق الطبع أو نسبة المؤلف من ثمن الكتاب معروفة. إذ كان الكتاب يظل ملكا للمؤلف طالما كان فى حوزته، فإذا ما عهد به إلى أحد الناشرين صار حرا كالهواء. ورغم أن الشخص الذى كان ينتحل لنفسه مؤلفات الغير كان يتعرض للسخرية واللوم إذا ما اكتشف أمره؛ فإن المؤلف الضحية لم يكن يتمتع بالحق القانونى فى التعويض. وربما كان المؤلفون يأملون فى

---

(١) عنوان هذا الفصل كما كتبته المؤلفة conditions وقد اخترت أن أترجم العنوان على هذا النحو لكى يدل على مضمون الفصل بشكل أكثر وضوحا. (المترجم)

المكافأة غير المباشرة من خلال الحماية التى كان يسبغها عليهم الأثرياء والأعيان الشغوفون بترصيع حاشياتهم بالموهوبين من الكتاب. بيد أن ثمة عيب كان يشوب الحماية وهو أن بقاءها كان مرهونا بالظروف، كما كانت تحط من قدر المؤلف. وفى العصور القديمة كان رجل الدولة المتقاعد هو نموذج المؤرخ الأمثل؛ ذلك أن مثل هذا الرجل بما يتوفر لديه من موارد تكفيه، والذى ترك الحياة العامة إما ضجرا منها أو تحت وطأة الظروف المعاكسة، كان يجد لديه من وقت الفراغ الاجبارى ما يجعله يكرس نفسه للكتابة كوسيلة محمودة لقضاء هذا الوقت، وكان التاريخ الذى يكتبه رجل من هذا الطراز يتخذ أحيانا شكل المذكرات، أو يتركز حول تاريخ فترة بعينها أحيانا أخرى، وفى أى من الحالين لم يكن المؤلف يكتب سعيا وراء الكسب، إذ كان يمتلك من موارد الثروة ما يغنيه عن ذلك. وتبرز أسماء سالست(٢)، وتاكيتوس(٣). والمؤرخ اليهودى فلافيوس يوسيفوس(٤) كأمثلة دالة على المؤرخين من هذا الطراز. لقد

---

(٢) جايوس سالستيوس كريسبوس Gaius Sallustius Crispus (٨٧ ـ ٣٤ق.م تقريبا) مؤرخ رومانى شهير مؤلفه الرئيسى عن تاريخ روما، وهو يغطى السنوات من ٧٨ إلى ٦٧ ق.م، وهو مفقود. ومن خلال الرسالتين التاريخيتين اللتين كتبهما عن «مؤامرة كاتيلينا» «والحرب اليوجورتية» يمكن للمرء تقييم أسلوبه المميز وقدرته على تحليل الشخصيات والقوى التاريخية، ويتميز سالست بنزاهته، وقدرته الفائقة على رسم وتحليل مشاهد الحصار والمعارك وكان له تأثيره الكبير على كتاب الرسائل التاريخية فى العصور الوسطى كما سيتضح فى الصفحات التالية. (المترجم)

(٣) بوبليوس كورنيليوس تاكتيوس Publius Cornelius Tacitus (٥٥ ـ ١٢٠م تقريبا) شق حياته فى السلك السناتورى العادى، مما جعله من انصار الجمهورية وتميزت كتاباته بالتحيز ضد الامبراطورية، إذ كان يكتب معبرا عن موقف الطبقة السناتورية وحنينها إلى المؤسسات الجمهورية القديمة، رغم أنه يعترف بأن ضعف الجمهورية هو الذى اودى بها. اهم مؤلفاته «**الحوليات**»، «**والتواريخ**»، وتتناول «**الحوليات** الفترة ما بين موت اوغسطس حتى سنة ٦٩ ميلادية. أما «**التواريخ**» فيبدأ بالازمة التى حدثت سنة ٦٩ كما يغطى أحداث عصر الأباطرة الفلافيين، وبالاضافة إلى مؤلفاته التاريخية الخالصة، يعتبر كتابه عن الجرمان واحدا من أوائل الكتابات فى علم الاجتماع الوصفى، لكونه المصدر التاريخى الشامل الوحيد عن عادات وتقاليد ومؤسسات الجرمان فى تلك العصور ـ انظر:

Harry Almer Barnes, A hist, of historical Writing (2nd. ed, Dover, New York, 1963), pp. 37 - 39.

انظر ايضا المقدمة التى كتبها ماتنجلى H. Lattingly للترجمة الانجليزية لكتابيه «الفلاح والجرمان». تحت عنوان:

The agricola and the Germania, Penguin classics, 1970

وكذلك: Kenneth Wellesley فى مقدمة الترجمة الانجليزية «للتواريخ» (Penguin 1974)

(٤) فلافيوس يوسيفوس Flavius Josephus (٣٧ ـ ١٠٥م) اسمه الأصلى «يوسف بن ماتياس» ولكنه اختار لنفسه الاسم الذى اشتهر به كمن يتخذ لنفسه اسم السيد اعتقه. أعدته ظروف ـ

كان السعى وراء «الشهرة الذائعة» بمثابة العقيدة التى تغذى الدافع المحرك للمؤرخين القدماء الذين رأوا فى هذه الشهرة مكافأة غير مباشرة لقاء ما يتجشمون من عناء.

وفى العصور الوسطى، فى الفترة ما بين سنة ٨٠٠ وسنة ١٢٠٠ تقريبا ارتفعت تكاليف إنتاج الكتاب، إذ كانت لفافة البردى القديمة قد اختفت وحلت محلها جلود الرق الغالية الثمن والتى كانت تجهز على شكل (رزم) تخاط سويا، وكانت هذه تحتاج إلى غلاف متين يحفظها من التفكك. كذلك اختفى العبيد المتمرسون على أعمال النسخ، كما اختفى حانوت بيع الكتب الذى عرفه العالم القديم، وصار الكتاب بحد ذاته شيئا نفيسا، واتخذ تداوله شكل الهدايا أو التبادل أو البيع بأثمان باهظة. وفى ذلك الحين كانت حجرات النسخ scriptoria التى انتشرت فى الأديرة والكاتدرائيات هى مراكز إنتاج الكتاب الرئيسية(٥). وفى بعض الأحيان كان الرهبان والقساوسة يستأجرون النساخين والفنانين المحترفين لنسخ المخطوطات وتوشيتها بالرسوم التوضيحية، لكنهم

= حياته لكى يصبح سياسيا ومحاربا، وخطيبا، ومؤرخا. وقضى السنوات الباكرة من حياته فى بلاده ثم زار روما سنة ٦٤ ـ وهى السنة التى وقف «نيرون» فيها يرقب السنة اللهب وهى تلتهم روما ـ زار البلاط الامبراطورى فى المدينة التليدة. وحاز شهرة واسعة كفلت له أن يتولى حكم الجليل سنة ٦٦ بعد هزيمة كستيوس Cestius أمام المتمردين اليهود. وبعدها سجنه فيسبباسيان Vespasian ثم صار منذ ذلك الحين خادما للرومان فى إخلاص شديد، وفى نهاية الحرب اليهودية صار مواطنا رومانيا ومن المقربين إلى الامبراطور حتى ان فيسبباسيان منحه إيراد الأراضى التى صادرها من اليهود التعساء. وقد وصلتنا أربعة مؤلفات له هى: «**الحرب اليهودية**» التى تعد أكثر أعماله إثارة، وهى أكثر المصادر التى تتعلق بتاريخ أهم فترات التاريخ الرومانى كمالا، وقد كتبت فى بداية الأمر باللغة الآرامية، ثم ترجمت إلى اليونانية، ولا يغيب عن الملاحظة أن العنوان يتشابه مع عناوين مؤلفات أخرى هى «**الحرب البونية**» أو «**الحرب الغالية**» بحيث يكشف كيف انحاز المؤلف تماما إلى الجانب الرومانى. والكتاب الثانى هو «آثار اليهود» الذى يتناول تاريخ اليهود القديم ويحوى عدة معلومات تاريخية هامة رغم كآبته، وقد كتب لنفسه ترجمة ذاتية يرد بها على ما شاع من أنه سبب الحرب اليهودية، وأخيرا كتابه الصغير «**ضد ابيون**» الذى يرد به على أحد الكتاب المعادين للسامية فى الاسكندرية. ويصفه بعض الباحثين المحدثين بأنه «خائن جيروساليم» نظرا للدور المشين الذى قام به فى الحرب اليهودية وانحيازه الكامل ضد بنى جلدته ـ انظر:

Josephus, The Jewish War, (translated by, G.A Williamson), pp. 7 - 17); Barnes, op. cit., pp. 24 - ff

(المترجم)

(٥) قامت الجماعات الديرية البندكتية فى جميع أنحاء أوربا الغربية بتأسيس المدارس، والمكتبات، وتخصيص حجرات النسخ مما جعل التعليم فى العصور الوسطى الباكرة ينحصر داخل إطار الكنيسة عموما والمؤسسات الديرية خصوصا. وكانت هذه الحركة تلبية للحاجات الاجتماعية الملحة آنذاك: إذ أنه بانهيار الدولة الرومانية فى الغرب، وتدهور المدن مساحة وعددا، وسكانا اختفت =

غالبا ما كانوا يقومون بهذه الأعمال بأنفسهم. ونتيجة لانحصار التعليم فى الأوساط الكنسية قل الاقبال على الكتب. ورغم أن الحماية كانت ما تزال معروفة، فإن معظم المؤلفين كانوا يكتبون بناء على تكليف أو بإذن من أحد رجال الكنيسة وليس إرضاء لواحد من الأمراء العلمانيين. كذلك استمر التأليف التاريخى بقصد إنفاق وقت الفراغ. ومن ناحية أخرى، تراجع الحافز الشخصى بسبب ما كانت الكنيسة تدعو إليه من وجوب التواضع، فلم يعد المؤرخ يكتب سعيا وراء الشهرة أو ذيوع الصيت.

والواقع أن مفهوم التأليف قد أهمل بشكل عام فى ذلك العصر. إذ كانت كلمة «مؤلف» فى العصور الوسطى تعنى «حجة». وبينما كان آباء الكنيسة يعتبرون مؤلفين ثقاة فى مجال الأدب المقدس، كان الشعراء وكتاب النثر الكلاسيكيون هم أندادهم فى مجال الأدب الدنيوى، أما خلفاؤهم فى العصور الوسطى فقد اعتبروا مجرد كتاب Writers أو جامعين compilers يفتقرون إلى ثقل الحجة authority.

وترتب على هذا أن انتقلت السرقة الأدبية إلى مصاف الفضائل بعد ما كانت تعد من الرذائل؛ فما كان ينبغى لأحد الكتاب أن يسطر بقلمه العاجز ما سبقت كتابته بطريقة أفضل، وكان المؤرخ الذى يسجل الأحداث المعاصرة له يجد نفسه مضطرا إلى قدر محدود من الأصالة فيعتذر لقرائه عنها. هذا الموقف المتغير من التأليف، أضفى على المؤلفات المجهولة المؤلف أهمية متزايدة، إذ أن الكاتب بات يفضل عدم ذكر اسمه أو يتستر وراء اسم أكبر لمؤلف عاش فى الماضى. وتمثلت النتيجة فى ذلك الكم الهائل من المؤلفات المجهولة المؤلف والعدد الكبير من المؤلفين ذوى الأسماء المستعارة فى مجال الفكر والتعليم فى العصور الوسطى. ولم يلبث التزييف أن لحق بالسرقة فى مصاف الفضائل.

وجاء القرنان الثانى عشر والثالث عشر ليشهدا ثورة فى ميدان إنتاج الكتاب؛ وهو

= المدارس التى تشرف عليها الدولة والبلديات، كما أن المدارس الأسقفية، من ناحية أخرى تعرضت للذبول والتدهور فى العصور الوسطى الباكرة بشكل مطرد نتيجة اعتمادها الكامل على الأساقفة الذين لم يكونوا فى الغلب يهتمون بالامور الثقافية. ويمكن القول انه بطلوع شمس القرن التاسع انتشرت المدارس المزدهرة والمكتبات الكبيرة، وحجرات النسخ فى الاديرة بشتى أنحاء أوربا الغربية، وثمة تقدير يقول إن حوالى ٩٠٪ من المتعلمين بين سنة ٦٠٠ وسنة ١٠٠٠ تلقوا تعليمهم فى المدارس الديرية ـ لمزيد من المعلومات عن سيطرة الكنيسة على التعليم فى العصور الوسطى انظر: على الغمراوى، مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط (الطبعة الثانية)، القاهرة ١٩٧٧)، ص ٧١ ـ ص ٧٦؛ سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ٣ج ٢، ص ١٢ ـ ص ١٩. انظر أيضا:

Norman F. Cantor, Medieval history, (2nd. ed. New York, 1969) pp. 166 – ff.

(المترجم)

ما يمكن تفسيره فى ضوء ازدياد الطلب على الكتب نتيجة لزيادة عدد المتعلمين، وتوفر الوقت اللازم للقراءة. كذلك فإن اختراع النظارات حوالى سنة ١٣٠٠ أطال فترة القدرة على القراءة بالنسبة لكبار السن. وعاود الناشرون وبائعو الكتب الظهور لا سيما فى المدن التى قامت بها الجامعات(٦). وكان الناشر يستخدم المحترفين فى حانوته لانتاج الطبعات الفاخرة بالطلب، إلا أنه كان يقوم فى الوقت نفسه بإنتاج نسخ عادية لبيعها فى حانوته. وابتكرت وسائل تسهيل العمل؛ إذ كان المجلد المراد نسخه يقسم إلى عدة أقسام أو «قطع»، على حد تعبير ذلك العصر، ثم توزع هذه القطع على عدة ناسخين يعملون فيها فى آن واحد بحيث يتم إنجازها بسرعة أكبر، الأمر الذى يؤدى إلى إنتاج عدد من النسخ ذات القيمة الجمالية المتواضعة بحيث يستطيع عدد أكبر من الدارسين أن يشتروها. إلا أن حقوق النشر ونسبة المؤلف لم يتم إقرارها سوى بعد اختراع الطباعة. بيد أن تكاليف إنتاج الكتاب انخفضت وصار بمقدور المؤلف أن يصل إلى جمهور عريض.

ونتيجة لظهور المدارس والجامعات فى العصور الوسطى، ظهرت مسألة حافز الربح الحرفى؛ إذ كان بإمكان المدرس المرموق فى تخصصه أن يجتذب أعدادا متزايدة من الطلاب. ولكن التاريخ لم يكن يدرس كمادة مستقلة سواء فى العصور القديمة أو فى العصور الوسطى؛ بل كان يدرس باعتباره ملحقا لمواد أخرى كما سنرى فيما بعد. ولم يكن باستطاعة أى طالب أن يسجل نفسه لدراسة التاريخ والامتحان فيه. وتتضح ضآلة المكانة التى احتلها التاريخ فى مجال التعليم فى العصور الوسطى من خلال قائمة الكتب التى وضعتها سلطات جامعة باريس سنة ١٢٨٦ لحماية المدرسين والطلاب من استغلال المكتبات؛ وذلك بتحديد السعر الأقصى لكل كتاب فى القائمة. وكانت القائمة تضم جميع الكتب التى كان المدرسون والطلاب يحتاجون إليها كقراءات أساسية فى مناهج الدراسة، ومن بين حوالى مائة وأربعين كتابا يمكن أن نعتبر ثلاثة منها فقط كتبا تاريخية. وأول هذه الكتب موجز لتاريخ الكتاب المقدس مع إضافة محدودة من التاريخ الوثنى، وضعه مدرس باريسى اسمه «بطرس كومستير» Peter Comester فى أواخر القرن الثالث عشر. وقد عرف هذا الكتاب باسم «التاريخ المدرسى» وكان يستخدم

---

(٦) لمزيد من المعلومات عن نهضة القرن الثانى عشر وظهور الجامعات انظر:
Philippe Wolff, The awakening of Europe (translated from French by Ann Carter, Penguin, 1968), pp. 216.ff

انظر أيضا: سعيد عاشور، المرجع السابق، ٣ج ٢، ص ٩١ - ص ١٨٦

انظر كذلك: جوزيف نسيم يوسف، نشأة الجامعات، فى العصور الوسطى، منشأة المعارف بالاسكندرية، ١٩٧١م

أحيانا فى محاضرات اللاهوت للمبتدئين. أما الكتاب الثانى، فموضوعه أساطير القديسين. ويتناول الكتاب الثالث سير آباء الصحراء. ولما كانت مناهج دراسة اللاهوت تتضمن التدريب على الوعظ والتبشير ورعاية شعب الكنيسة؛ فقد كان الطالب محتاجا إلى دراسة هذه الموضوعات كجزء من إعداده لهذه المهمة. ولم تكن هناك موضوعات تتعلق بالتاريخ الوسيط فيما عدا سير بعض القديسين الذين عاشوا فى العصور الوسطى مثل «توماس بيكيت»(٧)، وغيره ممن شملتهم دراسة أساطير القديسين. وتركت للطالب حرية اختيار الكتب التى يقرؤها فى وقت فراغه، إذ لم يكن للجامعة شأن بهذا.

كانت طريقة التدريس فى ذلك الحين تختلف عن طريقتنا الحالية. ذلك أننا نفكر فى ضوء ظروف الكلمة المكتوبة أو المسموعة على نطاق واسع، على حين كان كتاب العالم القديم والعصور الوسطى يتوقعون أن تقرأ كتبهم بصوت عال لحلقة من السامعين، وهى ممارسة قديمة تم إحياؤها فى القرن الثانى عشر، وربما قبل ذلك. وكان المؤلف يضع فى اعتباره – منذ اللحظة التى يبدأ فيها تأليف كتابه – الكيفية التى سيتم بها الاستماع إلى كتابه. وعادة ما كان يملى هذا الكتاب على أحد الأشخاص؛ إذ كان ينبغى للمرء أن يتجنب مزالق الانسياق وراء القلم إذا ما كان بمقدوره أن يستعين بأحد فى الكتابة. ثم يقرأ الكتاب من جديد على المؤلف، أو يقرأه هو بنفسه لعمل التصويبات اللازمة؛ مع مراعاة أن الكتاب سوف يقرأ بصوت عال أثناء تداوله. وكان الكتاب فى العصور الوسطى يخاطبون جمهورهم باعتبارهم «قراء» و«مستمعين» فى آن واحد. وكانت علامات الترقيم والوقفات توضع على هذا الأساس. فكتاب «التاريخ الكنسى» الذى كتبه «أوردريك فيتال Orderic Vital» مثلا، يحتوى على بعض الرموز والعلامات لبيان التغير فى طبقات الصوت أثناء القراءة. بل إن الشخص الذى كان يقرأ لنفسه، كان ينطق الكلمات بصوت عال مستخدما يديه فى التعبير أثناء القراءة مما جعل القراءة الخاصة بمثابة تدريب عقلى وجسدى معا. ولسنا نعرف على وجه الدقة – بسبب افتقارنا إلى الأدلة – متى صار من المعتاد أن يجرى المرء بعينيه على

---

(٧) هو توماس بيكيت Thomas Becket (ت. ١١٧٠) الذى كان كبير أساقفة كانتربورى فى عهد الملك الانجليزى هنرى الثانى (١١٥٤ ـ ١١٨٩)، ورغم أن هنرى هو الذى اختار بيكيت لهذا المنصب إلا أن النزاع بينهما احتدم حول «الحريات الكنسية»، ثم اسدل الستار عليه بمصرع بيكيت المأساوى على يد اربعة من فرسان الملك الذين غضبوا لسيدهم. وقد أثار مقتل كبير الأساقفة الرأى العام ضد الملك، واعتبر بيكيت قديسا وشهيدا.

انظر : نورمان ف كانتور، التاريخ الوسيط – قصة حضارة: البداية والنهاية (ترجمة وتعليق د.قاسم عبده قاسم – دار المعارف ١٩٨٣م)، جـ٢، ص٦٣٦ – ص٦٣٩.

السطور. وعلينا الآن أن نتناول بالدراسة أولئك الكتاب الذين كانوا يخاطبون جمهورهم مشافهة، الأمر الذى يوضح ويفسر الكثير مما نراه غريبا فى مؤرخى العصور الوسطى. فالكاتب الذى يخاطب الأذن لابد وأن يلجأ إلى كل حيلة ممكنة ليحوز رضاء سامعيه ويجتذب انتباههم. وسواء كان يخاطب جمهوره مباشرة أو كان يتخيل أن أحدا غيره سوف يقرأ كتابه، فإنه كان يتوخى التأثير البلاغى فى مستمعيه. وغالبا ما كان مؤرخو القرنين الحادى عشر، والثانى عشر، يستخدمون النثر المسجوع، وينساقون بسهولة إلى منزلق الشعر. ولا يستطيع أمهر المترجمين من اللاتينية إلى الانجليزية أن يتجنب الوقوع فى فخاخ الرتابة، لأن الايقاعات الأصلية التى توخاها المؤلف لن تبدو واضحة فى الترجمة.

وكان للاقتراب المباشر من الجمهور تأثيره على مضمون الكتاب بقدر ما كان له تأثيره على شكله. ذلك أن القارىء الذى لا نراه قد يغلق الكتاب متثائبا إذا ما أحس بالضجر، ولكن المستمعين الذين نراهم يعبرون عن ضجرهم بطريقة واضحة. وثمة مؤرخ عاش فى القرن التاسع اسمه «اجنيللوس Agnellus» كان يقرأ كتابه عن تاريخ الكنيسة لجمهور من المستعمين فى بلدته رافنا، وهو شخص يتسم بالحرارة وكثرة الكلام؛ فهو يخبرنا متى توقف عن القراءة، كما يوضح لنا مدى انتباه المستمعين لما يقول أو تململهم منه؛ إذ يقول: «**كنتم اليوم مشدودين إلى كلماتى**» أو «**بالأمس أبديتم دلائل الضجر**». ومن المسلم به أن رواية الطرائف والنوادر تعد وسيلة فعالة للغاية فى الاستيلاء على انتباه السامعين؛ وهذا ما فعله أجنيللوس. وكثيرا ما يطلب من الدارسين والطلاب فى عصرنا الحديث أن «**يحاولوا الدخول فى عقل المؤرخ**»؛ وهو ما يعنى أنه ينبغى عليهم، لكى يفهموا أحد مؤرخى العصور الوسطى أن يجلسوا بين مستمعيه. فالواقع أن الاتصال بين المؤلف وجمهوره فى تلك العصور كان اتصالا شفويا، ولذا فإنه كان يتوقع منهم أن ينصتوا أثناء كلامه، وأن يضحكوا إذا ما ألقى بنكتة لتسليتهم.

كذلك كان الكاتب فى العصور الوسطى يفترض أن يكون التراث الذى يعمل فى رحابه مألوفا لدى المستمعين. إذ أنه كان يصوغ عباراته من كلام الأجداد، كما كانت قراءاته الخاصة تحكم أفكاره فيما يتعلق بكيفية كتابة التاريخ، وما يجب أن تكون عليه. ويجدر بنا أن نفهم أفكاره المسبقة التى كانت تضرب بجذورها فى العصور القديمة، وتاريخ الكتاب المقدس، وكتابات آباء الكنيسة. وهكذا نجد انفسنا مضطرين إلى القيام برحلة تقهقرية فى رحاب الزمان، وذلك لكى نعود إلى أيام شيشرون وعصر موسى حتى نفهم كيفية تناول المؤرخ فى العصور الوسطى لمادته وكيفية عرضها على مستمعيه. ورغم اختلاط التراث القديم بالتراث الكلاسيكى وتداخلهما، فإن من الممكن

فصلهما إلى حد ما؛ وذلك بالبحث عن تأثير كل منهما على التدوين التاريخى فى العصور الوسطى. فقد كان التراث اللاتينى القديم مصدراً للموضوعات التى عالجتها مختلف أشكال التدوين التاريخى، كما كان مصدرا لقواعد الكتابة فى كل من هذه الموضوعات المختلفة، فضلا عن النماذج التى كان على مؤرخى العصور الوسطى أن يسيروا على هديها. وبقدر نصيب كتاب العصور الوسطى من الثقافة الكلاسيكية كان يتحدد التزامهم بالتقاليد القديمة أو تعديلهم إياها، ورغم كل ما طرأ على الظروف المادية والمناخ الفكرى من تغيرات، فقد ظل ولاؤهم للقديم باقيا. ومن ناحية أخرى، كان للكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة تأثيرها على مضمون الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى، وعلى مجال هذه الكتابة وأهدافها.

الفصل الثانى

التراث الرومانى

ورث كتاب العصور الوسطى بعض التصورات والمفاهيم الواضحة عن مختلف موضوعات التدوين التاريخى. إذ كان القدماء يميزون بين كتاب الحوليات والمؤرخين؛ فالحوليات annals عبارة عن سجلات للأحداث سنة وراء أخرى حيث كانت حكومات المدن تهتم بحفظ قوائم بأسماء الموظفين، وسجلات بالجوائز التى منحت فى المسابقات الرياضية المحلية، والاتفاقيات، أو الحروب التى خاضتها ضد المدن المجاورة. وكان كاتب الحولية يدون هذه السجلات لتكون مراجع تستقى منها المعلومات، إلا أنه لم يكن ثمة من الأسباب ما يجعله يعرضها فى شكل أدبى. إذ كان «**الاختصار دون غموض**» ـ كما يقول شيشرون ـ هو غاية ما يتطلع إليه كاتب الحولية. أما التاريخ فكان يختلف عن الحولية من حيث كونه تأليفاادبيا. كانت الحوليات تستخدم كمراجع، على حين كان التاريخ يستخدم كمادة للقراءة أو السماع. كما أن التاريخ احتل مكانه إلى جانب أشكال التعبير الأدبى الأخرى مثل الدراما أو الهجاء. وقد عرفت العصور الوسطى هذا التمييز بين الحولية والتاريخ؛ إذ كانت المدونات والحوليات تسجل الأحداث وفقا لتتابعها الزمنى دون أن يهتم جامعوها بأن تتخذ سمة العرض الأدبى الرشيق. وعلى العكس من ذلك كان المؤرخ يولى اهتماما فائقا بالأسلوب دون أن يتقيد بالنظام الحولى الصارم. وكان يستطيع الاستطراد أحيانا، كما يستطيع استعادة بعض المواقف من الماضى أحيانا أخرى، فضلا عن أنه كان يفرق بين التاريخ والأشكال الأدبية. وهناك اثنان من مؤرخى القرن الثانى عشر ذاع صيتهما فى مجال الكلاسيكيات اللاتينية، يضربان لنا المثل على ذلك؛ فها هو «**أوتو الفريزى**[1]» يقول، وقد اعترته مشاعر الكآبة، إن ما يكتبه «**تراجيديا وليس تاريخا**»، بينما يعبر «**وليم الصورى**» عن اشمئزازه من سلوك معاصريه وأخلاقياتهم بقوله أنه إذا أراد وصف

---

(١) هو أوتو اسقف فريزيا Bishop Otto of Freising (ت ١١٥٨م) سليل واحدة من أكبر وأعرق العائلات الأرستقراطية فى أوربا العصور الوسطى، وهى أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen فى المانيا: تلقى تعليمه فى باريس (١١٢٧ – ١١٣٣م)، ثم انضم إلى طائفة الرهبان السسترشيان، وبعدها صار رئيسا لأحد الأديرة، وأخيرا تم انتخابه اسقفا لفريزيا فى سنة ١١٣٧. اهم مؤلفاته التاريخية كتابان يتصفان بقدر كبير من العقلانية والنزعة الفلسفية. أولهما كتاب «المدينتين» الذى كتبه سنة ١١٤٦م وهو عبارة عن مسح مفرط فى التشاؤم لتاريخ العالم كتبه تحت تأثير فكر

هذا السلوك وهذه الأخلاقيات فإن ما يكتبه سيكون «**هجاء وليس تاريخا**».

كانت للتاريخ مكانته فى التعليم عند الرومان باعتباره فرعا من فروع البلاغة التى كانت أهم موضوعات الدراسة والتعليم فى المدارس آنذاك. ويمكن تعريف البلاغة بأنها «**فن الاقناع كتابة وخطابة**». إذ كان التلميذ فى المراحل النهائية فى المدارس الرومانية ينال من التعليم ما يؤهله لكى يكون خطيبا على استعداد للتحدث فى المجالس العامة أو فى ساحات القضاء. وكما كان عليه أن يتعلم أساليب مخاطبة الجماهير وجب عليه أيضا أن يتسلح بالثقافة الأدبية السائدة والتى تليق بكرام الرجال، قبل أن ينتهى من تعليمه. كان يتعلم كيف يكتب ويتحدث فى أسلوب رشيق؛ ففن الاقناع يعنى ضمنا القدرة على مخاطبة عواطف الجماهير واجتذابها. وهنا تبرز قيمة التاريخ لأن رواية القصص والحكايات على سبيل المثال واحدة من أفضل وسائل اجتذاب السامعين. وهكذا كان الخطيب يستولى على ألباب سامعيه (أو هو يحاول ذلك) بأن يقص عليهم القصص عن فضائل الرومان القدماء وعزوفهم عن الرذائل. وكانت دراسته للنحو، كمدخل لدراسة البلاغة تقوده إلى ميدان التاريخ القديم والأساطير. وذلك أن المدرس الذى يعلم تلاميذه كيف يقرءون الشعراء الكلاسيكيين، كان يجد نفسه مضطرا، اثناء محاضرته عن «فرجيل» أو «أوفيد» إلى شرح ما أورده من إشارات؛ تارخية كانت أم أسطورية، جغرافية أو كوزمولوجية[٢] لكى ييسر على تلاميذه فهم ما يدرسونــه من أشعار.

وفى العصور الوسطى ظلت هذه الطريقة التعليمية قائمة. إذ كان التلميذ يدرس مضمون التاريخ - أو جزءا منه على الأقل - من خلال النصوص الأدبية حيث يستمع إلى شرح ما تضمنته هذه النصوص من إشارات تاريخية، وبعبارة أخرى كان التلميذ يلتقط شذرات المعرفة التاريخية أثناء دروس النحو وعليه أن يدعم وينمى هذه المعرفة التاريخية الشذرية بقراءاته الخاصة. وفى العصر الرومانى كان لابد من توفر الأمثلة التاريخية فى جعبة المثقفين، وهو ما يصدق أيضا على علماء العصور الوسطى، على الرغم من أن مدى إشاراتهم التاريخية كان يتوقف على ما يتاح لهم من كتب. واستمر

اوغسطين. وفى هذا الكتاب اوضح أوتو الفريزى أن تاريخ الممالك العلمانية يكاد الا يكون شيئا غير سجل للجرائم الكريهة. اما كتابه الثانى، فهو أعمال فردريك بربروسا، وقد ظل عاكفا على كتابته حتى توفى واكمله سكرتيره رايفين. هذا الكتاب يقف على النقيض من كتابه الأول، فهو يرحب بالدولة ويسبغ الكثير من السجايا الأخلاقية على السلطة العلمانية.

انظر: نورمان كانتور، التاريخ الوسيط ،٢ج ٢، ص ٥٣٧ - ص ٥٤٠. (المترجم)

(٢) الكوزمولوجى Cosmology فرع من الميتافيزيقا يعتبر العالم كلا منتظما. (المترجم)

هذا النظام التعليمى قائما رغم التسهيلات التى طرأت على الدراسات العليا أواخر العصر القديم. كان التاريخ يدرس على هامش الأدب، باعتباره موضوعا ثانويا، ولكنه كان يضمن بقاءه لارتباطه بدراسة الشعراء الكلاسيكيين وبعض شعراء العصور الوسطى. وكانت دراسة الآداب الحرة الثلاثة[٣] تشمل دراسة النحو، والبلاغة والمنطق. ولعبت دراسة التاريخ، التى انحصرت ما بين النحو والبلاغة،دورا ثانويا فى البرامج الدراسية. فقد كان الطالب يدرس التاريخ بشكل أو بآخر، إلا أنه لم يكن مطالبا بأن يكتب التاريخ كجزء من تدريبه على الكتابة. وإذا ما اراد أستاذه أن يشجعه على تدريب مواهبه من خلال التمرينات المدرسية، جعله يتدرب على قرض الشعر أو تأليف النثر فى موضوعات أدبية أو دينية. وليست هناك فيما نعلم، مقالات مدرسية تدريبية فى التاريخ، رغم أن أية فترة تاريخية قديمة، يمكن بطبيعة الحال، أن تصلح موضوعا للتمرين وذلك لأن المدرس كان يمنح الدرجات لتلاميذه على أساس مهارتهم فى العرض الأدبى.

وقد أرسى شيشرون القواعد التى يجب على الخطيب الالتزام بها عند روايته للتاريخ، كما أن كتبه عن البلاغة تركت أثرا لا يمحى على علماء العصور الوسطى. إذ أنه جعل على راوية التاريخ مسئولية أدبية تلزمه برواية الحقيقة دونما تحيز أو حقد، حتى ولو غضب أولئك الذين قد تكون الحقيقة مريرة بالنسبة لهم. أما المنهج الذى

---

(٣) الآداب أو الفنون الحرة الثلاثة Trivium، والعلوم الحرة الأربعة quadirivium، هى العلوم السبعة التى عرفت فى العصور الوسطى باسم العلوم الحرة Artes Liberales، وهى العلوم التى اختارها مارتيانوس كابيلا Martianus Capella (أحد علماء أفريقيا فى النصف الأول من القرن الخامس) لتكون علوم التخصص فى المدارس. والفنون الثلاثة هى: النحو Grammatica، والبلاغة Rhetorica، والمنطق Dialectica أما العلوم الاربعة فهى: الحساب Arithmetica، والهندسة Geometrica والفلك Astronomica، والموسيقى Musica. وقد عرض كابيلا لهذه العلوم الحرة فى الجزء الثانى من موسوعته الغريبة الصغيرة والتى صارت تعرف منذ القرن السادس باسم أكثر غرابة هو: «قران الفيلولوجيا ومركوريوس De nuptiis philologiae et Mercurii»، لأن كابيلا صور الفيلولوجيا فى صورة عروس تصعد إلى السماء بأشبينات من العلوم الانسانية (التى اختارها) لكى تتزوج من مركوريوس إله الفصاحة ورسول الآلهة عند الرومان. وقد وافقت الكنيسة الغربية على تقرير هذه العلوم السبعة فى مدارسها الدينية باعتبارها مقدمة لعلوم الدين. وظلت هذه العلوم السبعة تحكم التعليم فى مدارس الغرب الدينية طوال العصور الباكرة، وحتى ظهور الجامعات مما ترك آثاره السلبية على التعليم والحياة الثقافية بوجه عام.

لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر:

على الغمراوى: مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط، ص ٧٢ – ص ٧٤، وكذلك Cantor, Med. Hist., pp. 207.ff (المترجم)

أوصى به شيشرون فهو « **الترتيب الزمنى والعرض الجغرافى** ». وكان على ا لمؤرخ أن يبحث عن الأسباب فلا يكفى أن يعرض ما تم انجازه من أعمال عظيمة، وإنما ينبغى عليه أن يبين كيفية انجازها وسبب هذا الانجاز، واضعا فى اعتباره ما يمكن للصدفة والحكمة أو الحماقة الانسانية، أن تؤثر به فى العملية التاريخية دون أن ينسى « **السير والشخصيات** ». وعليه أن يكتب فى أسلوب سهل جزل. ويصف شيشرون التاريخ بكلمات تصادف هوى فى نفوس المولعين به فيقول :

« **التاريخ شاهد على مر العصور، يسلط الضوء على الحقيقة، ويبث الحياة فيما يستعاد من رحاب الماضى، وهو يقود الانسانية إلى سبل الهداية والرشاد، كما يروى لنا أخبار الأيام الخوالى** ».

وتكشف النظرة المتانية الفاحصة عن أن شيشرون قد أعلى من شأن البلاغة على حساب التاريخ، وهو ما يتجسد واضحا فى قوله مستطردا على عبارته السابقة :« **فأى صوت إذن، غير صوت الخطيب يمكن أن نثق به فى مجال الخلود** ؟ ».

لقد حققت كلمات شيشرون من الذيوع والانتشار ما جعلها موضوعا ٣ل١لاقتباس حتى من بعض الذين لم يقرءوا شيشرون أصلا. كما فعل أحد الشراح حين كتب على هامش نسخة من كتاب « التاريخ المدرسى » كانت ملكا لأسقفية جيمييج Jumieges، عبارة شيشرون « **كان التاريخ مبجلا** ».

لقد قدم المؤرخون الرومان النماذج التى سار مؤرخو العصور الوسطى على نهجها، وكان اختيار مؤرخى العصور الوسطى للكتب التى يقرأونها يتوقف على مدى استساغتهم لها من جهة، وعلى ما بقى من مخطوطات العصر القديم التى نجت من عوادى الزمن من جهة أخرى. ولم يكن مؤرخو العصور الوسطى ـ باستثناءات نادرة ـ يعرفون اللغة اليونانية، كما لم يكن لديهم أية ترجمات لمؤلفات المؤرخين الأغريق القدماء. وكان ليفى (٥٩ق.م ـ ١٧م)[٤] أحد المؤرخين اللاتين الذين نالوا الحظوة

---

(٤) هو Titus Livius الذى يصفه البعض بأنه مؤرخ الرومان الوطنى، وبأنه واحد من أعظم رواة القصص فى جميع العصور، ويتناول مؤلفه ـ الذى يعتبر ملحمة نثرية ضخمة ـ تطور الدولة الرومانية العالمية. وقد اتخذ ليفيوس من البلاغيين الاغريق قدوة لنفسه. والف ليفى كتابه لتمجيد روما، لكى يبث فى الشباب روح الولاء للوطن والتفانى من أجل رفعته. ورغم أن البعض يأخذ عليه عدم دقته فى إستخدام المصادر إلا أن المؤرخ والفيلسوف الانجليزى كولينجوود (١٨٨٩ـ١٩٤٣) يدافع عنه فى هذه الناحية على أساس أنه وجد أمامه عددا من الأساطير ولم يكن يعرف المناهج النقدية الحديثة التى تمكنه من تمحيص مصادره.!

انظر : كولينجوود : فكرة التاريخ (ترجمة محمد بكير خليل، لجنة التأليف والترجمة ،والنشر، =

والاعجاب فى العصور الوسطى، بيد أنه لم يكن يجتذب قراء كثيرين آنذاك. ولم تعاود كتاباته الانتشار مرة أخرى سوى فى أواخر القرن الثالث عشر، لأن كتابه «تأسيس المدينة» كان عملا طموحا فى مقياسه بحيث لا يمكن لمؤرخى العصور الوسطى أن يقلدوه. أما تاكيتوس فلم يحظ بأى رواج فى العصور الوسطى، على حين كان سالست (٨٧ ـ ٣٦ ق.م) هو المؤرخ المفضل. إذ ظلت رسالتاه عن «مؤامرة كاتلينا» و «الحرب اليوجورتية» متداولتين رغم تضاؤل عدد النصوص القديمة التى كانت متاحة آنذاك. لأن هاتين الرسالتين كانتا من حجم يمكن لمؤرخى العصور الوسطى أن يقلدوه. ومن ثم كان سالست يعتبر فى تلك العصور كاتبا نموذجيا يكتب بلغة لاتينية واضحة وسهلة التقليد.

ومن خلال الأسلوب والمنهج اللذين اتبعهما المؤرخون الرومان تتبدى لنا الحلقة التى تربط بين التاريخ والبلاغة واضحة جلية. إذ ترسخت بعض التقاليد الأدبية التى كان على المؤرخ أن يتبعها؛ فقد كان عليه أن ينطق شخصياته ـ سواء كانت الشخصية قائدا يخاطب جنوده قبيل المعركة، أو رجل دولة يعرض قضية أمام مؤتمر أو مجلس... أو غير ذلك ـ بخطب من تأليفه.وليس من المفروض أن يتقبل القراء مثل هذه الخطب باعتبارها تسجيلا لما قيل بالفعل، أو حتى باعتبارها تقريرا دقيقا عما قيل: لأن مثل هذه الخطب قد تدل على فحوى الكلام الذى قيل فعلا دون أن تلتزم بنصه، ولكن وظيفة هذه الخطب الرئيسية هى زخرفة الأسلوب. وفى العصور الوسطى كان الطلاب يستمتعون بخطب سالست ويقبلون على نسخها فى شغف، وكان من المتعارف عليه آنذاك عدم التزام الدقة، كما كان تغيير التواريخ الواردة فى النصوص الأصلية أمرا مقبولا، ولم تكن ثمة ضرورة لتوثيق تلك النصوص. وكان الكاتب الذى يسجل فى كتابه نسخا من المراسيم والمعاهدات يكسر النسق البلاغى لكتابه فى سبيل الخوض فى غمار اللغة الحكومية. ورغم أن شيشرون وضع قاعدة تلزم المؤرخون بذكر الحقيقة، فانه لم يحدد أبعاد هذه «الحقيقة» بشكل دقيق.

لقد تناول سالست التاريخ باعتباره فرعا من فروع علم الأخلاق، الذى كان بدوره

= القاهرة ١٩٦٨)، ص ٨٥ – ص٩١. وقد اعتمد ليفى فى مؤلفه على كتابات المؤرخين السابقين بالاضافة إلى السجلات التى حفظت تاريخ روما الباكر. وأهم ما يميز ليفى هو أنه كان يؤكد على الهدف الأخلاقى للتاريخ، كما انه كان يعتقد أن نجاحه يتوقف على ما أوتى من صفات الأديب، لأنه كان يعلم أن ما يكتبه، وإن لم يكن تاريخا بالمعنى العلمى، فانه أدب راق ودعاية وطنية جيدة. لقد ابتكر ليفى فكرة كتابة تاريخ روما منذ نشأتها، وكان فى ذلك معبرا عن الرومان فى اعتقادهم أن تاريخهم، فقط هو الجدير بالتدوين لثقتهم فى تفوقهم على الشعوب الأخرى.

انظر: Barnes, A hist. of historical Writing, pp. 36-8.

من فروع البلاغة، وكان الخطيب «**رجلا حاذقا ماهرا فى الحديث**». ومن الناحية النظرية كان عليه أن يسخر مهارته فى خدمة قضية شريفة. كذلك كانت رؤية سالست للتاريخ رؤية أخلاقية: إذ رأى فيه دروسا أخلاقية، وكان يرى أن على الرومان أن يتجهوا بأنظارهم صوب الماضى حين كان أجدادهم جنودا ـ مزارعين قبل أن تفسد الرفاهية وحالة السلم أحفادهم، وتقودهم إلى التدهور الحضارى وإلى الهزيمة على أيدى أعدائهم من الأجانب. وفى رأى سالست أنه ينبغى على المؤرخ أن يكون رقيبا يكشف عن الأمثلة الطيبة والسيئة على حد سواء، كما يجب عليه أن يكون بصيرا بدوافع الناس الحقيقية. وفى هذا الصدد تميز سالست بسخريته اللاذعة، لأنه كان يميل بشكل عام إلى الأخذ بالدوافع الأسوأ. وقد أقنع القراء فى العصور الوسطى بأن للتاريخ هدفا أخلاقيا، وبأن للمؤرخ الحق فى تزيين وزخرفة روايته، وأن عليه أن يرصع مشاهد المعارك والحصار الدرامية بما يضعه من خطب وغيرها من لوازم العرض على مسرح الأحداث.

كان لسالست تأثير طاغ فى تطوير الرسائل التاريخية التى حلت محل التاريخ العالمى أو المدونة من جهة، والتاريخ المحلى من جهة أخرى. وقد أعادت رسالتاه تأكيد تعليم شيشرون عن أهمية الجغرافيا من خلال ما أوردتاه من أمثلة. إذ وصف سالست البيئة التى دارت فى إطارها الحرب اليوجورتية فى شمال أفريقية، كما شرح كيف تركت هذه البيئة أثرها على عادات وأفكار وتقاليد القبائل المراكشية؛ وأوضح أيضا كيف كان لهذه العوامل أثرها فى الانتصارات الأولية التى أحرزها المراكشيون، ثم فى الهزيمة التى لحقت بهم فى نهايةهذه الحرب التى خاضوها ضد روما. وترسخت «مؤامرة كاتيلينا» و «الحرب اليوجورتية» فى أعماق وعى العصور الوسطى بحيث صارت الاقتباسات والعبارات المأخوذة عن سالست تشكل جزءا هاما فى بنية المؤلفات التاريخية التى كتبت آنذاك. دعك من محاولات تقليد الخطب ومشاهد المعارك التى كتبها. أما يوليوس قيصر، فان كتابيه «الحرب الغالية» و«الحرب الأهلية»، يحكيان قصة الحملات التى تولى قيادتها بأسلوب عملى موجز وجاف. وفى العصور الوسطى حظى كتابا قيصر باهتمام المتعلمين الذين أقبلوا على قراءتهما والاقتباس منهما، إلا أنهما لم يبلغا فى ذلك مبلغ رسالتى سالست. فقد كان قيصر أكثر جفافا، وربما يكون الرهبان الذين مارسوا كتابة التاريخ آنذاك قد أحسوا بأن المؤلف المدنى (سالست) أقرب اليهم من القائد العسكرى (قيصر).

وعرف مؤرخو العصور الوسطى كتابة التراجم كموضوع من موضوعات التدوين التاريخى، من خلال كتاب سويتونيوس Suetonius Tranquillus (٧٥ – ١٦٠) المسمى «تراجم القياصرة» (أوائل القرن الثانى للميلاد). وقد بدأت هذه التراجم

بيوليوس قيصر، وانتهت بـدوميتيان Donitianus. وكـانت لهذا المـوضوع قـواعده الخاصة به؛ ففيه يعرض سوتيونيوس مادته على نحو أشبه بالصور الفوتوغرافية منه بالشريط السينمائى الحى. إذ كانت ترجمة كل إمبراطور تتألف من حياته الباكرة، وحياته الخاصة، وشخصيته، وبنيانه الجسدى، وأفكاره ثم فعاله كحاكم. ولم يهتم سوتيونيوس بالتفاعل بين العام والخاص، كما أنه لم يتتبع خط تطور الشخصية. ولكنه كان يبين أحيانا أنه يمكن للحاكم أن ينهار تحت وطأة الارهـاق الناتـج عن تبعات الحكم. كذلك لم يكن سوتيونيوس يتعمق فى البحث عن الدوافع. ويمكن القول بأنه كان يتسم أحيانا بالرعونة والتسرع فى إصدارالأحكام؛ فهو يقول مثلا إن من أسباب غزو يوليوس قيصر لبريطانيا ولعه باللآلى التى كانت تنتجها بوفرة. كما أنه لم يكن عادلا من الناحية الأخلاقية رغم أنه يضع مقياسا عاما للصواب والخطأ، بل إنه يصل فى تهاونه إلى حد أنه يرى أن باستطاعة أسوأ الأباطرة أن يشرع القوانين الجيدة، وأن يتخذ الاجراءات العادلة.

وإذا كان سوتيونيوس لم يختر موضوعا بلاغيا، فانه قد فكر فى اتخاذ مثل هذا الموضوع البلاغى دليلا يقيم به مادته التاريخية. فكتابه «عن النحويين والبلاغيين» يعد بمثابة فاتحة لنمط جديد من كتابة التراجم هو كتابه تراجم الأدباء. ولم يصلنا من هذا الكتاب سوى شذرات. ولكن سان جيروم [٥] اتخذه نموذجا صاغ على مثاله كتابه «عن الرجال النابهين». ومنذ ذلك الحين فصاعـدا صار من حق العلمـاء أن تدون تراجمهم شأنهم فى ذلك شأن الحكام تماما. لقد قدم سويتونيوس ما يرضى القراء فى العصور انطلاقا من مقولة «**اننى أهوى التاريخ لأننى أهتم بالناس**». وكان من الممكن أن تكون معلوماتنا عن السجايا الشخصية لحكام العصور الوسطى أقل مما هى عليه لو لم يهتم سويتونيوس بأن يذكر أن أوغسطس المقدس كان يرتدى صديريا من الصوف فى الشتاء، ولو لم يهتم وليم المالمسبورى ـ الذى تأثر به ـ بأن يخبرنا أن هنرى الأول كان كثيف شعر الصدر، وأن شخيره كان يعلو أثناء نومه.

(٥) ولد جيروم بدلماشيا سنة ٣٤٠، وتلقى تعليمه الأولى فى بيت الأسرة ثم رحل الى روما حيث درس النحو والشعر وتدرب على الشئون القضائية فى محاكم روما، كما درس الفلسفة اليونانية وتم عماده الى المسيحية سنة ٣٦٠. أهم اعماله هو الترجمة اللاتينية لحـولية ايـوسيبيوس والتـرجمة اللاتينية للكتاب المقدس والمعروف باسم Vulgata وكانت وفاته بفلسطين سنة ٤٢٠.

عن حياة جيروم ومؤلفاته انظر:

E.K. Rand, Founders of the Middle Ages, (Dover, New York, 1957), pp. 102-134. ; Cantor (N.F), The Medieval World, (2nd ed. Macmillan, 1968), pp. 28-31:

وكذلك اسحق عبيـد، من الارك الى جستنيان (دار المعـارف ١٩٧٧)، ص ١٥٩ – ص ١٦١ وص ٢١٠ – ص ٢١٦ والنصوص اللاتينية لرسائلة: ص ٢٦٣ – ٢٦٨.

والى جانب «سير القياصرة»، كان هناك موضوع آخر للتراجم هى المراثى التى ترجع فى اصلها الى الخطابة الجنائزية؛ التى كانت بدورها ضربا من ضروب البلاغة. فقد كان كاتب المرثية يكيل المديح والثناء على شخص المتوفى طبقا لقواعد مقررة: إذ كان يبالغ فى اطرائه بالافاضة فى الحديث عن اسلافه النبلاء، ثم يتطرق الى الخطوط التقليدية. فاذا ما كان المتوفى رجلا عصاميا، يذكر انه احرز مكانته بفضل اعماله الطيبة وما حباه الله من فضائل. وكان لهذين الموضوعين تأثيرهما من حيث فصل التاريخ عن التراجم. ولم يكن هناك احد من المؤرخين يفكر فى الجمع بين الترجمة والتتابع الزمنى فى الموضوع الذى يتناوله: لأن ذلك كان يعنى الخلط بين موضوعين مختلفين من موضوعات الكتابة التاريخية آنذاك.

أما فاليريوس مكسيموس Valerius Maximus، فقد تناول التاريخ على شكل امثلة ونوادر. وينقسم كتابه المسمى «الأفعال والأقوال المأثورة» (كتب بعد سنة ٤٠م) الى عدة اقسام تتناول انماطا شتى من الفضائل والرذائل؛ مثل التقوى واحترام الآلهة، ونقيضها مثل السلوك الالحادى، ثم يورد فى كل قسم من أقسام كتابه امثلة رومانية أو اجنبية. فقد كان يأمل ان يزود الخطيب بقصة جاهزة لكل مناسبة. ويمكن ان نعرف هذا النوع من الكتابة التاريخية بأنه «تاريخ معلب». ذلك لأن المرء يختار من المجموعة كما لو كانت علبة من الشيكولاتة. كذلك فان مكسيموس قد أكد الاتجاه الى اعتبار التاريخ دروسا أخلاقية للعظة والعبرة. ومن حسناته أن كتابه «الأفعال والأقوال المأثورة» قد يسر للناس معرفة واضحة بالفترات الهامة والتافهة فى التاريخ القديم على حد سواء كما أنه صار مرجعا لكتاب الموسوعات، فضلا عن انه اكتسب شعبية واسعة وذاع صيته بين المبشرين والوعاظ منذ القرن الثانى عشر فصاعدا. وهكذا ظهرت مجموعات الأمثلة exampla فى العصور الوسطى. ولا نعرف مدى تأثير مكسيموس على كتاب هذه المجموعات: إلا أنه كان قد وضع أمامهم المثال الذى حاز إعجابهم.

ويمثل كتاب ايسيدور الاشبيلى (ت ٦٣٦)[٦] «الاشتقاقات Etymologies» الحلقة

(٦) اسمه اللاتينى Isidorus Hispalensis (حوالى ٥٧٠ – ٦٣٦) ورغم انه عاش حياته فى اسبانيا تحت حكم القوط الغربيين وعاصر تسعة من ملوكهم، فانه لم يكن جرمانيا. بل كان سليل أسرة عريقة انتقلت من شمال افريقيا الى أسبانيا فى اوائل القرن السادس. ويعد من اهم المساهمين فى التراث الثقافى الغربى منذ القرن الرابع حتى القرن الثامن. وكان لايسيدور تأثير كبير على التعليم فى العصور الوسطى الباكرة وعلى الحياة الثقافية فى الغرب بوجه عام، ويعده بعض الباحثين واحدا من اهم الرجال الذين يعتبرون علامة على فترة الوصل بين الثقافة القديمة، وثقافة العصور الوسطى ويرى هؤلاء أن المستوى الهابط لمؤلفاته يعتبر من مؤشرات بداية العصور الوسطى، وقد وضع ايسيدور عدة مؤلفات تاريخية اهمها المدونات Chronica التى وصلت بتاريخ العالم إلى أحداث عصره، --

الأخيرة فى التراث الرومانى. فقد صارت هذه الموسوعة مثالا يحتذى فى العصور الوسطى، كما أن أى باحث لم يكن ليستغنى عن البحث فيها عما يهمه من موضوعات. ورغم ان ايسيدور كان أسقفا فان موسوعته التى جمعها من مصادر التراث الأدبى القديم التى تيسر له الحصول عليها فى أسبانيا القوط الغربيين فى القرن السابع، قد صارت مصدرا لكل ما يحتاج إليه العلماء من معلومات. ومعظم هذه المعلومات مستمدة من الكتب القديمة التى ترجع الى أواخر العصور القديمة والتى اختفت إبان الفتح العربى لأسبانيا، وعلى حين يمكن معرفة مصادر ايسيدور من خلال الكتب القديمة التى نجت من عوادى الزمان، فانه كان قادرا على هضم المادة التى جمعها بعد أن تختمر فى عقله ثم يعبر عنها بعد ذلك بأسلوبه الخاص.

وللمقالة فى المؤلفات التاريخية صوت مألوف فى النغمات الايسيدورية. اذ يبدو التاريخ فى صورة تنبؤية على اعتبار أنه جزء من النحو الذى هو جزء من البلاغة. ويعرف ايسيدور النحو بأنه «**فن الكتابة**»، بينما يعرف التاريخ بأنه «**حكاية مكتوبة من نوع معين**». وهو يميز التاريخ عن الأسطورة، وعن القصة التهذيبية التى تعبر عن الحقيقة من خلال الحكاية، كما يحدث فى قصص ايسوب Aesop حيث تتكلم الحيوانات وتتصرف كالآدميين. بينما تعبر الأساطير الشعرية عن الحقيقة من خلال قصص الآلهة. أما التاريخ فانه يختلف عن هذه الحكايات من حيث كونه موضوعا حقيقيا لأنه «**قصة الأعمال التى تمت، وبفضل هذه الحكاية أصبحنا نعرف الماضى**». وكلمة تاريخ history مشتقة من الفعل اليونانى الذى يعنى «**المشاهدة**»، أو «**التعلم**». (وثمة قاموس حديث يضيف عبارة «عن طريق الاستفسار» لتكون إضافة

= وتاريخ القوط (الغربيين) historia Gothorum، وتاريخ الوندال historia Vandalarum وعن المشاهير de viris illustrilius، والمترادفات synonyma ودستور الرهبان regula monochorum، ولكن كتاب الأصول او الاشتقاقات origines sive etymologia هو أهم مؤلفاته، وهو عبارة عن موسوعة من عشرين كتابا، ويوضح هذا العنوان الغريب الاعتقاد الغريب الذى سيطر على ايسيدور – والذى يتوافق مع ما ساد العصور الوسطى الباكرة من اهتمام بالرمزية – بأن الطريق الى المعرفة يمر من خلال التعرف على أصول العالم. بيد أن معلومات ايسيدور الفيلولوجية كانت أقل من أن تمكنه للتصدى لمثل هذا العمل، ورغم ما تضمنته هذه الموسوعة من خرافات وخيال، فانها لاقت شعبية هائلة، كما تركت تأثيرا كبيرا على التعليم فى العصور الوسطى، لأن ايسيدور لم يقيد نفسه فى اطار العلوم السبعة الحرة ولكنه حاول القيام بمسح على اتساع مجال المعرفة فى العالم الاغريقى – الرومانى القديم؛ فجمع المعلومات عن الجغرافيا والطب، والأحياء والتاريخ الطبيعى والمعجزات... وغيرها من الأمور التى تتعلق بالحياة اليومية، والدليل على رواج هذا المؤلف الموسوعى فى العصور الوسطى أن هناك حوالى ألف نسخة مخطوطة منه باقية حتى الآن.

انظر الغمراوى: مدخل الى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط، ص ١١١ – ص ١١٢، وكذلك: Cantor, Med. hist., pp 88 f

(المترجم)

هامة إلى الاشتقـاق الذى اورده ايسيـدور)(٧)، ويخلص ايسيدور الى أنـه : بما ان التاريخ يحكى ما شوهد وعرف على إنه الحقيقة، فلابد أن يقوم على رواية شهـود العيان، ويقول فى هذا الصدد :

---

(٧) تشير المؤلفة هنا إلى حقيقة ان الكلمة التى تعنى «تاريخ» فى اللغات الأوربية الحديثة مشتقة اساسا من كلمة إيستوريا - التى تعنى الفحص أو الاستفسار - اليونانية التى اتخذها هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م) عنوانا لكتابه. وقد استخدم الرومان الكلمة اللاتينية historia فى المعنى نفسه. ومنها كانت الاشتقاقات التى عرفتها اللغات الأوربية الحديثة، وتطور مفهوم الكلمة حتى صارت تعنى عدة معان مختلفة، وتم اشتقاق عدة مصطلحات من الكلمة الأصلية، ورغم ذلك بقيت كلمة «تاريخ» غير محدودة المعنى بشكل حاسم. وبالرغم من استحداث كلمة historiography فى محاولة للحد من مشكلة التحديد الدقيق للكلمة الأصلية، فان ما اثارته الكلمة الجديدة من مشكلات جاءت اضافة للمشكلات القائمة بالفعل حول الكلمة الأصلية.

اما فى اللغة العربية فالمشكلة التى تثيرها كلمة «التاريخ» المتعددة المعانى، قائمة منذ أمد بعيد، وقد واجهت المؤرخين القدماء الذين حاولوا تحديد مفهوم الكلمة والبحث عن أصلها. فالكلمة لم ترد فى الشعر الجاهلى أو القرآن الكريم او الأحاديث النبوية الشريفة. وقد اشار السخاوى (الاعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص ٦ - ص ٧) الى هذا الخلاف حول اصل الكلمة بقوله «...التاريخ فى اللغة هو الاعلام بالوقت؛ يقال أرخت الكتاب وورخت الكتاب أى بينت وقت كتابته، قال الجوهـرى التاريـخ تعريف الوقت والتواريخ مثله، ... وقيل اشتقاقه من الأرخ، بفتح الهمزة وكسرها، وهى الأنثى من بقر الوحش لانه شئ حدث كما يحدث الولد. وقد فرق الأصمعى بين اللغتين فقال : بنو تميم يقولون ورخت الكتاب توريخا، وقيس تقول ارخته تأريخا، وهذا يثبت كونه عربيا. وقيل انه ليس بعربى محض، بل هو معرب مأخوذ من «ماه روز» الفارسية (ماه : القمر، وروز : اليوم) قال ابو منصور الجواليقى فى كتابه «المعرب فى الكلام الاعجمى» : يقال إن التاريخ الذى يؤرخه الناس ليس بعربى محض، وانما اخذه المسلمون عن اهل الكتاب...». وقد أشار حاجى خليفة (كشف الظنون، ٣ج ١، ص ٢٧١) الى هذا الخلاف حول اصل الكلمة. على اننا نستبعد أن يكون لفظ «تاريخ» مشتقا من الكلمة الفارسية «ماه روز» بسبب عدم التقارب بين اللفظين، وربما يكون القائلون بهذا الرأى قد خلطوا بين الاشتقاق اللغوى، وبين ما ترويه المصادر التاريخية من أن بداية اتخـاذ المسلمين من سنـة الهجرة بـداية لتقويمهم كان بناء على نصيحة الهرمزان ملك اهواز الذى وقع أسيرا بأيدى المسلمين ثم أسلم على يد عمر بن الخطاب، وربما يكون سبب هذا الخلط ايضا ان كلمة «ماه روز» الفارسية تدفع الى الاعتقاد بأن المراد هو تحديد الشهر. ويرى بعض الباحثين أن كلمة تاريخ عربية، وانها لفظ قديم مشترك فى اللغات السامية تلوح القرابة بينه وبين كلمة «ياريح» العبرية التى تعنى القمر، وكلمة «يرح» التى تعنى الشهر (انظر : حسين نصار، نشأة الكتابة الفنية، ص ١٧٠) ومن ثم فانه يبدو لنا أن الكلمة كانت تدل على الشهر فى بداية الأمر ثم تطورت لتتخذ المعانى المتعددة التى تدل عليها الآن. وهو الأمر الذى يبدو منطقيا لا سيما اذا وضعنا فى اعتبارنا أن العرب، مثل العبرانيين، قد استخدموا التقويم القمرى. بيد أن كلمة تاريخ بمعانيها المتعددة تثير من المشكلات الآن ما يشابه تلك التى أثارتها الكلمة فى اللغات الاوربية الحديثة. (المترجم)

«لم يكن أحد من القدماء يكتب التاريخ ما لم يكن حاضرا بنفسه وشاهداً على ما يرويه، اذ اننا نستوعب ما نراه على نحو أفضل من استيعابنا لما نسمعه، ذلك انه لا يمكن تزييف ما تراه العين».

ويترتب على هذا أن يبدأ التاريخ بتجربة المرء الشخصية، لأن رواية الأحداث السابقة على عصره ليست إلا مجرد تجميع وتكديس للمعلومات : أى أن المرء لا يفعل شيئا فى هذه الحال سوى نسخ مصادره. إلا أن ايسيدور نفسه لم يلتزم برؤيته الضيقة التى حصرت التاريخ الحقيقى فى أطار رواية شهود العيان. ففى قسم آخر من كتابه نجده يقسم أنماط التدوين التاريخى ويصفها حسب فتراتها الزمنية : **فالحوليات** هى التى تسجل الأحداث من سنة لأخرى، بينما يقوم **التاريخ** بتغطية الأحداث التى وقعت على مدى سنوات طوال. كما أنه ناقض نفسه بتزكيته لسالست كمؤرخ لأن سالست لا يعد شاهد عيان، فلم يكن معاصرا بالمعنى الدقيق لكل من كاتيلينا ويوجورتا. ويمكن تفسير هذا التناقض فى ضوء الحقيقة القائلة بأن جامعى الموسوعات، من أمثال ايسيدور لا يراجعون دائما ما كتبوه من مواد لكى يتأكدوا من أنهم لم يناقضوا أنفسهم.

ولا يمكن للتعريف الذى وضعه ايسيدور للتاريخ أن يلقى قبول الباحثين المحدثين لسببين : أولا أنه ليس من الضرورى ان تكون رواية شاهد العيان دقيقة من الناحية التاريخية، فكونه «**رأى ذلك يحدث**» ليس ضمانا للحقيقة، لأن رواية شاهد العيان ليست الا رواية جزئية مشوهة عما حدث بالفعل. ويقوم الاعتراض الثانى على أن المؤرخ الذى يكتب عن العصور الماضية ليس جامعا بمعنى الكلمة، لأن عليه أن يستكشف وأن يختار مصادره ويحللها ويفسرها. واذا ما استبعدنا مثل هذا المؤرخ بحجة انه مجرد ناسخ، فان ذلك سوف يؤدى بالضرورة الى الغاء معظم الدراسات التاريخية التى نعرفها. وهو أمر مردود لأن ايسيدور قد بالغ فى التبسيط اعتمادا على مصطلحاته الخاصة : وذلك لأنه لم يعثر على أى تعريف للبحث التاريخى فيما تيسرت له قراءته من كتب التدوين التاريخى. واذ خذله الثقات الذين اعتمد عليهم كمصادر له، فانه خلف للعصور الوسطى تركة مفعمة بعوامل الارباك والحيرة. ولم يكن هناك عالم فى العصور الوسطى يقبل فكرة أن رواية شاهد العيان صحيحة بالضرورة. اذ كانت الاجراءات القضائية المدنية والكنسية على حد سواء تتطلب مثول عدد من الشهود أمام المحكمة : ذلك انه كان من الممكن رشوة أحد الشهود، كما كان من الممكن أن يتحيز أو يخطئ. وعادة ما كان مؤرخو العصور الوسطى يثقون فيما يرونه بأعينهم من أدلة، ولكنهم وسعوا من نطاق التعريف الذى وضعه ايسيدور بحيث

يشمل المصادر الموثوق بها. ودأب اكثرهم دقة على ان يبينوا ما اذا كانت كتاباتهم شهادة عيان مباشرة للحادثة التاريخية، أم أنها منقولة عن مصدر آخر لا يضمنون التزامه بالحقيقة. ورغم انه قد تم تصحيح الكثير من المفاهيم التى ضمنها ايسيدور فى ثنايا عباراته، فمن المؤكد انه كان من عوامل تثبيط محاولات البحث فى تاريخ الماضى، لأنه حصر المؤرخ «الحقيقى» فى اطار التاريخ المعاصر أو القريب من المعاصر.

وعلى الرغم من ذلك تبرز بعض النقاط الايجابية فى غمار الارتباك الذى سببه ايسيدور. فقد كانت «الاشتقاقات» نعمة بقدر ما كانت مصدرا للتخبط والحيرة التى وقع فيها علماء العصور الوسطى. اذ أن أسقف اشبيلية «ايسيدور» قد أضفى نوعا من الجدية المسيحية على المفهوم الوثنى القائل بأن على المؤرخ أن يروى الحقيقة، ذلك أن الرب يوصى «**بألا تكذب**». كذلك صار باستطاعة مؤرخ العصور الوسطى ان يقتبس من ايسيدور مايبرر تدوينه للتاريخ فى مواجهة اولئك الذين رأوا فيه مضيعة للوقت. كان ايسيدور يرى أن ثمة فائدة عملية فى حفظ الاخبار، وهى أن ذلك كان يؤدى إلى بناء الكتابة التاريخية فى إطار من التسلسل الزمنى (الكرونولوجى) من خلال قوائم الحكام المتعاقبين، كما كان يضفى على التاريخ أهمية غير تلك التى يكتسبها بوصفه فرعا من فروع الأدب. كذلك كان ايسيدور يبرر التاريخ من وجهة نظر أخلاقية، اذ كان للتاريخ عنده هدف أخلاقى : ذلك أنه يعلمنا أن نختار ما هو طيب، وأن نتجنب ما هو سيئ عن طريق الامثلة التى يوردها. كما انه جعل دراسة التاريخ الوثنى امرا ضروريا بجانب دراسة التاريخ المسيحى لسببين : أولهما أن المسيحى يبحث فى طيات التاريخ الوثنى عن التواريخ والامثلة على حد سواء، وثانيا أن القائمة التى وضعها ايسيدور عن مشاهير المؤرخين كانت تبدأ بموسى (عليه السلام) الذى افترض ايسيدور أنه كتب الاسفار الخمسة المعروفة باسم التوراة، وتمضى مع الزمن لتضم المؤرخين الوثنيين ثم الكتاب المقدس حتى تنتهى الى الكتاب المسيحيين.

واذا ما أعدنا النظر فى إنجازات مؤرخى العصور الوسطى، فربما يخطر ببالنا أنهم قد وجهوا طاقاتهم صوب ما نسميه «التاريخ المعاصر». وهى الوجهة التى قادهم اليها ايسيدور الذى حصر طاقاتهم الابداعية فى حدود الاطار المناسب لقدراتهم. إذ أن كتابة تاريخ الماضى كانت تعنى مجرد النسخ والجمع، أى أن ذلك لم يكن عملا ابداعيا. اما الدراسة النقدية للماضى، وهى دراسة متمايزة عن مجرد النقل والتجميع من المصادر السابقة، فكانت تتطلب من أدوات البحث العلمى واستعدادته ما كانت العصور الوسطى تفتقر اليه. وثمة فئة قليلة من المؤرخين وجدوا لديهم من الشجاعة والجرأة ما دفعهم الى اقتحام الاطار الأيسيدورى وكسره فى سبيل دراسة الماضى. إلا أن نتائج أعمالهم لم ترق إلى الدرجة التى تجتذب خلفاءهم من المؤرخين الى اقتفاء خطواتهم فى

هذا السبيل. ذلك ان العصر الذى كان الكاتب يعيش فيه، او الماضى القريب من هذا العصر، كان يتيح له مجالا أرحب بحيث يتمكن من إبراز مواهبه. كما كـانت المادة التاريخية التى يفرزها هـذا العصر تلقى استجابـة أكبر من القـراء. والحقيقة أن ايسيدور قد أسدى نصيحته الحكيمة لمؤرخ العصور الوسطى بألا يقترب من العمل الذى يفوق حدود قدراته.

الفصل الثالث

التراث اليهودى ـ المسيحى

المسيحية «ديانة كتاب». والمؤرخ المسيحى يتخذ من العهد القديم والعهد الجديد نقطة البداية التى ينطلق منها. وفى العصور الوسطى لم يكن بوسع من لم يقرأ الكتاب المقدس أن يفهم الكتابات التاريخية تماما. إذ كان من المعتاد فى تلك العصور أن يقتبس المؤرخ من الكتاب المقدس وأن يشير ويلمح إلى الأحداث التى يعرض لها. وكان لأسلوب الكتاب المقدس والقصص التى يرويها تأثير كبير على الكتابة التاريخية آنذاك. وعلى أية حال، فإن كتاب العصور الوسطى أخذوا المحتوى والأسلوب عن الكتاب المقدس، ولكنهم لم يأخذوا عنه أشكال الكتابة التاريخية وأنماطها وإنما أخذوها عن النماذج الكلاسيكية. فقد كانت الهوة عميقة بين ماهو شرقى وما هو غربى، ورغم أنه كان بمقدور المرء أن يكون مسيحيا مؤمنا؛ فإن ذلك لم يكن يعنى أنه تحول إلى واحد من الساميين[1]. فقد فرضت تقاليد الكتابة الكلاسيكية نفسها. ووجد المؤرخ اللاتينى فى العصور الوسطى نفسه أمام تراثين مختلفين فى مجال التدوين التاريخى، فها هى

---

(١) تشير المؤلفة هنا إلى حقيقة أن المسيحية ديانة شرقية الأصل، ذلك لأن المسيح عليه السلام ولد فى بيت لحم بفلسطين، وأخذ يدعو قومه، اليهود، إلى الدين الجديد، ومن ثم كان المسيحيون الأوائل يهودا متنصرين. كما أن العهد القديم الذى اعترفت به الكنيسة ـ لأنه يتنبأ بالمسيح حسب اعتقادهم ـ هو عهد اليهود وهو يعبر عن العقلية والتفكير السامى أيضا، وعلى هذا فإن المسيحيين فى اعتناقهم للمسيحية يأخذون بما ورثوه عن الساميين فى مجال العقيدة من ناحية، ولكنهم لا يمكن أن ينبذوا تراثهم الثقافى من ناحية أخرى. وفى الغرب الأوروبى لم يكن باستطاعة المسيحيين تجاهل تراثهم الثقافى الكلاسيكى الذى عاشت فى ظلاله أجيال عديدة. ومن هنا اتخذ المؤرخون المحتوى وأسلوب الكتابة التاريخية عن الكتاب المقدس لكونهم مسيحيين، بينما أخذوا أنماط الكتابة التاريخية وقواعد التأليف فيها عن النماذج الكلاسيكية التى وصلتهم عبر الزمان انطلاقا من خلفيتهم الثقافية كورثة للتراث الاغريقى ـ الرومانى القديم. وهو أمر يتفق وطبيعة الأمور لأنه من المستحيل أن يتخلص المرء من تراثه الثقافى الموروث عبر سنوات طوال.

وقد واجهت الكنيسة هذه المشكلة فى أيامها الأولى، لا سيما فى مجال التربية المسيحية، وبدأ منذ القرن الثانى الجدل حول معايير الدين المسيحى ومعايير الثقافة الكلاسيكية التى تناقض العقيدة من جهة، وتعتبر تراثا يتعلق به الوجدان من جهة أخرى.

انظر الدراسة الممتعة التى قام بها الدكتور على الغمراوى (المدخل: ص ٢٥ ـ ص ٧٦). (المترجم)

ذى النماذج وقواعد التأليف الكلاسيكية ماثلة أمامه من ناحية، كما أنه، من ناحية أخرى، قد ورث عن المسيحية نظاما زمنيا جديدا، وإطارا ونظرة جديدة إلى ما وراء الطبيعة. وقد تداخل هذان التراثان فى بعضهما البعض.

ولنبدأ بعنصر الغيبيات أو ما وراء الطبيعة فى الكتاب المقدس. وهذا العنصر موجود ايضا عند المؤرخين الرومان القدامى الذين دونوا فى كتاباتهم أخبار النبوءات والمعجزات باعتبارها تدخلا من الآلهة فى شئون البشر. بل إن بعض العقلانيين أمثال قيصر وسالست ذكروا العقائد والممارسات الوثنية التى كانت جزءا من رواياتهم التاريخية. وقد كشفت الأبحاث الحديثة فى مجال التراث الكلاسيكى عن وجود أساس من الفولكلور والسحر فى ثقافة الطبقة اللاتينية الراقية، وليس ثمة شك فى وجود هذا الأساس لدى عامة الشعب أيضا. وفى التاريخ المسيحى، لم تطغ القوى الغيبية على الرواية فحسب، بل إنها كانت تتحكم فى سياق الرواية ايضا. إذ كانت العناصر الالهية فى الرواية راسخة ومحددة فالرب هو خالق العالم وكاتب تاريخه، كما أنه يتجلى فى الكتاب المقدس.

وكانت شخصيات الكتاب المقدس شخصيات تاريخية، فملوك بنى اسرائيل، والأنبياء والمسيح، وامه، والحواريون جميعا عاشوا على الأرض فى عصور تاريخية وهم ليسوا شخصيات أسطورية مثل الآلهة الوثنية، ومعجزاتهم تدعيم لتعاليمهم. فقد أراد لها الرب أن تتم على هذا النحو. وقد تعاظم دور العنصر الغيبى فى التدوين التاريخى لما بعد الكتاب المقدس، إذ لحقت الملائكة والشياطين بالشخصيات الدرامية dramatis personae ونزل القديسون من السماء لرعاية الناس وهدايتهم وتحدى أخطائهم، واكتسب مضمون التاريخ بعدا جديدا حين امتد ليشمل الجنة والجحيم.

كما أن التقسيم الجديد للزمن قدم اطارا جديدا للكتابة التاريخية. فقد كان للكتاب الكلاسيكيين آراء مختلفة فى الزمن، إذ تخيله البعض دوريا، أى أن صيرورته تمضى فى دورات متعاقبة، وكانت هذه الدورات تحسب بوسائل مختلفة لتحديد «السنة العظيمة». وهو ما يؤدى إلى القول بأن كل ما حدث من قبل لابد وأن يحدث ثانية إذا ما عادت «السنة العظيمة» أما أكثر الآراء شيوعا فى العالم القديم فهو الرأى القائل بأن الزمن يمضى من الماضى الى الحاضر صوب مستقبل بعيد غير محدود بنهاية. واختلف الرأى المسيحى فى الزمن عن الرأيين السابقين، من حيث إنه يجعل للزمن بداية ونهاية. فالزمن يوجد فقط بين يوم الخليقة ويوم الحساب. فقد بدأ الزمن بالخلق على نحو ما سجل موسى فى النصوص الأولى من سفر التكوين(٢). ثم مضى الزمن من

---

(٢) جاء فى سفر التكوين ١ : ١٤ «وقال الله لتكن انوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار –

العهد القديم إلى العهد الجديد حتى الحاضر. وسوف ينتهى الزمن بعودة المسيح ويوم القيامة. وسيحل الخلود محل الزمن والتاريخ. إذن، فالتاريخ، كما تراه المسيحية، هو تاريخ خلاص الانسان عبر الزمان.

ويقدم لنا الكتاب المقدس التاريخ ممتدا بين لحظتين محددتين فى أسلوب محكم رائع. مما يجعل القارىء المسيحى الذى يقرأ عن أية فقرة يبدى دهشته الفائقة من خطة الرب المحكمة التى غطت الماضى والحاضر والمستقبل، رغم أن أية حياة زائلة لاتغطى سوى جزء تافه من التاريخ ككل. وكلمة الله كما جاءت فى الكتاب المقدس تساعد على تجاوز الماضى والحاضر وعلى التنبؤ باكتمالها فى الآخرة. وقد اكتشف أحد الأساتذة الفرنسيسكان فى باريس، وهو «سان بونافنتير St. Bonaventure» تشبيها شعريا لهذه الرؤية المسيحية التقليدية للتاريخ، وضعه فى مقدمة كتابه فى اللاهوت والمسمى "Breviloquim" (١٢٥٧) يقول فيه إن الله قد شاء أن تكون قصصه أشبه بالأغنية الجميلة التى تتبدى فيها كل الأمور النابعة من العناية الالهية، ويقول:

«ليس بمقدور اى قارئ ان يقدر جمال اية اغنية مالم يقرا كل مقاطعها. وبالمثل، لا يستطيع احد ان يقدر جمال النظام والدقة التى تحكم العالم، ما لم يرها ككل. وليس هناك من يعيش عمرا طويلا يمكنه من أن يشهد التاريخ بأسره، كما أن أحدا لايستطيع أن يتكهن لنفسه بالمستقبل. فالروح القدس يمده بالكتاب المقدس الذى يمتد على طول النظام العالمى المحكم. شاملا وكليا».

فالرب يبدأ الكتاب ويختمه، ولكنه «**يتركنا ننظر إلى نهايته**»، لكى نرى ماسوف يحدث فى الصفحة الأخيرة. والتاريخ الالهى ليس منشورا على حلقات «**يمكن متابعتها فى عددنا القادم**»، بل إنه فى متناولنا بين دفتى الكتاب، والمسافة بين حاضرنا والنهاية هى فقط التى ستظل مجهولة بالنسبة لنا ما لم يخبرنا الرب بشىء عنه بوسيلة خاصة. فربما يمكن للنبى أن يرى ما يبدو مظلما أمام ناظرى المؤرخ.

ولكى يمكن قراءة أى كتاب، ينبغى تقسيمه إلى فصول. وقد قام آباء الكنيسة بفحص الكتاب المقدس بدقة للكشف عما قصده الرب من تقسيم تاريخه عن خلاص الانسان إلى فصول، واخترعوا فترات جديدة لتكون بمثابة فصول عدد كل منها مرحلة من مراحل تحقيق الخطة الالهية. وكان لتقسيم التاريخ إلى فترات أن يشمل كلا من التاريخ المقدس والتاريخ الدنيوى، إذ لا يمكن فصلهما عن بعضهما، طالما أن كلا

= والليل. وتكون لآيات وأوقات وسنين»، وتشير المؤلفة إلى الاعتقاد الشائع بأن موسى هو كاتب التوراة، وهو اعتقاد كان مؤرخو العصور الوسطى يأخذون به تماما كما سيتضح فى صفحات الكتاب التالية. (المترجم)

منهما من صنع العناية الالهية. ومن المهم أن نتذكر أننا لانزال نقسم التاريخ إلى فترات، حتى ونحن نتناوله من وجهة نظر علمانية. ولكل هذه التقسيمات عيوبها ونقائصها لأنها تتصف بالاصطناع والتشويه إلى حد ما. بيد أننا نستخدم هذه التقسيمات لسبب بسيط هو أن أحدا حتى الآن لم يكتشف الوسيلة التى نتناول بها التاريخ دراسة وتعليما. ولعل أسوأ ما فى التقسيمات التاريخية هو أنها ترسخ وتتوطد بحيث يصعب التخلص منها. وإذا ما كان هناك تقسيم لعصور التاريخ يعبر عن اهتمامات وأفكار جيل ما، فإن التقسيم يظل يفرض نفسه حتى بعد أن يفقد جدواه وفعاليته بفترة طويلة. وينبغى على كل من يقومون بتدريس التاريخ أن يناضلوا ضد هذا الكابوس حتى يتخلصوا منه، فالعصور الوسطى بالنسبة لبوسورث Bosworth[٣] تنتهى فى سنة ١٤٨٥، كما يبدأ تاريخ انجلترا الحديث بأسرة تيودور. ولا يزال شبح عدم صلاحية هذا التقسيم يطاردنا حتى الآن.

ومن الممكن أن يكون تقسيم التاريخ إلى فترات عاملا منشطا، فالتقسيم الماركسى للتاريخ إلى فترات حسب أنماط الانتاج يقودنا إلى مناقشات وأبحاث مكثفة. إلا أن مثل هذا النقد المثمر كان مكبوتا فى العصور الوسطى بسبب الاحترام الذى كان يتمتع به الكاتب «الحجة». فقد قدم القديسون تقسيماتهم التاريخية لكى يستخدمها قراء الكتاب المقدس الذى يحتوى على التاريخ الالهى. وكان مؤرخ العصور الوسطى يرون أن العبث بالتراث تهور وطيش وتجديف لأن مثل هذا التصرف قد يؤدى إلى كتابة الصفحة المقدسة من جديد. وإذا ما خالف المؤرخ هذا التيار -كما فعل البعض- فلابد أن يخوض فى التفاصيل. كما سيبدو ما كتبه غير حقيقى، وذلك دون أن يطرح البديل. وهكذا فإن التقسيم الذى ورثه مؤرخو العصور الوسطى للفترات التاريخية كان قد تم ابتكاره فى أواخر العصر القديم كما كان منتميا إلى الرؤية المسيحية الباكرة للتاريخ.

وثمة نمط من التقسيم التاريخى كان دينى الطابع. وقد تكفل القديس أوغسطين، المعلم الأساسى للكنيسة المسيحية، بالترويج له بكل ما أوتى من سلطان ونفوذ[٤].

---

(٣) باحث إنجليزى معاصر.

(٤) هو Aurlius Augustius (٣٥٤-٤٣٠) من ابناء شمال افريقية من اب وثنى وام مسيحية، كان لآرائه أكبر الأثر فى الكنيسة الغربية لدرجة جعلت البعض يقول «إنك لن تجد مؤلفا دينيا جيدا إلا وفيه اقتباس من القديس أوغسطين». أهم مؤلفاته التى تحمل آراءه فى الدين والفلسفة والتاريخ: «الاعترافات Confessiones»، «والعقيدة المسيحية de doctrina christiana» «والثالوث de trinitate»، «ومدينة الله civtate dei» الذى ضمنه آراء فى فلسفة التاريخ. عن القديس اوغسطين انظر:

Cantor, Med hist., pp. 69-76; The Med. World, pp. 37-45

وقسم أوغسطين تاريخ العالم إلى عصور ستة تماثل المراحل الست فى عمر الانسان من طفولته إلى شيخوخته، وهذه العصور الستة كتبها الرب فى التاريخ منذ الأزل : أى أنها الأيام الستة التى خلق فيها العالم، على نحو ما جاء فى الأصحاح الأول من سفر التكوين. وهذه الأيام الستة تدل على المراحل الست التى يمر بها الانسان، والعصور التى يمر بها العالم. وراحة الرب فى اليوم السابع تعنى أن العالم سوف ينتهى فى العصر السابع الذى سيكون علامة الانتقال من الزمن إلى الخلود.

وقد حدد أوغسطين مجرى العصور الستة على النحو التالى : المرحلة من آدم إلى نوح تمثل مرحلة **الطفولة** فى مهدها الأول، ومن نوح إلى ابراهيم مرحلة **الصبا**، ثم مرحلة **الشباب** التى تمتد من ابراهيم إلى داود، ومن داود إلى الأسر البابلى لليهود مرحلة **الرجولة**، ومن الأسر البابلى حتى يوحنا المعمدان **العصر الوسيط**، أى العصر الذى يقع ما بين المجىء الأول للمسيح، والمجى الثانى الذى يمثل مرحلة **الشيخوخة**، أى العصر الذى يشيخ فيه العالم. وبالاضافة إلى ذلك قسم أوغسطين هذه العصور إلى تقسيمات فرعية لكى يربط كل عصر بالعصر الذى يليه. وفى هذه التقسيمات الفرعية غير اوغسطين تعبيراته المجازية، فاستخدم القياس التمثيلى على الليل والنهار، وصار لكل عصر صباحه، وظهره، ومساؤه فى اطار فترته الزمنية، وينقشع ظلام العصر عن صباح العصر الذى يليه.

ويفسر لنا تعاقب الليل والنهار ما قد يبدو محيرا فى تقسيم أوغسطين عند الوهلة الأولى : اذ أنه يقدم لنا العصر المسيحى باعتباره عصر الشيخوخة الذى يحمل كل مظاهر أمراض الشيخوخة وأعراضها. ولكن القياس التمثيلى على الليل والنهار يكشف عن روعة هذا العصر شأن العصور الأخرى جميعا. فقد بزغ فجر العصر السادس بيوحنا المعمدان، وأشرقت شمسه بتجسد المسيح، وتوافق انتشار المسيحية مع انتصاف النهار. وقد افترض أوغسطين ـ الذى عاش عصر الاضطرابات التى شهدها أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ـ أن المساء سيحل فى وقت قريب، وسينقضى العصر السادس لكى يبدأ العصر السابع، حيث ينتهى الزمن. وقد دفع توقع مجىء اليوم الآخر « **فى أية لحظة الآن** » بالمسيحيين إلى البحث عن علامات عودة المسيح فيما يجرى حولهم من أحداث، ولكن أوغسطين منعهم من ذلك بأن أدان التفكير فى تاريخ يوم القيامة : ذلك أنه يجب انتظار الوقت الذى حدده الرب والاستعداد له دون أية تخمينات رعناء.

انظر أيضا :-

E.K Rand, Founders of the middle ages, pp. 241-84

وكذلك على الغمراوى : المدخل، ص ٦٠ـ٦٢.

ونتيجة لسيادة مفهوم العصور الستة كان مؤرخو العصور الوسطى يرزحون تحت وطأة صورة قاتمة للزمن الذى عاشوا فيه. ذلك أن تعاليم أوغسطين كانت تقول إنهم يعيشون عصر شيخوخة العالم، اذ أن وقت الظهيرة قد مضى وأخذ المساء والليل يقتربان بخطى حثيثة، ومع ذلك كان العالم يتباطأ مثل العجوز المريض المقعد، الا أن الشيخوخة مها طال أمدها فلا علاج لها. لم يكن التقسيم الذى وضعه أوغسطين للزمن باعثا على التفاؤل؛ فالتقدم غير مأمول. صحيح أنه كان من الممكن أن يتقدم الفرد المسيحى فى ظلال الفضيلة بفضل رحمة الرب وجدارته بالخلاص. بيد أنه لم يكن هناك أمل فى تقدم الانسانية ككل.

وتبدو مرونة الانسانية فى حقيقة أن مثل هذه الرؤية لحتمية التدهور والذبول ثم الموت لم تثبط عزائم مؤرخى العصور الوسطى بالقدر الذى كان متوقعا. فقد كانت الحياة تبدو حلوة فى نظر البعض. كما أن الأحداث، رغم أنها كانت محزنة ومخيبة للآمال، كانت تثير الاهتمام على نحو جعل مَن يسجلونها قادرين على استيعابها. ولم يكن باستطاعة أحد أن يتخذ موقفا محايدا حيال أحداث الفترة التى تسبق حلول الظلام وقيام القيامة. وكان هناك كتاب عديدون، كما سنرى، نسوا أو تناسوا عن اقتناع مسحة الكآبة التى أسبغها على عصرهم ذلك النظام الزمنى الذى تقبلوه دون مناقشة. إذ أن فكرة العصور الوسطى كانت قد توطدت بحيث أن مؤرخى العصور الوسطى لم يكونوا يشعرون بوطأتها، وذلك لكونها فكرة تستعصى على الاختبار، ولم يكن من الممكن دحضها وتفنيدها. وعادة ما تتحدى النظريات الدينية أى اختيار لكشف حقيقتها. أما الترتيب الزمنى الثانى الذى ورثه مؤخو العصور الوسطى فكان أكثر مدعاة، للنقد، ومن ثم كان أشد أثارة من الأول.

ويسمى هذا الترتيب الزمنى «سياسيا ـ دينيا» «politico - religious» اذ أنه يعود فى أصله إلى «فترة ما بين العهدين»، أى الفترة ما بين آخر كتب العهد القديم وأول كتب العهد الجديد. وقد شهدت هذه الفترة الصراع اليائس الذى خاضه الشعب اليهودى للدفاع عن عقيدته والحفاظ على شخصيته ضد مضطهديه. وحاول الكتاب اليهود أن يبعثوا الطمأنينة فى نفوس شعبهم وأن يلوحوا بالأمل وسط دياجير الظلام واليأس. وكانت الوسيلة الطبيعية لتدعيم المقاومة هى الوعد بالنجاح فى المستقبل: ذلك أنه سوف يتم انقاذ اليهود بفضل التدخل الالهى فى التاريخ. وقد حول الكتاب وعدهم هذا إلى مؤلف هو المعروف باسم «سفر الرؤيا».

وتتخذ الرؤيا شكل الحلم. وهدفها التنبؤ بالنصر النهائى للشعب المضطهد لكى تواسيه فى بؤسه. وكان العراف الذى يكتب الرؤيا ويسجلها يتستر تحت اسم معروف

جيدا، حتى يجعل الأمر جديرا باهتمام الناس؛ ويختفى اسمه الحقيقى فى غياهب السرية. وأشهر رؤيا لدى المسيحيين جاءتهم عن طريق العهد القديم تحمل اسم دانيال، بطل قصة جب الأسود[٥]. وقد جعل كاتب هذه الرؤيا دانيال يعيش فى فترة الأسر البابلى فى عصر الملك «داريوس» ملك ميديا، و «داريوس» هذا شخصية وهمية مختلقة لا وجود لها فى التاريخ. وهو يقوم بدور الحاكم اللطيف الذى يحكم اليهود. وكانت لدانيال رؤيا، فقد رأى وحوشا ثلاثة تبرز من البحر: أسد، ودب، ونمر، بأربعة رؤوس ثم يبرز وحش رابع هو الاقوى والأكثر إثارة للرعب بينهم جميعا، فيمزق الوحوش بأسنانه الحديدية ثم يسحقهم بأرجله. وللوحش الرابع عشرة قرون، ثم نما قرن حادى عشر أصغر من العشرة الباقين وسيطر عليها. وأخيرا رأى دانيال «القديم الأيام» جالسا على عرشه وهو الذى أمر بتدمير الوحش الرابع بالنيران[٦].

والكاتب، أيا كان، ربما كان يقصد بوحوشه الأربعة الممالك الأربع التى كان يعرفها وهى: مملكة بابل، والميديين، والفرس والمقدونيين. وسيدمر الله المملكة الأخيرة وينقذ شعبه المختار. وحين قهر الرومان الاغريق وشادوا صرح مملكة عالمية جديدة كان لابد

---

(٥) جاء فى سفر دانيال (٦: ١٠ - ٢٤) ما مؤداه أن الوشاة سعوا لدى الملك داريوس ضد دانيال لانه لم ينفذ اوامر الملك بالا يطلب احد شيئا من اله او إنسان سواه على مدى ثلاثين يوما، وأمر الملك بطرحه فى جب الأسود ووضع حجرا على فم الجب وختمه بأختامه، وعند فجر اليوم التالى أسرع إلى الجب حيث نادى دانيال الذى رد عليه واخبره أن الله أرسل ملاكه وسد افواه الأسود فلم تضره، ففرح الملك وامر باخراج دانيال من الجب ثم القى بالوشاة فى جب الأسود ومعهم نساؤهم وأولادهم حيث فتكت بهم الأسود.

(٦) يقول نص الرؤيا (دانيال: ٧) «... وصعد من البحر اربعة حيوانات عظيمة هذا مخالف ذاك. الأول كالأسد وله جناحا نسر. وكنت انظر حتى انتتف جناحاه وانتصب عن الأرض وأوقف على رجلين كانسان واعطى قلب إنسان. وإذا بحيوان آخر شبيه بالدب فارتفع على جنب واحد وفى فمه ثلاثة اضلع بين أسنانه فقالوا له هكذا. قم كل لحما كثيرا. وبعد هذا كنت أرى وإذا بآخر مثل النمر وله على ظهره اربعة اجنحة طائر. وكان للحيوان اربعة رؤوس واعطى سلطانا. بعد هذا كنت ارى فى رؤى الليل وإذا بحيوان رابع هائل وقوى وشديد جدا وله أسنان من حديد كبيرة، اكل وسحق وداس الباقى برجليه. وكان مخالفا لكل الحيوانات الذين قبله. وله عشرة قرون. كنت متأملا القرون إذا بقرن آخر صغير طلع بينها وقلعت ثلاثة من القرون الأولى من قدامه وإذا بعيون كعيون الانسان فى هذا القرن وفم متكلم بعظائم كنت ارى انه وضعت عروش وجلس القديم الأيام. لباسه ابيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقى وعرشه لهيب نار وبكراته نار متقدة. نهر نار جرى وخرج من قدامه الوف الوف تخدمه وربوات ربوات وقوف أمامه. فجلس الدين وفتحت الأسفار. كنت أنظر حينئذ من اجل صوت الكلمات العظيمة التى تكلم بها القرن. كنت ارى إلى أن قتل الحيوان وهلك جسمه ودفع لوقيد النار..» والجدير بالذكر ان عبارة «القديم الأيام» يقصد بها الله باعتباره صاحب الوجود الأزلى. (المترجم)

لرؤيا دانيال أن تمتد لتشمل الرومنان، وحينذاك صار الوحش الرابع يعنى الامبراطورية الرومانية. وعمل مفسرو الرؤيا على الحفاظ على رقم أربعة فأدمجوا الميديين والفرس معا فى «مملكة الميديين والفرس». وتم تفسير جزء آخر من سفر دانيال بطريقة مماثلة، إذ حلم الملك نبوخذ نصر انه رأى تمثالا ذهبى الرأس وصدره وذراعاه من الفضة، وبطنه وأفخاذه من النحاس، وساقاه من الحديد، أما قدماه فكانتا من الحديد المخلوط بالصلصال. وقد دمر التمثال وتبعثرت معادنه فى مهب الرياح مثل الهشيم. وكان هذا أيضا يعنى الممالك العالمية الأربع، وتدمير المملكة الأخيرة بمثابة تمهيد ليوم إسرائيل المجيد.

وموضوع الممالك العالمية الأربع، الذى سيتكرر على التوالى، دخل فى مجال التدوين التاريخى المسيحى ولحق بالعصور الستة كتقسيم دورى للتاريخ العالمى. فتدمير التمثال والوحوش الأربعة الذين تحدثت عنهم النبوءة تبشر بقدوم المسيح الدجال الذى يُرمز إليه بالقرن الحادى عشر فى رأس الوحش.

وقد ازدادت شهرة المسيح الدجال ووحش دانيال ذى الرؤوس الأربعة بظهورها فى سفر الرؤيا المسيحى. واعتبر علماء العصور الوسطى اللاتين أن «يوحنا» كاتب سفر الرؤيا فى العهد الجديد هو القديس يوحنا الانجيلى وكاتب رسائل القديس يوحنا الرسول(٧). وقد أبرز أحد مزينى المخطوطات الانجليز فى القرن الثالث عشر هذا

---

(٧) جاءت رسائل «يوحنا الرسول» فى السفر المعروف باسم اعمال الرسل فى العهد الجديد، وهو يتكون من اعمال الرسل التى تحتوى على ثمانية وعشرين إصحاحا، ثم رسائل بولس الرسول، والرسالة إلى العبرانيين، ورسالة يعقوب ورسالتى بطرس الرسول، ثم رسائل يوحنا الرسول الثلاث، واخيرا رسالة يهوذا.

اما رؤيا يوحنا اللاهوتى فهى مادة آخر اسفار العهد الجديد وتتكون من اثنين وعشرين إصحاحا يتحدث فيها عن الرؤيا التى رآها فى جزيرة بطمس حيث كان يدعو إلى المسيحية، وقد أمره «**الألف والياء والأول والآخر**» أن يكتب ما يراه فى رسائل إلى الكنائس السبع التى فى آسيا. ويصف لنا كيف أن الصوت كان اشبه بالبوق وأن صاحبه له «شعر ابيض كالثلج» «... وعينان كلهيب نار ورجلاه شبه النحاس النقى كأنهما محميتان فى أتون وصوته كصوت مياه كثيرة، ومعه فى يده اليمنى سبعة كواكب، وسيف ماض ذو حدين يخرج من فمه ووجهه كالشمس وهى تضيء فى قوتها..» ثم يرى يوحنا بابا مفتوحا إلى السماء حيث يلبى أمراً بالصعود إلى السماء، وهناك يجد عرشا وحوله أربعة وعشرين عرشا آخرين. «... وفى وسط العرش وحول العرش اربعة حيوانات مملوءة عيونا من قدام ومن وراء. والحيوان الأول شبه أسد، والحيوان الثانى شبه عجل، والحيوان الثالث له وجه مثل وجه إنسان، والحيوان الرابع شبه نسر طائر...» ولكل منها ستة اجنحة مملوءة عيونا.

ثم يرى على يمين الجالس سفرا مكتوبا ومختوما بسبعة أختام لم يستطيع احد ان يفتحه أو ينظر اليه، ثم جاء خروف كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبع أعين هى أرواح الله السبعة المرسلة إلى =

التعيين لشخصية يوحنا حين صور هذا السفر الأخير من الكتاب المقدس فى دائرة تصويرية توضح حياة ومعجزات القديس يوحنا. وفى هـذه الصورة نـرى الحوارى (يوحنا الرسول) يعانى التعذيب والنفى على يدى الامبراطور دوميتيان، وهو يكتب هذا السفر فى منفاه بجزيرة بطمس بناء على أمر من أحد الملائكة. ثم يفرد هذا السفر على هيئة صور. وأخيرا وبعد المشهد الأخير فى سفر الرؤيا المسيحى يأتى مقتل دوميتيان ليحرره من منفاه فيعود لمواصلة عمله فى التبشير بالانجيل وتحطيم الأصنام. ويعبر العرض الأسطورى عن الاعتماد السارى بأن سفر الرؤيا المسيحى يقدم رواية يعتد بها لما سوف يحدث فى آخر الزمان. وقد وجدت هذه الرواية الدعم والتأييد فى شخصية الحوارى المحبوب.

ويؤدى بنا موضوع سفر الرؤيا المسيحى إلى موضوع آخر هو الرؤيا اليهودية، التى تبناها المسيحيون. إذ أن يوحنا يتنبأ، فى تصوير شعرى بالمصائب التى سوف ينزلها الرب بشعبه على شكل فيضانات، وزلازل، وطـواعين وحكـام أشرار. وهؤلاء الأخيرون كناية عن الذين اضطهدوا الكنيسة بوجه عام، والأباطرة الرومان بوجـه خاص، وينبغى على المسيحيين أن يتسلحوا بـالشجاعـة، فانتصـار الحق مضمون. والمسيح الدجال تجسيد لقوى الشر فى الصراع الكونى. وتعود فكرة المسيح الدجال فى أصلها إلى بعض نبوءات العهـد القديم وإلى الـرؤى اليهوديـة، على الـرغم من أن المسيحيين الأوائل هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم. وهو يتخذ أحيانا هيئة الحاكم الذى يمارس الاضطهاد، كما يظهر فى أحيان أخرى فى صورة وحش أو تنين مطلق فى الأرض، يحرز الانتصارات، بيد أنه يسقط فى النهاية صريع حراب الملائكة الأبرار.

وأخذ يوحنا الوحش الرابع الذى تحدثت عنه رؤيا دانيال وصوره فى صورة النذير

= الأرض فأخذ السفر وأخذ يفض أختامه؛ فحين فتح الختم الأول خرج فرس أبيض عليه فارس بقوس وإكليل، وعند فتح الثانى خرج فرس أحمر وعليه فارس يحمل سيفا عظيما لكى ينزع السلام من على الأرض، ولما فتح الثالث خرج حصان أسود عليه فارس يحمل ميزانا، وعند فتح الرابع خرج فرس أخضر عليه فارس اسمه الموت الهاوية تتبعه، ولما فتح الختم الخامس رأى تحت المذبح الشهداء الذين قتلوا من أجل كلمة الله، ولما فتح السادس حدثت زلزلة عظيمة، واسودت الشمس، وصار القمر كالدم، وتساقطت النجوم، وتزحزحت الجزر والجبال عن مواضعها واختفى ملوك الأرض والأغنياء والعظماء، والأمراء، والأقوياء، والناس كافة فى المغاور وصخور الجبال «... لأنـه جاء يـوم غضبه العظيم، ومن يستطيع الوقوف؟...».

وتمضى الرؤيا لتتحدث عن مشاهد يوم القيامة حتى تصل إلى نهاية العالم الدنيوى، والدخول فى العالم الآخر حيث يرى يوحنا «... المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها...». (المترجم)

بقدوم المسيح الدجال. وهو مثل دانيال، يرى وحشا يطلع من البحر وله عشرة قرون وفوق القرون عشرة تيجان. والقرون العشرة تدل على عشرة ملوك سوف يحاربون فى سبيل المسيح الدجال ضد انصار الحق حين تدنو نهاية العالم.

والوحش الرابع فى رؤيا دانيال وفى سفر الرؤيا المسيحى يثير عديدا من المشكلات، وذلك لأنه برهن على انه مخلوق صعب المراس طويل العمر. كما أن التمثال الوارد فى الرؤيا ظل قائما رغم أن اقدامه من الصلصال المخلوط. لقد عانى الوحش من نوبات المرض، كما كان التمثال يترنح أحيانا، ولكنهما لم يختفيا. وظل كل منهما حيا على المستوى النظرى والمستوى الفعلى على حد سواء. لقد كان تقسيم تاريخ العالم إلى فترات تتوافق مع انهيار الممالك العالمية الأربع راسخا لدرجة انه كان مازال يؤخذ مأخذ الجد حتى القرن السادس عشر. وحق للعالم الفرنسى «جان بودان Jean Bodin» أن يعتبر نفسه مفكرا أصيلا وجريئا حين فند فكرة تقسيم الزمن إلى فترات على أساس الممالك الأربع فى كتابه «منهج التاريخ» (١٥٦٦).

لقد قدم التراث اليهودى النموذج والتقسيم إلى فترات تاريخية على حد سواء. إذ أن المؤرخ اليهودى يوسيفوس فلافيوس الف كتابيه «تاريخ اليهود القديم»، «والحرب اليهودية» فى أواخر القرن الأول الميلادى. وتمت ترجمة الكتابين من اليونانية إلى اللاتينية، وامست الترجمة اللاتينية لمؤلفات يوسيفوس من لوازم مكتبات العصور الوسطى. إذ أن علماء تلك العصور اعتبروا «تاريخ اليهود القديم» بمثابة ملحق للعهد القديم. اما «الحرب اليهودية» فكان عبارة عن رسالة تاريخية تتناول موضوعا معينا وهى مكتوبة وفقا للأسلوب الكلاسيكى المألوف. ولم يكن يوسيفوس تنبؤيا فى نظرته ـ فقد رضخ للحكم الرومانى حين لم يجد عنه بديلا ـ الا أن كتابه تضمن فى ثناياه وصف المشاهد الحية للمعارك ووصفا مرعبا لأحداث حصار بيت المقدس، مما فتح المجال أمام مؤرخى العصور الوسطى لكى يقتبسوا منه عند وصفهم للمعارك ومشاهد الحصار.

أما أول طراز مسيحى واسع النطاق فى التدوين التاريخى، فهو ذلك الذى كتبه أيوسيبيوس أسقف قيسارية[٨]. وقد فرغ من تأليف كتابه «التاريخ الكنسى» سنة

---

(٨) Euschius (حوالى ٢٦٠ـ٣٤٠) اول مؤرخ عظيم للكنيسة المسيحية وصديق الامبراطور قسطنطين العظيم ومحل ثقته، ولد بفلسطين وتنقلت به الاحوال حتى صار اسقفا لمدينة قيسارية سنة ٣١٤. له عدة مؤلفات فى التاريخ واللاهوت والعقيدة اهمها كتاب «التاريخ الكنسى» historia ecclesiastica وكتاب «حياة قسطنطين» Vita Constantini الذى كتبه ليمتدح الامبراطور بعد موته سنة ٣٣٧. وكتاب «تاريخ الكنيسة» يعرض لنشأة الكنيسة وتاريخها الباكر ويتحدث عن اباء الكنيسة فى القرون الثلاثة الاولى. كما انه كتب مدونة تاريخية تبدأ بالخليقة مصحوبة بقوائم زمنية منذ =

٣٢٥، ولم يلبث أن ترجم إلى اللاتينية. وليس هناك مسيحى قبله كتب تاريخ الكنيسة فى الفترة التالية للعهد الجديد. كما أنه لم يوجد مسيحى قبله تمكن من تطويع التاريخ العالمى واستغلاله فى الجدل مع الوثنيين. إذ كان «التاريخ الكنسى» كونيا فى مجاله. كما أن أيوسيبيوس أطلق لنفسه العنان لكى يحكى قصة العناية الالهية. ففى رأيه أن الرب استخدم اليهود بطريقة مباشرة، كما استخدم الأمميين (من غير اليهود) بطريقة غير مباشرة، من أجل تحقيق خلاص الانسان. فقد حقق أوغسطس قيصر السلام لرعيته، مما هيأهم لتقبل تعاليم الانجيل التى انتشرت بينهم، كما أدى إلى الاعتراف بها كديانة للدولة.

وأكد «أيوسيبيوس» على شمولية مجال التاريخ الذى تناوله «التاريخ الكنسى»، بأن كتب لوحات زمنية (كرونولوجية) لكى يربط التاريخ الذى عالجه الكتاب المقدس بالتاريخ الوثنى. وتعلم قراؤه المسيحيون أن التاريخ الحقيقى ينبغى أن يكون عالميا. فمن الممكن الكتابة فى موضوع تاريخى واحد، ولكن المؤرخ الذى يهدف إلى ما هو أوسع من ذلك يجب أن يكتب تاريخ العالم بأسره. ويجب أن يتناول تاريخ اليهود، والأمميين، والمسيحيين، طالما أن الرب قد جعل الثلاثة جميعا داخل إطار خطته. وصارت العالمية مثلا أعلى يسعى المؤرخون ا٣ل١لاتين إلى تحقيقه. كما أن بؤرة التاريخ تحولت بسقوط شمال أفريقيا وأسبانيا فى أيدى المسلمين، ولم يعد البحر المتوسط بحرنا الرومانى mare nostrum، كما كان بالنسبة لأيوسيبيوس. ورغم ذلك؛ فإن مفهومه المحدود للعالمية كان له تأثيره السلبى المعوق على مؤرخى العصور الوسطى.

إلا أن المحاولة الأولى للتغطية الكاملة لتاريخ العالم لم تأت من أحد المسيحيين، إذ أن العالم الفارسى رشيد الدين (ت: ١٣١٨)[٩] جمع تاريخا للعالم بأسره فى حدود

= زمن إبراهيم عليه السلام. ولكن النص اليونانى للمدونة مفقود، وبقيت لها ترجمة أرمينية، ونسخة لاتينية معدلة كتبها جيروم. وكان ليوسيبيوس تأثير كبير فى مجال التراجم الملكية؛ إذ أن كتابه عن حياة قنسطنطين يعتبر واحداً من أهم الأعمال فى الأدب الوسيط، لأنه وضع المثال لكتابة سيرة نموذجية عن ملوك العصور الوسطى وقد سار كاتبو التراجم الملكية على نهجه.

انظر: Cantor, Med, hist, pp. 37–8, 42–6, 80–7, 90–105.

وكذلك الغمراوى: المدخل ص٦٧ ـ ص٦٨؛ واسحق عبيد: من الارك إلى جستنيان: ص١٥٧ ـص١٥٨. (المترجم)

(٩) تقصد المؤلفة المؤرخ الفارسى المسلم رشيد الدين بن عماد الدولة ابى الخير الهمذانى صاحب كتاب «جامع التواريخ». وكان رشيد الدين من علماء أواخر القرن السادس الهجرى وأوائل السابع الهجرى (١٣، ١٤م)، كما كان من الم أطباء زمانه. اتاح له علمه ان يحتل مكانة طيبة =

معرفته بهذا العالم. فقد كان يتمتع بحماية إمبراطور مغولى منحه التيسيرات التى سهلت له سبيل جمع المعلومات. ويتضمن تاريخ الرشيد معلومات عن أماكن نائية مثل إيرلندا والصين. وتبدو المحاولات اللاتينية لكتابة تاريخ عالمى تافهة بالنسبة له. ومع ذلك فقد ظل كتاب «التاريخ الكنسى» يصحح أية اتجاهات صوب المحلية المجردة.

لقد كان تاريخ أيوسيبيوس أكثر جمودا ورتابة من النمط الكلاسيكى الوثنى: ذلك أن المناقشات البلاغية والأساليب الفنية التى استخدمها المؤرخون القدامى -وهى الأساليب التى كانت تقنع قراءهم بالموافقة على آرائهم- لم تكن لتناسب أسقف قيسارية الذى كان يريد إقناع الوثنيين والمسيحيين على حد سواء بصدق روايته. وكان ذلك عملا شاقا ومجهدا كصعود التل. ذلك أن انتصار المسيحية على العبادات الوثنية استنفر طاقات المثقفين من غير المسيحيين، فدخلوا مع المسيحيين فى حوار يتسم بالحيوية الدافقة. وراح أيوسيبيوس يبحث عن البرهان القوى الذى يدحض به آراء الوثنيين، ومن ثم امتلأت صفحاته بالأدلة، كما نسخ الوثائق التى أصدرتها الحكومة الامبراطورية لتدعيم روايته عن الاضطهاد الذى جاء التسامح فى أعقابه. كذلك كانت نسخ المراسيم الصادرة عن المجامع الكنسية وقوائم الأساقفة تقدم له ما يؤكد كلامه عن التاريخ الكنسى. وظل هذا رأيه حتى وصل إلى الفترة التى كان باستطاعته أن يكتب عن حوادثها كشاهد عيان. وهنا نجده يحيلنا إلى تجربته الشخصية كما يحيلنا إلى الوثائق. إذ أن أيوسيبيوس يصف الأشخاص الذين قابلهم، والأماكن التى زارها، والمبانى التى رآها.

كان إثبات الوثائق فى المؤلف التاريخى يعنى كسر قواعد التأليف البلاغى. حقيقة أن سويتونيوس كان أسبق فى هذا؛ بيد أنه كان يكتب فى موضوع أقل بلاغية من الموضوعات التى اختارها سالست أو ليفى. ويبدو تحرر أيوسيبيوس من التراث الكلاسيكى واضحا فى إحدى الخطب التى تضمنها تاريخه. وهى ليست خطبة زائفة

= فى بلاطات سلاطين فارس المغوليين حيث قضى فى خدمتهم خمسين عاما كان أثناءها محل رضاهم وتقديرهم بحيث أغدقوا عليه أموالا كثيرة أنفقها على مشروعات عامة نافعة. وقد مات مقتولا فى السادس عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٧١٨هـ/١٣١٩م بقرية جسقدر قرب تبريز بفارس، وقد ترجم كتابه إلى اللغة العربية تحت إشراف الدكتور يحيى الخشاب، ونشر تحت رعاية وزارة الثقافة والارشاد القومى ابتداء من سنة ١٩٦٠م.

وكان رشيد الدين الهمذانى يجيد عدة لغات هى الفارسية والعربية والمغولية والتركية والعبرية وربما كان يجيد اللغة الصينية أيضا. وقد ألف عددا كبيرا من الكتب والرسائل فى موضوعات شتى. انظر الترجمة العربية للمقدمة التى كتبها المستشرق كاترمير فى الجزء الأول من المجلد الثانى من جامع التواريخ، ص ١ - ص ١٧٩. (المترجم)

ابتكرت على سبيل التألق البلاغى، بل إن أيوسيبيوس يعرض لنا موعظة حقيقيـة، ألقاها هو نفسه فى إحدى المناسبات الدينية، احتفالا بإعادة بناء كنيسة صور بعد أن أبيحت الممارسة العلنية لشعائر الديانة المسيحية. وتدخل خطبته الوعظية فى نطاق التسجيل التاريخى. وقد صار تضمين الدليل الوثائقى على نحو ما جاء فى « التاريخ الكنسى » تقليدا يحتذيه مؤرخو العصور الوسطى الذين ساروا على نهج أيوسيبيوس وأخذوا يسجلون المواثيق، والامتيازات، والمراسيم البابوية، والخطابات، والقرارات، والخطب فى تواريخهم وحولياتهم. وينبغى على المؤرخين المحدثين أن يعبروا عن شكرهم وامتنانهم لأسقف القرن الرابع الذى أرسى هذا التقليد، فقد فقدت وثائق أصلية كثيرة، ولكننا نعتمد على النسخ التى حفظها لنا مؤرخو العصور الوسطى.

ويظهر مدى محدودية تاريخ أيوسيبيوس من عنوانه، فهو تاريخ للكنيسة. وللتاريخ العلمانى مكانه باعتباره إطارا، فقط، للتاريخ الكنسى. ولم يكن المؤرخ الذى يريد أن يكتب عن السياسة أو المعارك ليجد لدى أيوسيبيوس ما يعينه على ذلك. وظلت النماذج الكلاسيكية تلعب دور المرشد الوحيد فى مجال كتابة التاريخ العلمانى. وكانت هناك إجابتان متاحتان للمشكلة. **فهل كان من الممكن محاولة الحفاظ على التمايز بين التاريخ العلمانى والتاريخ الكنسى واختيار واحد منهما موضوعا للكتابة؟ أم كان ممكنا الخلط بين النوعين؟** كان الحل الأول أصعب من أن يحاول أحد القيام به، لا سيما وأن أهمية الكنيسة كانت تتعاظم يوما بعد يوم. ولم يكن أمام مؤرخى العصور الوسطى أى بديل عن كتابة التاريخ العلمانى والتاريخ الكنسى سويا، على الرغم من أن الموضوعين لا يتفقان.

قدم أوغسطين النموذج ونظام تقسيم الزمن لمن خلفه من المؤرخين. وكان هذا أيضا موضوعا دينيا. الا أن هناك موضوعين تاريخيين يسريان فى كتابه عن «مدينة الله». وقد جعل أوغسطين من أحدهما مادة لمجادلة الوثنيين فى اعتراضهم على المسيحية بقولهم إن الاله المسيحى فشل فى حماية مواطنى الامبراطورية الرومانية من الغزوات الجرمانية. ورد أوغسطين بأنه لا يجب لوم المسيحية على سقوط روما، وأشار إلى أن التاريخ الوثنى قد سجل أخبار الحروب الأهلية والخارجية، والمجاعات والمصائب من كل نوع. وعلى أية حال، كان البؤس المحدق بالحياة فى عصر الوثنية أشد وطأة منه فى العصر المسيحى. أما موضوعه الثانى، فمؤداه أن البشر قد شادوا مدينتين عبر عصور العالم الستة؛ وهما مدينة الله التى تواجه مدينة الشيطان. لقد كان هابيل الرجل العادل، وقابيل الذى قتله بمثابة النموذج الأصلى الذى أخذت عنه هذه الفكرة. فالأخوان هما سكان المدينتين فى كل العصور. وعلى الأرض تداخلت المدينتان، ولكنهما ستنفصلان يوم القيامة. وحينئذ ستكون هناك مدينة الله التى تضم فى رحابها الناجين

من الموتى، على حين تضم مدينة الظلام من حلت بهم اللعنة.

وما يعرضه كتاب أوغسطين هو رؤية للتاريخ، وليس مخططا تفصيليا للتدوين التاريخي. ومفهومه عن المدينتين مربك ومحير لأنه لا يجعل الكنيسة المرئية قرينا لمدينة الله : وذلك لأن كثيرين من المسيحيين منتمون إلى مدينة الظلام. فضلا عن أن كتابه «مدينة الله»، كان طويلا جدا وكثير الاستطراد بحيث لم يلق من الشعبية والرواج مثلما أحرزته كتبه الأخرى فى العصور الوسطى. وقد أثر هذا الكتاب، الذى نقله أوروسيوس Orosius تلميذ أوغسطين فى صورة مشوهة، على مؤرخى العصور الوسطى.

أما كتاب «التاريخ ضد الوثنيين»، الذى كتبه أوروسيوس، فقد قدم لنا المخطط التفصيلى لتدوين التاريخ، وهو المخطط الذى افتقدناه فى «مدينة الله». ذلك لأن أوروسيوس ـ الذى كان كاهنا اسبانيا من مريدى أوغسطين ـ أخذ على عاتقه مهمة تجسيد أفكار أستاذه عن التاريخ العالمى. ويقدم كتابه الذى قدمه إلى أوغسطين سنة ٤١٧ تفسيرا فجا لفكر أوغسطين، وهذا هو السبب فى أن الكتاب حظى بشعبية واسعة. وقد رسم أوروسيوس صورة فظيعة للتاريخ كسجل لجرائم البشر وحماقاتهم، وذلك فى إطاول التناول التصويرى الذى عالج به الموضوع الأول فى كتاب «مدينة الله» [الذى يرد على الوثنيين القائلين بأن الاله المسيحى فشل فى حماية روما ومواطنيها من غزوات الجرمان]. وهذه الحماقات والجرائم، التى يرتكبها الحكام أساسا، تقود إلى الحروب الدامية. وينظر المؤرخ من برجه العالى إلى ما يتخلف عنها من أشلاء متناثرة هنا وهناك. ولكى ننصف أوروسيوس، نقول إن التواريخ القديمة التى قرأها كانت كلها تقريبا تحمل كلمة «الحرب» فى عناوينها.

وكان تقسيم أوروسيوس للزمن على أساس الممالك الأربع هو أكثر أجزاء كتابه أصالة. فقد جعل الوحش الرابع فى رؤيا دانيال كناية عن الامبراطورية الرومانية، ولكنه استأنسه؛ وذلك لأنه كان يعتقد أن الامبراطورية هى فقط التى تستطيع حماية الناس ضد البرابرة، كما كان يأمل فى أن تظل هذه الامبراطورية قائمة حتى تمتص غزواتهم. وكان أستاذه موقنا من ان اختفاء روما كقوة عالمية لا يعنى بالضرورة نهاية العالم؛ فثمة دول أخرى يمكن أن تحل محل الامبراطورية، كما يمكن أن تكون الدول الأصغر حجما من الامبراطورية أقل منها جشعا، لأنها أقل قوة. ومن المحتمل أنه لو كان علماء العصور الوسطى قد قرأوا «مدينة الله» قراءة متأنية، لما أخذوا بآراء أوروسيوس دون مناقشة. وذلك لأن ما حدث بالفعل هو أن كتابه «التاريخ ضد الوثنيين» قد أذاع فكرة أن سقوط روما سيكون نذيرا بقدوم المسيح الدجال. فالقرون

العشرة التى فى رأس الوحش الرابع فى رؤيا دانيال تعنى أن عشرة ملوك سوف يقتسمون الامبراطورية فيما بينهم، ثم يأتى المسيح الدجال ليصير سيدا عليهم، كما تسيد القرن الحادى عشر القرون العشرة الأخرى. وسوف يقترن قدومه بالمتاعب التى تنبأ بها القديس يوحنا اللاهوتى فى سفر الرؤيا فى العهد الجديد دلالة على ما سيبتلى به العالم قبيل البعث الثانى للمسيح.

ووفقا لفكرة أوروسيوس، كان عصره جزءا من فترة المملكة الرابعة. إذ كانت الامبراطورية الرومانية مازالت تحتفظ بوحدتها، وسوف يكون تقسيمها نذيرا بيوم القيامة. وكان أوروسيوس مفرطا فى ثقته بمغزى التاريخ بدرجة جعلته «**يلعب دور الرب مع شخصياته**». وهو الأمر الذى جعله ينال حظوة أكبر لدى القراء الذين يبحثون عمن يحدد لهم ما يفكرون فيه. ويتميز «التاريخ ضد الوثنيين» بكونه كتابا شاملا سهل الفهم، مما جعله أوسع الكتب انتشارا فى العصور الوسطى.

لقد كتب أوروسيوس التاريخ كما لو كان قصة مفعمة بالمصائب والرزايا. وتبعه فى ذلك كل من قلدوه. وثمة أسقف عاش فى القرن الرابع هو فريكولف الليزى Frecculph of Lisieux كتب محذرا قراء مدونته بقوله :

«إن معظم كتاب التاريخ، لاسيما الاغريق والرومان، يبدأون روايتهم بنمرود بن بعل الذى حكم شعوبا كثيرة، وهدفهم أن يصفوا ما تصير إليه الحروب، وتحطيم الملوك، والبؤس الذى حاق برعاياهم، لكى يعلمونا أن الحروب التى يشنها الملوك لا تؤدى إلا إلى إلحاق الضرر بهم».

فالحروب قاسية عابثة، لكن الحكام، بوصفهم حمقى أو مجرمين، لا يكفون عن التجارب. هذه هى وجهة نظر أوروسيوس. وعلى أية حال، فإنه على الأقل جعل التاريخ جديرا بالتسجيل. وكان لكتابه «التاريخ ضد الوثنيين» تأثيره من حيث تدعيم رؤية أيوسيبيوس لعالمية التاريخ. كذلك علم أوروسيوس قراءه أن الجغرافيا تنتمى إلى التاريخ. وقد أوضح كل من قيصر وسالست أهمية الجغرافيا فى رسائلهم التاريخية المحدودة؛ ولكن أوروسيوس عرض لها على نطاق عالمى الاتساع (بقدر ما كان «**العالم**» يعنى بالنسبة له). إذ أنه بدأ كتابه بمسح جغرافى للقارات الثلاث التى يعرفها : أوربا وآسيا وأفريقيا.

وقد ترجم الملك الفرد ملك وسكس King Alfred of Wessex تاريخ أوروسيوس إلى الانجليزية كجزء من برنامجه لتعليم شعبه، باعتباره واحدا من النصوص التى اعتقد أنها ضرورية لتعليم الشعب. ولأن جغرافية أوروسيوس كانت ترتكز على البحر المتوسط، فقد ألحق بها الفرد معلومات شيقة عن بحر الشمال ومناطق البلطيق، قدمها

له أحد رؤساء البحارة. وقد تبنى الملك قول أوروسيوس بأن الجغرافيا هى الخلفية التى يقوم عليها التاريخ.

كذلك ترجم الفرد كتاب بوئيثيوس[١٠] «سلوى الفلسفة»، وهو الآخر كتاب لا غنى عنه. إذ يمضى بوئثيوس بنا إلى آخر تلك المفاهيم الكبرى التى ورثها مؤرخو العصور الوسطى عن أواخر العصر القديم. و«سلوى الفلسفة» ليس كتابا فى التاريخ، ولكن المؤرخين أخذوا عنه موضوع عجلة الحظ. وقد كتب بوئثيوس هذا الكتاب باعتباره ضحية لتقلب الحظ. فقد عمل فى خدمة ثيودوريك ملك إيطاليا الآريوسى المذهب، وكانت له مكانته الباهرة كموظف مدنى ثم ألقى به ثيودوريك فى غياهب السجن، متهما إياه بالمشاركة فى المؤامرة التى حيكت ضد الآريوسية، لأن بوئثيوس كان كاثوليكيا ورومانيا رغم أنه عمل فى خدمة حاكم من القوط الشرقيين. ومات فى سجنه سنة ٥٢٤. وقد وضع كتاب «السلوى» فى شكل حوار بينه وبين الفلسفة التى جسدها فى صورة سيدة

---

(١٠) Anicius Manlius Severinus Boethius (٤٨٠ – ٥٢٤) يعتبره البعض آخر الآباء وأول المدرسيين Scholastics. وهو سليل عائلة رومانية أرستقراطية نشأ يتيما ولكنه نبغ منذ وقت مبكر فى مجال العلم والسياسة، كان فيلسوفا ورجل دولة. وبدأت علاقته السياسية بثيودوريك الأول Theodoric I ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا منذ وقت مبكر، ربما سنة ٤٠٦ أو سنة ٤٠٤ حين دخل ثيودوريك إلى روما. كان خبيرا فى الميكانيكا، والموسيقى والرياضة، والمالية. بيد اننا لا يجب أن ننظر إليه باعتباره ظاهرة منعزلة عن عصرها، لأنه كان متماشيا بآرائه الفلسفية مع روح العصر الذى عاش فيه؛ فقد عاش تحت حكم ملك قوطى شرقى كان يؤمن بالمثال الرومانى على نحو يفوق ايمان أسلافه الرومان انفسهم، ولذا عمل على إرساء دعائم القانون والنظام فى ربوع إيطاليا، كما كان ميالا إلى نشر السلام رغم الاضطرابات العاصفة التى عرفتها أوربا فى ذلك الحين بسبب الغزوات الجرمانية، وقد استعان ثيودوريك فى سبيل ذلك بمجموعة من المفكرين ذوى الأصول الأرستقراطية الرومانية مثل كاسيودوروس Cassiodorus وبؤيثيوس (انظر: Cantor, Med. hist. pp. 123–28) ولكن معارضة بؤيثيوس لبعض تصرفات واجراءات ثيودوريك، ثم اشتراكه فى المؤامرة التى حيكت للاطاحة بحكم القوط الشرقيين فى إيطاليا أودت به إلى السجن فى بافيا حيث نفذ فيه حكم الاعدام سنة ٥٢٤. وأثناء السجن ألف كتابه الأشهر «سلوى الفلسفة De Consolatione Philosophiae وأسلوب الكتاب مزيج من الشعر والنثر، أما مضمونه فيوضح افكار صاحبه الفلسفية التى يبدو فيها تأثره بالرواقية والافلاطونية الجديدة. وقد اثار هذا الكتاب الذى لم ترد فيه اية اشارة للمسيح او الكتاب المقدس عدة تساؤلات حول عقلية بوئثيوس اكانت عقلية مسيحية ام وثنية (انظر: Rand, Founders of the Middle age, pp. 135–80)، وقد ألف بوئيثيوس عددا من الكتب فى اللاهوت والعقيدة. كما ألف فى الرياضة والموسيقى وكتب شروحا وتعليقات على شيشرون وبوفيرى فضلا عن ترجمته لكثير من أعمال ارسطو إلى اللاتينية (انظر: اسحق عبيد، من آرلاك إلى جستنيان، ص ١٦٢ ـ ص ١٦٤، وانظر نص الترجمة الممتعة للكتاب الاول من سلوى الفلسفة فى نفس الكتاب، ص ٢١٧ ـ ص ٢٢٨، والنص اللاتينى ص ٢٥٧ ـ ص ٢٥٨).

(المترجم)

تواسيه وتفرج من كربته. فهى تشرح له أن الحظ قد أوفع به، ثم تستطرد لتصف ربة الحظ التى تتجسد هى الأخرى فى صورة سيدة. وهذه الربة المتقلبة تدير عجلتها، فهى تفسد أحباءها وتبالغ فى تدليلهم آنا، ثم توقع بهم إذا ما عن لها ذلك آنا آخر. ومن العسر إلى اليسر يتقلب أحباؤها والعكس. فالحظ كالمرأة «**متقلب دائما**». وتتساءل الفلسفة لماذا يتبرم بوئثيوس من سلوك ربة الحظ العادى؟ أن الرجل العاقل يرى فى النجاح أمرا عابرا.

وصارت عجلة الحظ «أكليشيه» دون أن تفقد ما فيها من عوامل الاثارة إذ أن بوئثيوس كان حريصا على أن يقدم ربة الحظ بوصفها أداة فى أيدى العناية الالهية، فالكبرياء الضائعة والسقوط الذى يعقبها أمر قدره الله. إلا أن عجلة الحظ اقترحت نظرية للسببية داخل الاطار المسيحى. فإذا كان أوروسيوس قد أرسى سيادة التاريخ العالمى فى مجال التدوين التاريخى، فإن بوئثيوس قدم السبب التقريبى لظهور الأسرات الحاكمة، والعائلات والأفراد، وسقوطهم. وكان الحظ الذى قدمه فى هذا المجال جديرا بما ناله من شعبية. وإذا كان المؤرخ المحدث لا يستنجد بربة الحظ التى تدحرج عجلتها (لتفسير العلاقة السببية بين الظواهر والأحداث التاريخية)، فإنه لايزال يلجأ إلى الصدفة فى بعض الحالات، حين لا يجد تفسيرا آخر فى متناوله. لقد كان هناك عنصر لا يمكن حسابه فى الصراع الدائر فى البلاط هو الذى دمر بوئثيوس. وهذا العنصر موجود أيضا فى الخصومات والقضايا الناشبة بين العائلات المتنافرة. وتعتبر عجلة الحظ تدعيما لذلك العامل المحير الذى لا يمكن رصده فى شئون البشر.

كانت سير القديسين hagiography، أى كتابة قصص حياة القديسين ومعاناتهم (استشهادهم) حرفة مزدهرة طوال العصور الوسطى. وهى ليست داخلة فى نطاق هذا الكتاب، بيد أن الدارس فى حاجة لمعرفة قواعدها وتقاليدها. إذ كان لابد للمؤرخ فى العصور الوسطى أن يقرأ أو أن يستمع إلى سير القديسين، وغالبا ما كان المؤرخون يكتبون فى هذا الموضوع. وبالتالى كان لابد لسير القديسين أن تترك بصماتها على المؤرخ وهو يدون تاريخه أو مدونته.

وقد اتخذت تقاليد كتابة سير القديسين شكلها منذ أوائل القرن الرابع. فثمة سيرة يونانية للناسك القديس أنطونيوس (ت. ٣٥٦) كان الغربيون يقرأونها فى ترجمة لاتينية. كما كتب سولبيكيوس سفيروس Sulpieius Severus سيرة القديس مارتان التورى، الذى كان أسقفا وناسكا، باللغة اللاتينية حوالى سنة ٣٩٧. وهنا نجد سيرتين نموذجيتين، احداهما لناسك، والأخرى لاسقف. كان العرف يحتم أن يكرس المؤلف السيرة لصديق له، وربما يكون قد كتبها بناء على طلبه. وحينئذ يعتذر فى لباقة لكونه لا يكتب بأسلوب رشيق. وبقدر ما ناله من تعليم كانت تتجلى لباقته. وكان سولبيكيوس

ينتمى إلى الصفوة المتعلمة، فدقق فى أسلوبه، ولذا جاء مستواه عاليا.

وكان عرض حياة القديس عادة ما يسير على نهج القواعد القديمة المتبعة فى كتابة التراجم أو المراثى البلاغية. إذ كان بطل السيرة يوضع داخل إطار نموذج مقرر سلفا : فهو إما قديس منذ نعومة أظفاره، وإما خاطئ اهتدى إلى طريق التوبة. وكان لدى المؤلف مجموعة قياسية من المعجزات ينبغى عليه أن ينسج على منوالها مثل «حلم الأم الحامل» الذى يتنبأ بمستقبل الجنين الذى لم يولد بعد، وهو موضوع يعود فى أصله إلى العصر الوثنى القديم. كذلك كانت للشياطين أدوارهم المعهودة فى غواية البشر. وكان كاتب سير القديسين فى العصور الوسطى يحذف التفاصيل التافهة مثل التواريخ ولا يهتم بالتسلسل الزمنى، مثلما كان يفعله سلفه كاتب المراثى فى العصر القديم. ونادرا ما نجد استثناء لهذه القاعدة. ذلك أنه كان من المعتقد أن ذكر هذه التواريخ قد يكسر التدفق البلاغى، بل إنها قد تنتزع القارئ أو المستمع من قراءته المقدسة. فماذا تعنى التواريخ وما هى أهميتها فى تبجيل أحد الرجال المقدسين؟

وقد أدت الخلفية الثقافية لسولبيكيوس إلى تقديمه لبعض الملاحظات الكلاسيكية فى الأسلوب والمحتوى على السواء. فقد عارض القديس مارتان فى أن الأبطال والحكماء الوثنيين يمكن أن يكونوا قدوة حسنة للمسيحيين، وفى الوقت نفسه كان معجبا بفضائل الوثنيين الطيبين، كما أنه أدخلهم فى نسيج قصته. وهو يدمج السوابق الواردة فى الكتاب المقدس بالسوابق الوثنية. فالقديس يصير بطلا باعتباره «جنديا من جنود المسيح»، والحكيم هو من يعلم الحكمة المسيحية. كذلك كانت للبطلات من النساء أدوارهن فى قصته، فثمة شهيدات، وناسكات، وراهبات فى ثنايا كتابه.

وثمة سؤال يطرح نفسه عند هذه النقطة : لماذا احتاج مؤرخو العصور الوسطى إلى نماذج يقلدونها فى شتى الموضوعات التى عالجوها؟ لماذا لم يستطيعوا أن يكتبوا ما كانوا يعتقدون أنه مناسب دون أن يلجأوا إلى اختيار نموذج يطوعون رواياتهم وفق قواعده؟ إن التفكير والتأمل فى هذين السؤالين للحظة يكشف لنا أننا لا نزال نستخدم النماذج، ابتداء بالمقالات التى نتعلمها فى المدرسة ونحن صغار. وذلك لأن الأنماط الجديدة تتطور فى بطء. فمثلا، استغرق الأمر وقتا طويلا حتى يتخلى «التاريخ السياسى» القديم عن مكان بجواره للتاريخ الاجتماعى والتاريخ الاقتصادى. لأن النمط الجديد يبدأ فى شق طريقه إلى الظهور بمجرد أن تجبرنا الظروف الجديدة على رؤية الماضى بعين جديد، ومن ثم ترغمنا على قبول ما لا يكون مألوفا لدينا. ويمكن أن نشهد عملية التطور نفسها فى العصور الوسطى الباكرة. فقد ابتكرت أنماط جديدة فى مجال التدوين التاريخى إلى جانب الأنماط القديمة. وتم تدعيم النماذج الكلاسيكية

والمسيحية بنماذج جديدة، كان من الممكن نسخها بحيث تلائم الحاجات الجديدة. لقد كانت أوربا بعد الموجة الأولى من الغزوات البربرية مختلفة جد الاختلاف عن عالم العصر القديم المتأخر بحيث لم يعد ممكنا أن يكتب تاريخها بنفس أساليب العالم القديم.

كانت سيرة القديس موضوعا شبه تاريخى. وقد جعلها انتشارها وقواعدها الراسخة تظهر فى صورة الجار الذى يعتدى على املاك جاره، أعنى التدوين التاريخى. وقد اتخذ هذا التعدى طريقة واحدة اساسا، إذ كان تأثير كتابة سير القديسيين على المؤرخين اكبر مما أخذه كتاب هذه السير من المؤرخين. ذلك أن سير القديسين كانت تطرح نموذجا مغريا للكتابة التاريخية التى تتحلل من ذكر التواريخ.

الفصل الرابع

التراث البربرى والعصور الوسطى الباكرة

لم يعرف العالم القديم مؤلفا عن تاريخ أحد الشعوب البربرية. وكتاب تاكتيوس المعروف باسم Germania كتاب وصفى أكثر منه كتاب تاريخ. ولم يكن اليهود، شعب الله المختار وأصحاب التوراة، يعدون من الشعوب البربرية. ولكن الغـزاة البرابـرة الذين داهموا الامبراطورية الرومانية دخلوا حلبة التـدوين التاريخى حـين شادوا ممالكهم على انقاض الامبراطورية. وانجبوا أربعة من كبار المؤرخين هم: جـوردان Jordanes (ت ٥٥٤؟) مـؤرخ القـوط، وجـريجـورى التـورى Gregory of Tours (ت٥٩٢/٥٩٤) مؤرخ الفرنجة، وبيديه Bede (ت. ٧٣٥) مؤرخ الانجلين، ثم بولس الشماس Paul The Deacon (ت ٧٩٩؟) مؤرخ اللمبارديين. وقد بقيت تواريخهم عبر السنين بشكل أو بآخر. وكانت مؤلفات بيديه أكثرها شيوعا. إذ درج الكتاب اللاحقون على الاقتباس منها، واختصارها، والنسج على منوالها.

وظلت وحدة التاريخ قائمة لم تنكسر: ذلك أن الغزاة حين اعتنقوا المسيحية، واءموا انفسهم مع مثل العالم القديم. وكان الرومان قد ضربوا المثـل فى تزييف الأصـول الجنسية. إذ أن فرجيل قد أحضر اينياس واتباعه الطراوديين إلى سهل لاتيوم لكى يشيدوا لأنفسهم مملكة، وذلك لكى يمجد الرومان الأوائل. كذلك زعم جوردان ـ الذى اعتمد على مؤلف تاريخى مفقود لكاسيودوروس ـ أن القوط ينتمون فى الأصـل إلى سلالة ورد ذكرها فى التراث الكلاسيكى وفى الكتاب المقدس: فهم ينحدرون من نسل العملاق ماجوج الذى ورد ذكره فى الكتاب المقدس، ومن نسل الاسكيثيين Scythians (وهم شعب يعـرفه مؤرخـو العصور القـديمة). أما جريجـورى التورى فقـد قنع بالأسطورة القائلة بأن الميروفنجيين ينحدرون من نسل أميرة فرنجية اغتصبها وحش بحرى اثناء استحمامها. وسرعان ما ابتكر المتعلمون ما يسد الفجوة بـين الاثنين، فأرجع الفرنجة أصلهم إلى يافث بن نوح الذى زعموا أنه الجد الأعلى للطرواديين، وقد جاب الطرواديون ـ أجداد الفرنجة الأوائل على زعمهم ـ انحاء البلاد خارج طروادة كلاجئين حتى استقر بهم المقام فى غالة. وكان بيديه عالما من طراز راق فلم يزور فى اصل شعبه، وذكر لنا ببساطة معلوماته عن الأصول الحقيقية للانجلين، والسكسون، والجوت Jutes، كما سجل مزاعمهم بأنهم ينحدرون من سلالة آلهـة الشمال. وقـد اعترف بولس الشماس أيضا بالأصل الشمالى للمبادريين رغم تقبله لفكـرة انحدار

الفرنجة من نسل الطرواديين باعتبارهم (اسلافنا الذين سلموا الزمام إلينا). وفى كل من هذه الحالات كانت المسافة بين الأصول المزعومة وأماكن الاستيطان الحالية تستدعى اختلاق الروايات الخيالية. وسرعان ما قيل إن بروت Brut الطروادى كان قد فتح بريطانيا قبل قدوم الرومان بزمن طويل.

وقد استمر هذا النمط من التفكير التاريخى واختراع الأصول العريقة للشعوب الجديدة سائدا بحيث صارت كل بلدة أوإمارة تقحم نفسها فى أحداث التاريخ القديم، رغم أنه قد لا يكون لها تاريخ على الاطلاق، وعلى سبيل المثال وجد من يزعم بأن الملك اللاتينى تورنوس Turnus هو الذى بنى مدينة تورنى Tournai وأن مدينة كراكاو Cracow اشتقت اسمها من الكلمة التى تعنى «مدينة اغريقية»، حيث إن البولنديين ينتمون إلى أصول يونانية: إذ أن أسلافهم هزموا الاسكندر الأكبر، ثم شقوا طريقهم بالحرب صوب الشمال حتى استقروا فى بولندا. هذه الخيالات قد تثير فينا مشاعر الدهشة، بيد أننا يجب أن نتذكر أن أصول البرابرة لا تزال مجهولة حتى اليوم. وثمة فروض فى هذا المجال يطرحها العلماء المحدثون تبدو غير مقنعة مثل تلك الفروض التى كان يطرحها مؤرخو العصور الوسطى تماما.

هل تسببت الغزوات الجرمانية فى القضاء على الامبراطورية الرومانية؟ هذا السؤال الذى فرض نفسه على مؤرخى العصور الوسطى، كان سؤالا خطيرا. إذ كانت نهاية الامبراطورية تعنى انقطاع الاستمرارية. والأكثر مدعاة للازعاج، أن سقوط روما نذير بقدوم المسيح الدجال على نحو ما تقول تعاليم أوروسيوس. وكان على المؤرخين الجرمان أن يعالجوا هذه المشكلة. فقد كانت شعوبهم قد دمرت الامبراطورية الرومانية فى الغرب فعلا. فهل كان فى مقدورهم أن يوضحوا أن الاستمرارية لم تنقطع لكى يتجنبوا الانفصال عن العالم الكلاسيكى من جهة، وإذكاء مشاعر ترقب نهاية العالم من جهة أخرى؟ لقد عثر كل من مؤرخينا البرابرة الأربعة عن الاجابة المناسبة لهذا السؤال. وتمثل أحد حلول المشكلة فى التطلع شرقا صوب بيزنطة باعتبار أن الامبراطورية ما زالت حية فى الشرق. وذلك لأنه من الناحية النظرية، كان حكم الامبراطور البيزنطى وسلطته تمتد فوق أراضى كانت من قبل ضمن نطاق السلطة الامبراطورية الرومانية القديمة Imperium، رغم أنه من الناحية الفعلية، كانت الممالك الجرمانية الجديدة مستقلة، كما كانت قد فقدت أى اتصال وثيق يربطها بأباطرة بيزنطة. وقد تبنى هذه النظرة كل من جوردان، وجريجورى التورى، وبولس الشماس، على حين اختلفت درجات تعاطفهم تجاه الامبراطورية دفئا أو برودة.

وفى اسبانيا ترددت أصوات تعترض على هذا الرأى، وهو الأمر الذى يساعدنا على تفهم الحل الذى طرحه بيديه للسؤال. فقد كتب ايسيدور الأشبيلى تاريخ أسبانيا

القوط الغربيين الذى افترض فيه أن الامبراطورية الرومانية قد اختفت كقوة عالمية. كما أنه تقبل تقسيمها إلى عدة ممالك منفصلة باعتباره أمرا واقعا، ولم يعتبر نهاية الامبراطورية كارثة إذ أنه يبدو أن ايسيدور كان يعتقد أن تقسيم الامبراطورية إلى عشر ممالك كما جاء فى رؤيا دانيال قد يستمر لفترة غير محدودة. وكان هدوء أيسيدور الواضح قائما على أساس فكرته القائلة بأن الكنيسة قوة عالمية. فقد أخذت الكنيسة مكان الامبراطورية، بل إن المسيحية تخطت فى انتشارها حدود الامبراطورية القديمة. لقد شهد ايسيدور كيف فشل جستنيان فى محاولة استرداد الغرب تحت حكم بيزنطة، ولم يكن بوسعه أن يتمسك بالخرافة القائلة بأن الامبراطورية الرومانية واحدة غير قابلة للتجزئة، لأن هذه صفة خاصة بالكنيسة وحدها.

أما بيديه فكان أكثر ابتعادا عن الامبراطورية حتى من ايسيدور. كما كانت بيزنطة نائية جدا بحيث لا تستحوذ على اهتمامه. وكان مؤمنا بفكرة عصور العالم الستة التى حفظها التراث. ولكنه لم يأخذ بترتيب الزمن على أساس الممالك الأربع. وكان متفقا مع ايسيدور فى فكرته القائلة بسمو الوحدة الدينية على الوحدة السياسية. كانت بريطانيا ولاية رومانية. وفى ذلك الحين كانت البعثات التبشيرية قد نشرت المسيحية فى ربوعها كما تم تنظيم الكنيسة الانجليزية على أساس كونها ابنة لكنيسة روما. كذلك كانت البعثات التبشيرية الانجليزية تقوم بتنصير الفريـزيين الـوثنيين. ففيم يهم سقـوط الامبراطورية الرومانية إذن؟. إلا اننا سنرى ان هذا الأمر كان مايزال مهما بالنسبة للبعض. لقد دفن المؤرخون الانجليز والأسبان المملكة الرابعة قبل الأوان.

وثمة مشكلة ملحة أخرى فرضت نفسها على المؤرخين الجرمان. إذ أنهم كـانوا يميلون إلى التاريخ المقدس أكثر من ميلهم إلى التاريخ العلمانى، فهل كان ممكنا أن يسير تاريخ الشعب الجرمانى وفق هذا التقسيم، أم كان من الواجب إدماج النوعين فى بعضهما البعض؟. لقد كان التاريخ الجرمانى يمنع أن تفصـل مادتـه إلى قسمين. فاعتناق المسيحية، كاثوليكية كانت أم أريوسية، كان منعطفا هاما فى تاريخ الشعب، يؤثر على طريقة حياة أفراده وعلى مؤسساتهم وعلاقاتهم بجيرانهم. وأدمج كل من جوردان، وجريجورى التورى، وبولس الشماس التاريخ الدينى فى كتاباتهم باعتباره جزءا أساسيا فى نسيج رواياتهم. أما بيديه فقد بذل محاولة للفصل بين النـوعين، إذ انه ركز اهتمامه على الكنيسة كما جعل لكتابه عنوان «التاريـخ الكنسى للشعب الانجليزى». وعلى اية حال، فقد جاء التاريخ العلمانى فى سياق هذا الكتاب. والعنصر الدنيوى فى تاريخ بيديه أكبر منه فى تاريخ أيوسيبيوس وذلك لأن ثروات الملوك الانجليز وما يتميزوا به من روح الايثار تركت تأثيرها الكبير من حيث كثرة أوقاف الكنائس والأديرة، كما أثرت بشدة فى الحياة العملية لرجال الكنيسة. وهكذا قدر للمزج ما بين

التاريخ الدينى والتاريخ الدنيوى أن يظل باقيا.

كذلك بقى تراث من التوتر الذى لم يحسم. إذ تناول المؤرخون البرابرة فى كتاباتهم مجموعتين متصادمتين من القيم. فقد كان المؤرخ يشعر بالفخر بالماضى البطولى لشعبه، مما يدفعه إلى أن يسجل الأعمال الباهرة التى أتاها القادة العسكريون الوثنيون. كما كان بإمكان المؤرخ، بصفته أحد رجال الكنيسة، أن يجعل من اعتناق المحارب الناجح للمسيحية مجدا تكتسبه الكنيسة. بيد أن المشكلة تمثلت فى أن التعميد نادرا ما كان يؤدى إلى ممارسة الفضائل المسيحية. ولذا كان المؤرخ يجد أنه من الأيسر عليه أن يربط نفسه بشعبه، مغتفرا للحاكم خطاياه المجافية لتعاليم الكنيسة بشرط أن تكون المملكة قد ازدهرت إبان فترة حكمه. وربما كان التدين فى الحاكم يتحول إلى تطرف قد يعانى منه شعبه إذا ما أدار الحاكم ظهره للعالم ليدخل أحد الأديرة أو ليقوم برحلة حج إلى الأراضى المقدسة.

كانت كتابة سيرة أحد القديسين مهمة أسهل من تسجيل أعمال أحد الملوك. إذ كان من الممكن أن يجمع الملك بين الحكمة والبطولة فى إطار مسيحى. إلا أن القديس غالبا ما يكون من رجال الكنيسة. والملوك الذين رفعوا إلى مراتب القديسين قلائل، والملوك هم الذين يصنعون التاريخ، ولسوف نرى كيف كان مؤرخو العصور الوسطى يعانون من مشكلة الكتابة عن الملوك المسيحيين. إذ كانت رؤية أوروسيوس للتاريخ تبدو جيدة فقط لمن يكتبون تاريخا عالميا. لأن تسجيل تاريخ شعب ما كان يعنى التحيز والابتهاج بالنصر على الأعداء. وكان النموذج الذى قدمه العهد القديم بمثابة طوق النجاة من هذه الورطة. فقد كان باستطاعة المؤرخ أن ينتحل دور الاسرائيليين فى العهد القديم لشعبه، وأن يجعل لأعدائه دور الأمميين الذين يستحقون الدمار. وبمثل هذه السهولة يمكن أن يتحول الاله المسيحى إلى إله لاحدى القبائل، يحارب فى جانب المؤرخ وشعبه. لكن حماسة المؤرخ التى كان يخص بها شعبه كانت تضفى مسحة من الاثارة على ما كان سيبدو بدونها مجرد إغارات صغيرة أو نزاعات على الحدود.

وخلال القرنين السادس والسابع ساءت ظروف الدراسة أيا كان نوعها. وفى داخل الممالك الجرمانية أخذ نموذج العصور الوسطى الباكرة فى الظهور رويدا رويدا. وانحصر التعليم فى الكاتدرائيات والأديرة حيث كان الأسقف مسئولا عن التعليم فى حدود أسقفيته، وواجبه الأساسى أن يدرب الاكليروس التابعين له. وقد يقوم هو بالتدريب فى المدرسة الكاتدرائية التابعة له. وكانت هناك كاتدرائيات عديدة بنيت فى عواصم ولايات الامبراطورية الرومانية القديمة مثل فيرونا Verona، ورافنا Ravenna، وليون Lyons وربما تكون إحداها قد ورثت مكتبة غنية عن العصر

الرومانى. وكان الأسقف النابه يشجع نسـخ النصوص، فقـد كان تـوفير الحمـاية الخاصة للناسخين مطلوبا عن ذى قبل، لأن تجارة الكتب على نطاق عام كانت قـد وصلت إلى مرحلة الجمود. وإلى جانب الكاتدرائية لعب الدير دوره فى صون الثقافة والحفاظ عليها. كانت هناك « أديرة مدن » «City monstaries» مثل دير فولدا Fulda ودير القديس جول St. Gall، ومونت كاسينو Monte Cassino وكان مقدمو الأديرة يعتبرون أن المكتبة وحجرة النسخ المـوجودة بـالديـر جزءا لا يتجـزأ من «**دولتهم الصغيرة داخل الدولة**». ولم تقف الفوضى السياسية، أو مصاعب السفر، حجر عثرة فى طريق اتصال العلماء ببعضهم البعض. إذ إستمر التبادل الثقافى قائما بين مراكز التعليم الرئيسية فى شتى أنحاء العالم المسيحى.

وظهرت أنماط جديدة من التدوين التاريخى تلبية للاحتياجات الجديدة. وكـانت **الحوليات** هى أكثر أشكال التدوين التاريخى فى العصور الوسطى بدائية. فقد بدأت فى إطار متواضع على شكل جداول لحساب تاريخ عيد الفصح، وهو عيد لا يزال غير ثابت الميقات، ولكن طريقة حسابه قد أرسيت قواعدها، فمـا علينا إلا أن ننظـر فى مفكرتنا اليومية لكى نعرف موعد حلوله. إلا أن طريقة حساب موعد هذا العيد فى تلك الفترة الباكرة كانت مسألة يحاول كل فرد أن يحلها بنفسه. فقد تم إرساء قواعـد حساب موعد العيد بعد فترة طويلة، كما حدث بالنسبة لاتخاذ سنة ميـلاد المسيح فاصلا لعد سنوات قبلها B.C (أى قبل ميـلاد المسيح) أو بعـدها A.D (أى بعـد الميلاد). وكانت هناك عدة طرق للحساب، كما كان الكتاب يستخدمون عدة طرق فى آن واحد أحيانا. وكان عيد الفصح بموعده غير الثابت هو الذى يحـدد مجرى السنـة المسيحية بأسرها، وما يتخللها من أعياد واحتفالات. ولذا كانت الكنائس، فى الأديرة وخارجها، فى حاجة إلى جداول تبين تاريخ عيد الفصح وتؤكد الخدمات التى سوف يتم ترتيبها سلفا. وكانت هذه الجداول تجمع سويا لتكون تاريخا يغطى عددا من السنين.

وكان لابد أن تكون فى الجداول مساحات خالية تدون فيها الملاحظات على الأحداث. وكان الشخص الذى يستخدم هذا الجدول يسجل فى بعض الأحيان أخبار عاصفة أو إعصار أو مناسبة ذات أهمية محلية أو موت شخصية عظيمة. أما المرحلة الثانية فى تطور الحوليات فقد تمثلت فى تسجيل الملاحظات بشكل منفصل عن الجدول. وحينئذ كان لابد للحوليات أن تحتفظ بالتواريخ إما فى نظام معين، وإما باتخاذ بدايات معينة لها. وقد يستعير رهبان أحد الأديرة الحوليات من رهبان دير آخر، وربما يضيفون من لدنهم إلى الأصل ويستمرون فى ذلك على مر السنين. وهذه الممارسة أرهقت الباحثين المحدثين: ذلك أنه ينبغى، لكتابة تاريخ سليم، فصل الجزء الأصلى من الحولية، أو الكشف عن المصدر الأصلى الذى أخذ عنه جميع كتاب الحوليات. وقد شبه هذا العمل

بتقشير البصلة : فقد كانت أية مجموعة حولية تخفى جلدا آخر خفيا. وتتسم الحوليات الديرية بالجمود والخشونة من حيث الموضوع، كما أنها ليست كلاسيكية (رغم اسمها)، وعادة ما تكون اشتقاقية وغير أصيلة، ومع هذا فإنها قد أبقت التدوين التاريخى حيا فى أوساط لم يكن فيها أحد يحاول أن يكتب تاريخا أدبيا طموحا. إذ كان التعليم متدهورا كما أن الدافع إلى كتابة مثل هذا التاريخ لم يكن موجودا.

وثمة مؤلف آخر كان له تأثيره فى مجال التدوين التاريخى هو «كتاب البابوات Liber Pontificalis » فقد كان البابوات يمارسون أعمالهم باعتبارهم أساقفة روما ورؤساء الكنيسة اللاتينية على حد سواء[1]، وتتضح كفاءة الوظيفة الأولى بصورة أكبر فى المراحل الأولى من الكتاب. فقد سجل الكتبة (الذين كانوا أساقفة أيضا فى العصور الوسطى) العاملون فى الوظائف الكتابية فى اللاتيران (المقر البابوى) تعاقب البابوات على الكرسى الرسولى، كما كتبوا تراجم أولئك البابوات. ونحن نشير إلى «كتاب البابوات» باعتباره كتابا واحدا من قبيل التيسير؛ إلا أن اسم الكتاب يدل على الجمع وليس على المفرد. وهو أشبه بغابة من الأشجار ـ تزداد كثافة فى بعض أجزائها وتقل كثافتها فى أجزاء أخرى ـ منه بشجرة ذات فروع. وقد وصلنا هذا الكتاب فى عدة روايات مختلفة، إذن كان جامعوه فى العصور الوسطى الباكرة مجرد كتبة عاديين، وكانوا يكتبون دون أن يسجلوا أسماءهم على أساس أنهم موظفون بابويون. كما كانت لبعض كتاب التراجم أغراض دعائية، إذ أنهم أرادوا تبرير السياسة البابوية فى مواجهة القوى الأخرى. بيد أن اهتماماتهم كانت محلية بالدرجة الأولى. وفى هذا

---

(١) كان أسقف روما يعتبر نفسه فى البداية نائبا للقديس بطرس. وفى العصور الوسطى لم يكن هناك من ينكر هذا الأمر الذى يعد من أكثر الحقائق التاريخية وضوحا؛ ذلك أن القديس بطرس تولى أسقفية انطاكية سنة ٣٤ ثم نقل كرسيه الأسقفى إلى روما سنة ٤٠م. وفى سنة ٥٩ رسم خليفتاه لينوس Linus وكليتوس Cletus أسقفين فى روما. ومنذ البداية أخذ القديس بطرس وخلفاؤه يعملون على توجيه الكنيسة، وتنظيم احتفالاتها ويحددون ملامح النظام الكنسى ويؤسسون الأسقفيات.

ومن ناحية أخرى كان وجود جسد القديس بطرس (الصخرة التى بنى عليها المسيح كنيسته) فى مقبرة داخل روما ذا أهمية فائقة بالنسبة للكنيسة الغربية. وكان الاعتقاد السائد أن صاحب هذا الجسد سوف يقوم يوما ما بحراسة أبواب السماء، وأنه يمثل حلقة الوصل بين الوجود الدنيوى والوجود السماوى. وكانت هبة قنسطنطين تتضمن قسما قطعه الامبراطور على نفسه بأن يحافظ على الهبة التى منحها وقفا لجسد القديس بطرس. (عن هبة قنسطنطين ودورها فى محاولات تأكيد الزعامة البابوية فى الغرب انظر: Cantor, Med. Hist., pp. 195-9، وعن الدراسات التى أجريت حولها انظر: على الغمراوى: المدخل، ص ٩٧ ـ ص ١٠٠. وانظر الترجمة الانجليزية لنص هذه الوثيقة التى تعتبر أشهر تزوير فى التاريخ فى كتاب «كانتور» المسمى: The Med. World, pp. 131-9.).

وهكذا كانت للبابا سلطة واسعة اعتقادا بأنه نائب القديس بطرس. وكان من يعصى أوامره =

= إنما يعصى اوامر القديس بطرس سواء فى الشئون الدنيوية او الكنسية. وكانت وحدة الكنيسة الغربية ترتكز على روما بفضل القديس بطرس. ورغم ان ذلك فى حد ذاته كان كافيا للحفاظ على سلطة البابوية طوال العصور الوسطى الباكرة، فإن كاتب «هبة قنسطنطين» كانت له أهداف اكبر من ذلك. فقد كان يريد للبابا ان يصبح « اسقفا عالميا » انطلاقا من المفاهيم الكلاسيكية والامبراطورية الموروثة عن الحكومة، كما راى فيه حاكما مستقلا ونشيطا فى عالم عملى، وليس مجرد ايقونة حية.

ومنذ البداية كان البابوات يحلمون بمدينة الله حيث يقوم البابا بتنصيب اتباعه من الملوك ويأمرهم بالدفاع عن العقيدة. وقد لعب البابا جريجورى الأول العظيم Gregory I The Great (ت ٦٠٤) دورا هاما فى تأكيد زعامة البابوية لغرب أوربا. إذ انه تولى عرش القديس بطرس فى وقت كانت الكنيسة فيه اشبه ما تكون بسفينة يصدر عنها صرير الغرق. والواقع ان البابوية لم تمارس اى دور قيادى فعال منذ عهد جلاسيوس الاول Glasius I (٤٩٢ - ٤٩٦) كما كان الأعداء يحدقون بها من كل جانب. ورغم أن جريجورى لم يتمكن من التغلب على المشكلات التى جابهته، إلا انه أرسى دعائم السياسة التى سار عليها خلفاؤه فى علاج تلك المشكلات. (عن جريجورى الأول وحياته، وإدارته للحكومة البابوية، ومراسلاته ومؤلفاته انظر:

Margaret Deansly: A hist. of The Med. Church, (5th ed., Metheum, London 1974) pp. 15-28.

وعن الترجمة الانجليزية للنصوص بعض مؤلفاته انظر:

Robert Brentano, The Early Middle Ages, (Macmillan, London 1964), pp. 114-120.

وكذلك :

وكان جريجورى الأول مدركا لكونه اكثر من مجرد أسقف، بل هو نائب المسيح على الأرض باعتباره اسقف روما، وقد تجسدت هذه النظرة فى اللقب الذى اتخذه لنفسه وهو «خادم خدام الرب Servus Servorum Dei» الذى وجد لنفسه السند والدعامة فيما جاء بانجيل مرقص (١٠: ٤٣ - ٤٤) «فلا يكون هكذا فيكم، بل من اراد ان يصير فيكم عظيما يكون لكم خادما، ومن اراد ان يصير فيكم اولا يكون للجميع عبدا». بمعنى ان صاحب المسئولية الاكبر، يجب أن يتمتع بسلطة غير مقيدة لكى يقوم بأعباء العمل المقدس الموكل إليه.

هذه الفكرة عن الحكومة البابوية، بجانب المفاهيم الكلاسيكية الامبراطورية القديمة عن الحكومة تفاعلتا سويا بحيث ان طموح البابوات لم يقف بهم عند حد ارتضاء نيابتهم للقديس بطرس. بل إنهم اتخذوا لانفسهم لقبا آخر يتضمن سلطة أعلى ومجالا أشمل وهو لقب «نائب المسيح» الذى بدأ البابوات يتخذونه لانفسهم ابتداء من حوالى منتصف القرن الثانى عشر. وزعم البابوات ان هذا اللقب يختص بهم دون غيرهم، بعد ان كان القساوسة والملوك ينتحلونه لانفسهم دون البابوات فى الماضى. وبعد جريجورى السابع (١٠٧٢ - ١٠٨٥) تضاءل اعتماد البابوات على القديس بطرس. إذ كان الاعتماد الكلى على هذا الحوارى مقبولا فى زمن كانت فيه المدينة البابوية مدينة مقدسات ومزارا للحجاج، ولم يكن لها سوى سلطان ضئيل على الشئون العملية، ولكن الظروف تغيرت بفضل ازدياد الدور الذى تلعبه البابوية فى الشئون السياسية.

والحقيقة أن كثيرا من بابوات القرنين التاسع والعاشر، وأوائل القرن الحادى عشر قد أمسكوا بزمام الشئون السياسية بقبضة قوية : ولم يكن يضعف من هذه القبضة سوى الظروف المحيطة بهم. ولكن الحكومة البابوية أمست واقعا حيا ملموسا. وكان كبار الأساقفة هم حلقة الوصل بين =

الكتاب ظهر البابوات كأساقفة لروما. وقد كـان الرومـان يعتمدون عـلى أساقفتهم، باعتبار أنهم من الملاك الأثرياء، فى إطعام شعب المدينة إبان المجاعات، وفى الحفاظ على عمران المدينة بصيانة مرافق الرى والصرف. وقد تحمل البابوات مسئولياتهم؛ ذلك انهم كانوا يفخرون ببناء الكنائس الرومانية وزخرفتها. ويمكن اختيار ترجمة البابا هنريوس الاول Honorius I (٦٢٥ - ٦٣٨) كمثـال على التـراجم البابـوية، فهـذه الترجمة تسجل عطاياه التى اغدقها على الكنائس الرومانية، وما قام به من إصلاحات فيها، وتحدد بالضبط وزن ما أنفق على كل منها من المعادن النفيسة. وثمة ملحق وضع فى وقت لاحق لترجمة هنريوس يقرر انه اقام طاحونة فى مكـان يعرف بـاسم «مياه تراجان»، وانه اصلح القناة المحفورة هناك. ولا يمكن لمن يقرأ الترجمة أن يخرج منها باستنتاج أن هنريوس لعب دورا هاما فى تنظيم الكنيسة الباكرة فى إنجلترا، لأن ذلك كان أبعد ما يكون عن نطاق اهتمام كاتب ترجمته.

وقد ذاع صيت «كتاب البابوات» لدرجة أن العلماء كانوا يعكفون على قراءته كلما اقتضت ظروفهم أن يذهبوا إلى البلاط البابوى. ثم نسخت منه عدة اقسام وانتشرت فى انحاء أوربا. وقد الهمت تراجم البابوات المؤرخين ـ الذين كانت قراءاتهم تتضمن سير القديسين أساسا ـ أفكارا جديدة. إذ أن البابوات لم يكونوا فى العصور الـوسطى الباكرة قديسين أو شهداء، وإنما كانوا رجالا عاديين يعالجون مشاكل عملية، باستثناء جريجورى الأول. وقد اثبت «كتاب البابوات» جدارته للقراء بأن سجل أعمال رجال الكنيسة الذين لم تكن لهم أية مزاعم قدسية. وكان هذا الكتاب هو النموذج الذى صيغت على نهجه أعمال الأساقفة ومقدمى الاديرة. وقد عرف بولس الشماس «كتاب البابوات» وكان ماثلا فى خاطره حين طلب منه شارلمان أن يكتب تاريخ أسقفية ميتز. وقد وضع كتابه المسمى «تاريخ ميتز» النموذج الذى حذا المؤرخون اللاحقون حذوه. وكان هذا النمط من انماط الكتابة التاريخية يبدأ بذكر تأسيس الأسقفية أو الدير (وغالبا ما يبدأ بذكر الأسطورة المتعلقة بالتأسيس). ثم ينسخ الكاتب ما يتيسر له من المصادر، ويتطرق إلى ذكر الأحداث الأقرب إلى عصره. وكان يستخدم عهود الأساقفة

= البابوية والكنائس المحلية. ويبدو انه منذ القرن السابع برزت فكرة أنه لا يجب أن يباشر كبير الأساقفة مهام منصبه إلا برسامة البابا له، وأيا كان تاريخ مولد هذه الفكرة فإنها قد صارت أمرا مسلما به فى القرون التالية فى شتى انحاء العالم المسيحى الغربى. وفى روما وجدت (ارشيفات) يعمل بها الموظفون الكنسيون وفق نظام هيراركى hierarchy يذكرهم بما يجب ان تكون عليه الحكومة البابوية: انظر Cantor, Med. Hist., pp. 17-5 وكذلك:

R.W. Southern, Western Society and the Church in the Middle Ages, Penguin. 1976: pp. 94–105; Geoffrey Barraclough The Medieval Papacy, (Thomas and Hudson, London, 1968) pp. 27–37.

(المترجم)

أو مقدمى الأديرة المتعاقبين فى اطار التسلسل الزمنى الذى وضعه. وقد يسر هـذا النموذج على المؤرخين المتأخرين سبيل الاضافة إلى القصة التاريخية والوصول بها إلى عصرهم.

وكان مجال هذه «الأعمال» ومداها يختلف تبعا لأهمية كل أسقف أو مقدم دير. فربما يكون منهم من كان يشارك فى شئون العالم المسيحى ككل، وربما يكون منهم من لم يبرح موطنه. وفى الحالة الأولى نرى كيف كانت السياسة العالمية تبدو فى نظـر المؤرخ المحلى. وفى الحالة الثانية قد نسمع الكثير عن المدن والريف. ويقترب بنا هؤلاء المؤرخون المحليون تجاه التاريخ الاجتماعى والاقتصادى أكثر من غيرهم. فليس هناك مؤرخ واحد كتب تاريخ «العامة»، مما يجعل العلماء المحدثين يعتمدون على الدليل الوثائقى أكثر من اعتمادهم على المصادر الأدبية عند دراستهم لحياة فلاحى العصور الوسطى. بيد أن كتاب «الأعمال» كانوا يجدون المناسبة لذكر أحوال سكان الريف، وسكان المدن، وملاك الأراضى والرحالة؛ لأن عاداتهم وخصوماتهم، وتمردهم، وكرمهم، وما يقترفونه من سرقات كانت تؤثر على المجتمع الذى يعيش فيه أولئك الكتاب.

لقد لحق التاريخ المحلى بالرسائل التاريخية كبديل عن التاريخ العالمى أو تواريخ الشعوب. كما كان له مرادفه العلمانى الذى تمثل فى «أعمال» الأمراء، أو تواريـخ العائلات الدوقية.

هذه الأعمال تقودنا إلى نوع ثالث من مراكز الدراسة والعلم، ذلكم هو بلاط الأمير. إذ كان الحكام البرابرة يستمعون إلى الروايات التى تحكى عن أسلافهم الأمجاد، وزاد اهتمامهم بهذه القصص بفضل ما حدث بعد اعتناقهم المسيحية. فقد كرس بيديه كتابه «التاريخ الكنسى للشعب الانجليزى» لواحد من ملوك نورثمبريا. وفى فرنسا كان أمناء القصر، الذين انتزعوا السلطة من الميروفنجيين، يضمون المؤرخـين إلى أفراد الحاشية. وقد ولدت تلك البداية الواهية لحركة الاحياء الثقافى التى ارتبطت باسم شارلمان (ت ٨١٤) تحت سقف بلاط جده الفرنجى شارل مارتل (ت ٧٤١). وعمل شارلمان ومستشـاروه بكل جهـدهم على تكـوين فئة من الاكليـروس المتعلمين، لكى يعوضوا النقص الواضح فى أعداد الكتب والمدرسين. وآتت جهودهم أكلها فى شكل انتاج وفير من الكتابات الثقافية التى بدأت فى السنوات الأخيرة من حكم شارلمان، واستمرت حتى منتصف القرن التاسع. ومن المعلوم الآن أن «النهضة الكارولنجية» بدأت منذ وقت مبكر، كما استمرت لفترة أطول مما تعودنا أن نظنه[٢].

---

(٢) عن هذا الموضوع انظر:

Philippe Wolff, The awakening of Europe, pp. 29-35.

وساهمت الكاتدرائيات، والأديرة والبلاط الامبراطورى جميعا فى حركة الاحياء. وكانت هذه المشاركة تعنى أن العلمانيين من أبناء الطبقة الراقية صار بإمكانهم أن يساهموا فى الحركة الأدبية وحركة التأليف. فقد كانت المدارس الديرية والكاتدرائية تقبل الدارسين من خارجها. وثمة اثنين من مؤرخى القرن التاسع كانا من العلمانيين وهما : اينهارد Einhard ونيتهارد Nithard، الأمر الذى أسبغ على التدوين التاريخى الكارولنجى صفة الثراء التى اشتهر بها. فقد أمست كتابة اللاتينية وقراءتها احتكارا لرجال الكنيسة أثناء القرن التاسع : ذلك أن العلمانيين كانوا قد فقدوا الرغبة كما لم يكن لديهم الوقت اللازم للدراسة. وشخصوا إلينا من خلال ذلك العصر فى صورة قراء أو مستمعين على أحسن الفروض، وكانوا يحتاجون لمن يترجم لهم عن اللاتينية، كما أنهم لم يؤلفوا أية كتب.

لقد أضافت «العصور المظلمة» ـ كما نسميها جحودا منا لفضلها ـ الكثير من الموضوعات التى نشتغل بها اليوم. إذ كان لدى المؤرخ مجال للاختيار أوسع من ذلك الذى كان متاحا قبل خمسمائة عام. كان المؤرخ، كالفنان، قادرا على أن يلون الحائط بصور مدونة تاريخية عالمية، أو تاريخ عالمى، أو تاريخ أحد الشعوب، كما كان يستطيع عوضا عن ذلك أن يرسم قصة كنيسته أو ديره، أو أن يكتب ترجمة لأحد الشخصيات. أما الكاتب الأقل توسعا فكان يمكنه أن يحدد نفسه فى إطار الحوليات المحلية.

لقد حانت اللحظة التى يتحتم عندها أن نحدد الفروق الرئيسية بين مؤرخى العصور الوسطى، والمؤرخين المحدثين. وأوضح هذه الفروق هو تصور العصور الوسطى للزمان والمكان. فالزمان عند مؤرخ العصور الوسطى ممتد بين يوم الخليقة وبين يوم القيامة، فقد بدأ الزمان وسوف ينتهى، وهو يصير عبر فترات محدودة بشكل واضح. أما المكان عنده فهو محكوم بحدود التاريخ القديم، وحدود الكتاب المقدس فى الماضى، وبامتداد العالم المسيحى فى الحاضر. كانت ثمة قصص يرويها الرحالة عن شعوب العالم الخارجى، بيد أنها لم تكن تعد من قبيل التاريخ. ولم تكن الشعوب غير المسيحية تدخل التاريخ عادة سوى حين يدون المؤرخون المسيحيون أنباء الحروب التى نشبت على الحدود، أو الغارات، أو البعثات التبشيرية التى كانت ترسل إلى الوثنيين. وهناك فارق واضح آخر هو أن مؤرخ العصور الوسطى كان يمتلك من أدوات البحث التاريخى قدرا أقل بكثير مما هو فى متناولنا. إذ كان يعتمد على المصادر الأدبية

= وعن النهضة الكارولنجية انظر نفس المرجع pp. 36-48. وكذلك : د. سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ ٢، ص ٣٥ ـ ص ٩٠.

انظر أيضا Cantor, Med. Hist., pp. 189-191.

(المترجم)

والسماع، وكان الكاتب المدقق يحاول أن يستخدم الآثار للتدليل على ما يقول؛ إلا أنه لم يكن يستطيع استحضار المناهج العلمية لكى يستخدمها فى تحقيق ما شاهده أو رآه أو سمعه.

وتكمن العقبة الرئيسية فى طريق فهمنا للتدوين التاريخى فى العصور الوسطى فى غياب المنظور. فقد كان لفن التصوير فى العصور الوسطى بعدان. وكان الفنان يرسم على وجه مسطح. ودارس الفن الوسيط يتعلم كيف تقبل التسطح فى التصوير كعرف سائد فى العصور الوسطى : وبذلك لا يحط من تقديره للصورة. وينبغى بالمثل أن يتعلم دارس التدوين التاريخى الوسيط أن يدرس دون الاستعانة بمنظور يرى به العرض التاريخى -حقيقة أن مؤرخ العصور الوسطى كان يستطيع أن يميز بين مراحل الخلاص الانسانى، ولكن هذه المراحل كانت مراحل دينية. ولم يكن مدركا للتغير والتطور فى التاريخ الدنيوى. وكان يرى الاستمرارية فى العادات والمؤسسات، على حين نراها نحن متغيرة غير ثابتة، كما كان يجعل الأباطرة الرومان يتكلمون ويتصرفون مثل حكام العصور الوسطى. ومن ناحية أخرى، كان المؤرخ الذى نال قدرا من التعليم اللاتينى الكلاسيكى يميل إلى جعل حكام العصور الوسطى يتكلمون ويتصرفون كالقياصرة. إذ أن المؤرخ فى العصور الوسطى لم يكن يتجه إلى العهد القديم التماسا للسوابق والنماذج فقط، بل كان يعيش فى كتاب مقدس ممتد. فقد كان الكاتب الذى يدون سيرة أحد القديسين يشعر أنه يضيف صفحة جديدة إلى قصة الانجيل، كذلك كان الكاتب الذى يسجل أعمال أحد المحاربين يعتقد أنه يواصل سرد قصة أبطال العالم القديم وأبطال الكتاب المقدس. لقد التحم الماضى بالحاضر، وتشابه الحاضر مع الماضى فى عينى مؤرخ العصور الوسطى الذى لم يكن لديه أى احساس بالتغير الزمنى.

كان فنان العصور الوسطى، أيضا، يفتقر إلى هذا الاحساس بتغير الزمن. وهنا نجد تشابها بين المؤرخ والفنان. فلم يكن الفنان يتوخى أن يكون عمله صائبا من الناحية التاريخية وهو يرسم الشخصيات أو المبانى، وذلك لأنه كان يلبس شخصياته ملابس العصور الوسطى، كما كان يخلط أحيانا بين طراز الملابس المختلفة. فالفنان بيورى بيبل Bury Bible، الذى عاش فى القرن الثانى عشر، يصور «آرميا النبى» وهو يرتدى ثياب النبوة - التى صورها بيورى فى شكل العباءات الفضفاضة التى عرفتها العصور الكلاسيكية - جالسا فوق سحابة، وفى النصف الأسفل من الصورة مشهد الاستيلاء على بيت المقدس الذى تنبأ به النبى. هذا المشهد يحمل سمات وخصائص القرن الثانى عشر؛ وهو ما يعنى أن الفنان قد رسم السلاح، والثياب، والحصون بأسلوب العصر الذى يعيش فيه. فقد كانت للحادثة حرارتها الحية، لمجرد أن الفنان

كان يراها كما لو كانت تحدث فى الحاضر.

وفى عصرنا الحالى يعتقد المؤرخ أن مهمته أن يتتبع التغير وأن يفسره. وهو يبحث أيضا عن الاستمرارية فى العملية التاريخية، إلا أنه يعتبرها بمثابة خيط ممتد عبر النموذج التاريخى المتغير. إذ أن صيرورة الزمن هى مصدر خوف المؤرخ المحدث. وإذا ما ارتدت الشخصيات التاريخية ملابس عصر مختلف، ونطقت بعبارات لا تتصل بهذا العصر أو تنتمى إليه، تصبح قراءة الرواية التاريخية عملية مؤلمة ومعذبة. ونظرتنا إلى التاريخ باعتباره سجلا للأحداث المتغيرة تتناقض مع قصور وعى مؤرخى العصور الوسطى بحقيقة الزمن كعنصر متغير. وقد تبدو لنا أفكارهم هزلية وساذجة، إلا أنه ينبغى علينا أن نحاول تفهم هذه الأفكار فى ضوء ظروف العصور الوسطى. وعندها سنرى أن غياب وعيهم بالزمن أمر يتوافق مع الواقع الذى عاشوه.

وكانت فكرة العصور الوسطى عن «الماضى» فكرة معقولة فى جملتها، من حيث أن ملامح هذا الماضى الأساسية لم تتغير. ذلك أن الماضى القديم، كما عرفته العصور الوسطى، كان متوافقا فى كثير من ملامحه مع مجتمع العصور الوسطى حتى القرن الخامس عشر على أقل تقدير. فلم يكن الانتاج آليا، كما كانت غالبية السكان تشتغل بالفلاحة، بينما انحصر التعليم فى نطاق الصفوة، كبيرة كانت أم صغيرة، وظل الاعتقاد فى الغيبيات موجودا بشكل أو بآخر. كما أن العالم الجديد (القارات الجديدة) لم يكن قد اكتشف بعد. فضلا عن أن التطورات والتغيرات التى طرأت فى مجالات الزراعة، والصناعة والنقل حدثت بشكل بطىء لا يثير الدهشة. أما اليوم، فإن التأمل والتروى يجبرانا على التحقق من أننا نعيش فى عصر آخر غير العصر الذى عاشه أجدادنا. كذلك فإن غياب المنظور الزمنى ليس وقفا على العصور الوسطى وحدها. فغالبا ما يواجه المبتدئون صعوبة تحديد التسلسل الزمنى قبل عصر الاكتشافات أو الثورة الصناعية. وهو ما يعنى أن الاختصارين ق.م .B.C و.م .A.D يعنيان شيئا واحدا بالنسبة لهم. كما أن الأطفال الذين يتمتع آباؤهم بقدر من العقلانية وتتاح لهم فرصة مشاهدة الآثار، يتميزون بوعيهم بالزمن. بينما ينمو وعى غيرهم بالزمن بشكل تدريجى، وقد لا ينمو على الاطلاق. وفى العصور الوسطى كان الناس يشعرون بالألفة تجاه ماضيهم، بينما نشعر نحن أننا غرباء عن ماضينا. وعلى المؤرخ أن يبذل جهده للتأقلم مع روح العصور الوسطى، ثم عليه أن يحزم متاعه ويتأهب مرة أخرى كما لو كان يريد زيارة العالم القديم. أما مؤرخو العصور فكانوا يسافرون إلى هذا الماضى بدون متاع.

الفصل الخامس

التراجم الملكية
(٨٠٠-١١٥٠)

تشترك التراجم الملكية فى سمة عامة هى : أنها مؤلفات دعائية. صحيح أن أغراض المؤلفين وأساليبهم كانت تختلف من واحد لآخر، بيد انه كان عليهم جميعا إيجاد القالب الذى يمكن أن تصب فيه جميع الوقائع المختلفة. ذلك أنه كان يجب تقديم الأمير إلى القراء أو المستمعين فى الصورة التى يريدها له كاتب ترجمته.

ولنبدأ باينهارد[1] الذى كتب سيرة شارلمان. وكان اينهارد رجلا قصير القامة، وألف كتابا قصيرا أيضا، إلا أن لهذا الرجل تاريخا طويلا، ذلك أن تأثيره يفوق حجمه بكثير[2]. وكان اينهارد رجلا علمانيا بعكس كتاب التراجم اللاحقين. وقد يسرت حركة الاحياء الكارولنجية قدرا طيبا من التعليم لمن كان على صلة بالبلاط من العلمانيين. وكان لدى اينهارد من المؤهلات ما مكنه من كتابة قصة حياة شارلمان. إذ أنه عمل فى خدمة الامبراطور حتى تقدم به العمر، ثم خدم خليفته «لويس التقى» من بعده. ولم يبدأ اينهارد من فراغ؛ إذ كان تدوين التاريخ مشروعا تتبناه الدولة، لأن حفظ الحوليات الملكية كان قد بدأ بالفعل. وكلف اينهارد بأن يكتب سيرة شارلمان، وكتبها

---

(١) Einhard (ت ٨٤٠) كان سليل أسرة مرموقة ولد فى مينجو Maingau إحدى المقاطعات الشرقية فى مملكة الفرنجة آنذاك. وتلقى تعليمه فى دير فولدا Fulda فى هسى Hesse على بعد حوالى ستين ميلا إلى الشمال الشرقى من فرانكفورت وبعد سنة ٧٩١ أرسله مقدم الدير إلى مدرسة البلاط فى قصر شارلمان بآخن Aachen وبفضل ما اجتمع فى شخصه من ذكاء وحكمة ومثابرة، قلما تجتمع فى شخص رجل واحد، لمع نجمه بسرعة فى البلاط وصار مستشارا وصديقا شخصيا لشارلمان. وبعد موت شارلمان سنة ٨١٤ ظل اينهارد مقربا إلى أبنائه وخلفائه. وقد كتب اينهارد عدة مؤلفات كما نظم بعض الأشعار، ولكن أهم مؤلفاته هو سيرة شارلمان Vita Caroli الذى يعتبر مصدرا هاما من مصادر العصر الكارولنجى. انظر: .

Einhard and Notker the Stammer, Two lives of Charlemagne (translated with an introduction by: Lewis Thrope, Penguin Books, 1974), pp. 12–27

وانظر الترجمة الانجليزية لكتاب اينهارد : pp. 49–90

(المترجم)

(٢) شبهه بعض الباحثين بالنحلة التى تفرز عسلا شهيا رغم ضآلة حجمها.

فعلا فيما بين عامى ٨٢٩ و٨٣٦. ولأنه كان تلميذا نجيبا لأيسيدور الاشبيلى، فإنه أعفى نفسه من أن يكون «مجرد جامع» لأخبار الفترة المبكرة والوسيطة فى حياة البطل الذى يكتب سيرته، لأن هذه الفترة لم تعيها ذاكرته. وقد أثبتت الأبحاث الحديثة التى أجريت على «حياة شارلمان» أن مؤلفها لم يتألق كجامع، لأنه لم يتناول مصادره بحرص. ولكنه كان قادرا على أن يكتب كشاهد عيان على الفترة الأخيرة من حياة الامبراطور شارلمان.

وربما يكون اينهارد قد أخذ يبحث دون جدوى عن نموذج مسيحى يتخذه دليلا يقتفى أثره وهو يكتب عن حاكم علمانى. فقد كانت التراجم المألوفة لديه هى سير القديسين التى لم تكن لتناسبه على الاطلاق. وكان ثمة نموذج كلاسيكى متاح لأينهارد هو «سير القياصرة» التى كتبها سويتونيوس. واتخذ أينهارد من سويتونيوس دليلا ومرشدا فى كتابته لحياة شارلمان التى اشتهرت باسم «السيرة الثالثة عشرة» لأنها اعتبرت بمثابة إضافة تكميلية لسير القياصرة الاثنى عشرة التى كتبها سويتونيوس. وسار اينهارد على نهج سويتونيوس فى بناء الكتاب وفى أسلوب الكتابة حتى أنه تخلى عن الاقتباس من عبارات الكتاب المقدس بحيث جاءت اللغة اللاتينية التى كتب بها نقية من شوائب الاقتباس من الكتاب المقدس. ولابد أنه تكبد مشقة جسيمة لكى يتجنب ما قد يعتبره المتخصصون فى الدراسات الكلاسيكية تشويها للغة. وقد نجح اينهارد فى ذلك لأنه أخذ بعض الفقرات من النموذج الذى قأم بتقليده، وتمثلت النتيجة فى أنه كتب نسخة أخرى من الأصل اللاتينى الذى اعتمد عليه. كما أنه اختار من التفاصيل الواردة فى مختلف السير ما يمكن تطويعه لخدمة ما يكتبه عن شارلمان. إلا أنه أحيانا لم يكن يجد فى هذه السير ما يساعده؛ ذلك أن القياصرة كانوا رجالا متعلمين، على حين بدأ شارلمان يتعلم الكتابة فى مرحلة متأخرة من عمره، ولم يتقدم كثيرا فى هذا المضمار. ولم يتردد أينهارد إطلاقا فى تسجيل هذه السمة البربرية التى اتصف بها شارلمان. وكان كاتبا مبدعا بقدر ما كان مقلدا. فقد رسم لنا صورة مقنعة للامبراطور المسن. بيد أن اختيار اينهارد لسويتونيوس نموذجا، جعل كتابه لغزا يستعصى على أفهام المؤرخين المحدثين للأسف. ذاك أنه قلد دليله فى تجنب التعليق على الأحداث أو الحكم على القيم. وفى مقدورنا أن نفسر صمت أينهارد على النحو الذى يروق لنا. فأننا لا نعرف أفكاره عن موقف شارلمان من الكنيسة لأنه يصف تدين الامبراطور وتقواه فى مصطلحات كلاسيكية، ولا يضيف سوى كلمة «مسيحى» كصفة «للدين». وهنا سؤال يطرح نفسه؛ هل دفعه حبه للقديم إلى أن يجعل دين بطله قريبا من ديانة القياصرة بقدر ما يمكنه؟ أم أن هناك ما هو أكثر من ذلك؟ وهل استخدم اينهارد النموذج الذى اختاره لهدف أكثر إيجابية؟ أم انه اختار هذا النموذج باعتباره

واسطة يعبر من خلالها عن القيم البطولية العلمانية لكى يحط من قدر القيم المسيحية ؟

إن أهم دليل يجيب عن السؤال الثانى بالايجاب يبرز من ثنايا الرواية التى كتبها اينهارد عن تتويج شارلمان على يد البابا يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠[٣]. وقد تم استقراء أمور كثيرة من هذا الحادث. فأينهارد يجعل المبادرة للبابا ويصور شارلمان فى صورة من لا يرحب بقبول التاج. وتقول رواية أينهارد أنه أخذ بالمفاجأة وأنه لم يكن ليذهب إلى الكنيسة فى ذلك اليوم لو كان يعلم بما يدبره البابا. وربما يفهم من عبارة أينهارد هذه أن شارلمان كان يفضل الحصول على اللقب الامبراطورى دون أن يفيد رجال الكنيسة من ذلك، اعتقادا منه بأنه لا يليق بالفاتح العظيم أن يأخذ التاج من يد أحد

---

(٣) جاء تتويج شارلمان على يد البابا ليو الثالث Leo III سنة ٨٠٠ كآخر درجة فى سلم تصعيد البابوية لمحاولات تأكيد سيادتها على ملوك اوربا الغربية. وترجع الخيوط الأولى لهذه المحاولات إلى أيام النزاع الايقونى، ففى أواخر عشرينيات القرن الثامن حرم الامبراطور البيزنطى ليوالايسورى استخدام الصور والتماثيل (الايقونات) فى الكنائس على اعتبار أنها من مظاهر الوثنية وعبادة الأصنام. لكن البابوية اتخذت موقفا معارضا عنيفا من تصرفات الامبراطور، ولم تسلم بحقه فى التشريع لمثل هذه المسائل الدينية الهامة. ووجدت البابوية نفسها فى مأزق حقيقى آنذاك بسبب ضعف الملكية الميروفنجية من ناحية، ووجود الجيش البيزنطى فى إيطاليا على مقربة منها من ناحية أخرى. وحين طلبت البابوية فى سنة ٧٣٩ من شارل مارتل Charles Martel حمايتها من الامبراطور البيزنطى واللمبارديين رفض بسبب ما كان يواجهه من مشاكل داخل المملكة الفرنجية.

وفى سنة ٧٥١ حدث تحول خطير لصالح البابوية إذ طلب ببين الثالث Pepin III من البابوية مساعدته فى الحصول على التاج الفرنجى. فقد كان ببين يمتلك السلطة الفعلية من خلال منصبه كعمدة للقصر الملكى، بينما كان الملك الميروفنجى قد تحول إلى شخص لا قيمة له على الاطلاق، إذ كان الملوك الميروفنجيون قد جردوا من سلطاتهم وأملاكهم، بل كان الملك يركب عربة تجرها الثيران مثل أى فلاح، ولكنه كان مايزال يحتفظ باللقب الملكى الذى تحول التقاليد الفرنجية القوية دون استيلاء ببين عليه. ومن ثم لجأ إلى البابوية التى لم تبخل عليه بالاجابة المطلوبة. وتم ارتقاء ببين للعرش الفرنجى خلال احتفال دينى متقن وقام بونيفاس Boniface ـ بوصفه ممثلا للبابوية ـ بمسحه بالزيت المقدس بنفس طريقة ترسيم الاساقفة. وكانت هذه نقطة تحول هامة فى تاريخ البابوية وعلاقتها بالملكية، فقد كانت بمثابة اعتراف من ملك الفرنجة بسيادة البابوية على ملوك أوربا الغربية. هذا المبدأ الذى تمت صياغته فى أشهر عملية تزوير فى تاريخ العصور الوسطى فيما عرف باسم «هبة قنسطنطين Donatio Constantini» وبنهاية العقد السادس من القرن الثامن بات واضحا أن الامبراطورية قد حققت لنفسها الزعامة على غرب أوربا.

إلا أن الأعوام الثلاثين التالية جاءت رياحها بما لا تشتهيه سفن البابوية، إذ تأكد أن الزعامة الحقيقية فى يد شارلمان (٧٦٨ – ٨١٤) لا فى يد البابا. ولم يلق شارلمان بالا إلى «هبة قنسطنطين» أو «هبة ببين» التى كتبها أبوه اعترافا بفضل البابوية وتأكيدا لحقوقها. ولما كان شارلمان يمارس حقوقه كملك وقسيس rex et Sacerdos فقد التف حوله رجال الكنيسة الفرنجية. ولم يتبق للبابوية فى =

رجال الكنيسة. وربما لم يكن اللقب الامبراطورى يفيده فى شيء على الاطلاق. ذلك أن فتوحاته وأملاكه التى ورثها عن أسلافه أسبغت عليه من القوة والمجد ما يكفيه كملك، فما حاجته إذن للقب الامبراطورى؟ كما يخبرنا اينهارد أن لقبه الجديد سيكون حجر عثرة فى سبيل بناء علاقات طيبة مع البيزنطيين الذين كانوا يعارضون أى حاكم غربى يغتصب اللقب الذى اعتبروه وقفا عليهم. وكل ما يمكننا أن نقوله عن موقف اينهارد دون خشية أو تردد هو أنه اختار للسيرة التى يكتبها نموذجا علمانيا أخذه عن سويتونيوس ولم يبذل أية محاولة لصبغها بالصبغة الكنسية. أما مسألة مدى علمانية قيمه، فهى مسألة تختلف فيها الآراء. كما أنه يصعب علنا أن نحدد إلى أى مدى كانت قيمه انعكاسا لقيم شارلمان. إذ أننا لا نعرف ما إذا كان شارلمان قد ائتمنه على أسراره أم لا.

هذا الكتاب اللغز كان له تأثيره على التراجم التى كتبت فيما بعد، ولكن طبيعة هذا الكتاب فى حد ذاته وقفت حائلا دون تقليد التراجم اللاحقة له تقليدا حرفيا. فقد كان خلفاء اينهارد من القساوسة لا من العلمانيين، ولذا كانت رؤيتهم للأمور أقل علمانية. كما أن موضوعهم قد اختلف ايضا. فلم يكن ثمة شارلمان آخر، فضلا عن أن رجال الكنيسة وسعوا من نطاق تدخلهم فى الشئون السياسية بعد موته. ولم يؤد انهيار

= ترسانتها الروحية سوى سلاح وحيد هو أحقية البابا فى منح اللقب الامبراطورى أو منعه. وبدأ البابا يستعد لنقل هذا اللقب من القسطنطينية إلى المملكة الكارولنجية، فقد كانت هذه هى الوسيلة الوحيدة لتأكيد سيادة البابوية.

وحدث قرب نهاية القرن الثامن ان اضطر ليو الثالث إلى الفرار هربا من وجه الايطاليون الذين نسبوا إليه عدة تهم وعبر جبال الألب ليستنجد بشارلمان حامى الرومان Patricius Romanorum الذى أرسل البابا فى حراسة مسلحة إلى روما ثم لحق به حيث عقد محاكمة على النمط الجرمانى برئاسته وتمت تبرئة البابا مما نسب إليه. وهوما يعنى أن البابا صار مدينا بوظيفته لشارلمان. بيد أن البابا كان قد قرر أن يمضى فى الشوط إلى مداه. فانتهز فرصة ركوع شارلمان أمام مقبرة القديس بطرس ووضع التاج على رأسه فجاة، وصاح الحاضرون من رجال الكنيسة والعلمانيين صيحة كانوا قد تدربوا عليها جيدا: «شارل أوغسطس. امبراطور الرومان. عظيما مانحا للسلام. له الحياة والنصر».

انظر: Einhard, pp. 80–82; Cantor, Med. Hist., pp. 191–9

Margaret Deanesly, A hist., of the Med. Church, pp. 64–5
Barraclough, The Med. Papacy, pp. 52–5.

انظر ايضا: فيشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى (ترجمة زيادة والعرينى، الطبعة الخامسة، دار المعارف) ص ٨٤ ـ ص ٩٠ وكذلك سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، ٣ج ١، ص ١٩٢ ـص ١٩٦. (المترجم)

امبراطوريته إلى ذلك النوع من التفكك المستحسن الذى وجده اينهارد فى «سير القياصرة» التى كتبها سويتونيوس.

ذلك أن الانهيار قد حدث بسرعة، كما أن حياة «لويس التقى» ابن شارلمان تثير الشفقة لا المديح والثناء؛ فقد تركت مشاكله ومتاعبه وما لقيه من إذلال وتحقير مسحة من الحزن على صفحات تاريخه. وكان ثيجان Thegan ، أول من كتب تاريخه، مساعدا لاسقف تريبه Trier كما كان شريكا قويا للويس. وقد اغفل ثيجان الاطار الذى وضعه سويتونيوس لكتابة التراجم واتخذ لنفسه صيغة قصصية يمكن من خلالها تقديم العرض الدرامى. وبدلا من أن يتجنب لغة الكتاب المقدس، كما فعل اينهارد، تمرغ فى تعبيرات هذا الكتاب. فالنص اللاتينى للعهد القديم حافل بمجموعة من الكلمات التى لا تبارى فى التعبير عن مشاعر الحزن والغيظ، واستغل ثيجان هذا النص إلى أقصى حد، وبدلا من أن يبقى هو فى الخلفية كما فعل اينهارد، يبدو حضوره واضحا فيما يسوقه من عبارات التعجب والابتهال. وقد راقه تدين لويس باعتباره من رجال الكنيسة. واسهب ثيجان فى وصف موقف الامبراطور المخزى أمام الباب، كما أطنب فى الحديث عن التزامه الاخلاقى. إذ كان لويس أكثر تزمتا وتدينا من أبيه، فهو لم يضحك أو يظهر أسنانه البيضاء من خلال ابتسامة حتى فى أيام الأعياد، عندما كان كل من حوله يستمتعون بالموسيقى ومشاهد التمثيل. وأدى السؤال عما إذا كان ينبغى أن يقاسى مثل هذا المسيحى الطيب المصائب والكوارث، إلى أن طرق ثيجان باب التحليل التاريخى. واخذ يهتم بالبحث عن السبب الانسانى والسياسى فى الظاهرة التاريخية. وانتهى إلى أن الامبراطور اختار مستشاريه من الاشرار ذوى الأصل الوضيع فخانوه. لقد حارب لويس مبدأ الهيراركية (تدرج المرتب فى النظام الكنسى). على حين اعتبر ثيجان أن عظماء الرجال هم المستشارون الطبيعيون لأى حاكم.

وقد اتضح التناقض بين اينهارد وثيجان أمام عينى معاصرهما «ولفريد سترابو Walafrid Strabo» فهو الذى نشر «حياة شارلمان» وكتب لها مقدمة أثنى فيها على تعليم اينهارد وشخصيته وحصافته السياسية، وهى الصفات التى جعلته كاتبا ثقة. ويتلمس سترابو العذر لثيجان فى أن كتابته أقل من مستواها من كتابة اينهارد، كما يحاول تبرير هذا: إذ يرى أن ثيجان لم يكن لديه الوقت الكافى للكتابة نظرا لكثرة مشاغله كأسقف، كما أن حبه للعدالة ومشاركته للويس جعلته يبدو مبالغا؛ أما اينهارد فإنه كتب «ترجمة» رشيقة الأسلوب وجديرة بالثقة.

وثمة معاصر لثيجان ولكنه اصغر عمرا كتب «ترجمة» أخرى للويس التقى. فقد توقف كتاب ثيجان قبيل موت الامبراطور سنة ٨٤٠. ووصل المؤلف الثانى بكتابه إلى العصر الذى يعيش فيه، وقد كتب تحت اسم مجهول وكل مانعرفه عنه أنه كان قسيسا

وواحدا من أفراد الحاشية. ويسميه المؤرخون المحدثون «الفلكى Astronomer» لاهتمامه بالكواكب والنجوم. ويضعه منهجه ككاتب تراجم فى منتصف الطريق بين اينهارد وثيجان. فهو يحذو حذو اينهارد فى قلة اقتباسه من الكتاب المقدس. كما أن قيمه كانت أكثر علمانية من قيم ثيجان؛ ذلك أنه يستنكر هوان الامبراطور فى تبجيله للبابا. بيد أنه كان موزعا بين طريقين. فقد تخلى عن طريقة اينهارد فى بناء الترجمة واختار للترجمة التى يكتبها صيغة قصصية فى أساسها. كما أنه يورط نفسه أحيانا فى المحسنات البديعية مما يعكر صفاء لغته ونقاءها. فالشيطان ـ تلك الشخصية التى لم تعرفها الآداب الكلاسيكية ـ يتسرب إلى ثنايا قصته لكى يحرض أبناء لويس على الثورة ضد أبيهم.

وهناك كاتب تراجم آخر فى العصور الوسطى حاول تقليد اينهارد، هو آسير Asser أسقف شيربورن Sherborne الذى اتخذ «حياة شارلمان» نموذجا نسج على منواله «حياة الملك الفرد» (٨٩٣) إلا أنه لم ينجح فى ذلك. فقد تسرب تأثير «سير القديسين» إلى كتابه لأنه حاول تصوير الملك الانجليزى فى صورة الرجل المقدس. كانت الناحية القصصية عند اينهارد غاية فى الجفاف، وأراد آسير أن يسبغ عليها مزيدا من القدسية وأن يجعلها أكثر مدعاة للشفقة. ويقول آسير إن الفرد مثل شارلمان تعلم الكتابة فى اواسط عمره، بهدف تعليم شعبه بعد نهاية الحروب الدانمركية. وهذه المقارنة التى تحمل بصمات الكتاب المقدس تضفى مسحة من الرزانة على قصة الفرد فى سبيل التعليم والقراءة. ويشبه آسير «باللص التائب» الذى شملته رحمة المسيح، ثم نعم بمسرات الفردوس فى وقت متأخر. وهو يفرض نفسه على الترجمة التى كتبها والصورة التى يرسمها على نحو ما فعل ثيجان تماما. اذ يحكى لنا كيف أنه شجع الفرد على القراءة وعلى جمع ما يلزم «لكتابه التافه» وتعلو فى سياق قصة «آسير» تلك النغمة التى تشى بالحماية التى يبسطها رجل الكنيسة إذا ما تحدث عن أحد العلمانيين، حتى ولو كان رجلا موهوبا تقيا مثل الفرد. وكانت نتيجة هذا أن أخرج لنا عملا مختلفا تماما عن «حياة شارلمان».

ومن حسن طالع كتابة التراجم أن اينهارد ضلل مقلديه. فلم يكن بوسع القسيس ان يكتب مثلما يكتب المؤلف العلمانى، ولا أن يضحى بالدراما وعامل الاثارة بالتخلى عن السرد القصصى والتعليقات العاطفية، ولما لم يكن بوسع المؤلف أن ينسخ ويقلد، تعين عليه أن يبتكر. وهو ما يعنى أن مقلدى اينهارد قد اضطروا إلى أن يكونوا مبدعين.

وكاتب التراجم التالى الذى نقدمه، لم يفكر نهائيا فى اينهارد. فقد كتب **هيلجالد**

Helgad الذى كان راهبا فى دير فليرى Fleury على نهر اللوار Loire، قصة حياة الملك الفرنسى «روبير التقى» عقب موته سنة ١٠٣١. وقد قلد هيلجالد سير القديسين فى صياغة كتابه الذى كان مفروضا أن يقرأ بصوت عال فى المحافل الدينية للحض على الفضيلة. وفى هذا الكتاب يبدو «روبير» فى صورة ملك مسيحى مثالى. إذ أنه يقوم ـبما تميز به من تواضع ورحمة وحسن عقيدةـ بالدفاع عن الكنيسة والشعب وحمايتهما ضد الأشرار. كما كانت فضائله عظيمة بدرجة جعلته جديرا بأن تتم المعجزات على يديه. وقد حصن هيلجالد نفسه ضد النقد بأن سمى كتابه «الخلاصة»؛ لأنه لم يرو كل شيء. إذ كان يسمح لنفسه بحذف مالا يروقه. فقد أغفل التاريخ السياسى والعسكرى تماما. فملوك آل كابيه الأوائل فى فرنسا لم يفعلوا شيئا سوى الحفاظ على عروشهم. كما أن روبير لم يكن ملكا فاتحا، فضلا عن أن صحة عقيدته فى حاجة إلى إعادة النظر والتمحيص. ولم يذكر هيلجالد شيئا عن متاعب الملك الزوجية أو عن قرار الحرمان الذى وقعه البابا عليه.

ثم يظهر سويتونيوس واينهارد فجأة فى سياق الكتاب. فقد لجأ هيلجالد إليهما لسد الفجوة التى لاحظ وجودها فى سير القديسين التى ترسم صورا مسطحة خالية من عناصر الاثارة والتشويق. لقد زار هيلجالد البلاط فى زيارة عمل لصالح ديره، وقابل روبير شخصيا، وهو يستعين بذاكرته فى الوصف الحى لخصائص روبير الجسمانية. بل إنه يحكى لنا كيف كان الملك يمتطى جواده. وهنا تبرز الصورة التى رسمها باعتبارها نصرا للملاحظة داخل إطار تقليدى.

لقد كانت الامبراطورية تقدم لكتاب التراجم مادة أوفر من تلك التى كانت الملكية الفرنسية فى القرن الحادى عشر تقدمها لهم. إذ أن حدودها كانت أرحب، لأن الامبراطور الألمانى كان يحكم دوقيات اللورين وجزءا من لمبارديا وبرجنديا، كما كان يبسط حمايته على البابوية. وكانت الشعوب التى تعيش على حدوده الشرقية خاضعة لنفوذه بدرجة أو بأخرى. ولدينا ترجمة كتبها قسيس البلاط فيبو Wipo للامبراطور كونراد الثانى Conrad II سنة ١٠٤٦. وقد كرسها فيبو لهنرى الثالث ابن كونراد. وكان هدف الترجمة أن يعيد احياء التدوين التاريخى الامبراطورى الرسمى الذى كان قد انهار خلال سنى حياته. وكان المفروض أن يقدم كتابه المسمى «حياة كونراد» تقريرا لهنرى الثالث عن سياسة أبيه وحملاته العسكرية. بل إن فيبو كان يخطط على أساس أن يكتب سجلا لأعمال هنرى حتى يفيد منها كتاب التراجم اللاحقون. ولأن فيبو كان قسيسا فى بلاط كونراد، فإنه استطاع أن يكتب كشاهد عيان، إذ كانت أمامه فرص طيبة للملاحظة وجمع المعلومات من مصادرها الأصلية. وفى بعض الأحداث كان المرض يقصيه عن البلاد، ولكنه يخبرنا بذلك بقوله إنه اعتمد على مصادر موثوق بها.

وكان لفيبو هدف دينى مثل هيلجالد، بيد أنه كان أكثر منه طموحا. فقد صاغ هيلجالد كتابه «حياة الملك روبير» على نسق سيرة أحد القديسين، كما انه اغترف من طبق اينهارد لكى يجعله أكثر اثارة. أما فيبو، الذى كان يشعر بأهمية موضوعه، فقد جند المديح الكلاسيكى للحاكم فى خدمة هدفه كمبشر وواعظ. ففى رايه أن كونراد جدير بالمديح والثناء: ذلك انه أحرز الانتصارات على أعدائه، كما أخمد حركات التمرد والعصيان. وقد زعم فيبو أن الأعمال المجيدة لأى حاكم مسيحى حقيقة بأن يبشر بها ويثنى عليها، لقد كانت أعمال الأبطال الوثنيين محل احتفال وثناء، كذلك لقيت أعمال ملوك بنى اسرائيل الحفاوة والمديح. فيالها من بلادة لاتغتفر أن نهمل قصص الملوك والأباطرة المسيحيين! واهتم كونراد بالصالح العام، كما أنه أدى مهمته على نحو بلغ من جودته أن سبّب موته حزنا عاما لم يسمع عند موت أى امبراطور قبله. ويخلص فيبو من هذا إلى أن كاتب الترجمة مبشر بالانجيل أيضا فيقول:

«إن ملوكنا الكاثوليك المدافعين عن العقيدة يحكمون دون خشية الخطا، طالما انهم يحافظون على قانون المسيح وعلى السلام الذى اودعنا اياه فى انجيله. ومن ثم فإن الترويج لاعمالهم الطيبة عن طريق الكتابة لايقل عن التبشير بانجيل المسيح».

إلا أنه استدرك بقوله إن أعمال الحكام السيئة تستحق التسجيل على سبيل التحذير.

ومما يؤخذ على فيبو أن معلوماته كانت فى حاجة إلى بعض المراجعة مثل هيلجالد. فقد كان تعاطف كونراد تجاه الكنيسة أقل من تعاطف أسلافه من الأباطرة السكسون. بيد أنه يحق لكاتب ترجمته أن يفخر بأن «ترجمته» قد ارتقت مثل هذا المستوى العالى. فقد كان فيبو يكتب بجدية. كما كان يتجنب التفاصيل التى اعتبرها غير ذات قيمة؛ فليس ثمة ثرثرة أو استطراد رغم أنه أورد بعض القصص عن خصائص سلوك كونراد لابراز أخلاقياته. وبرهن على أنه باستطاعة كاتب الترجمة الملكية أن يضيف من لدنه إلى سير القديسين التى كانت بمثابة امتداد للكتاب المقدس.

ولو أن كاتب سيرة هنرى الثالث قد وجد المثال الذى يحتذيه، فربما كانت «سيرة كونراد» هى هذا المثال. وكانت هذه الترجمة غير ذات جدوى بالنسبة لكاتب ترجمة هنرى الرابع حفيد كونراد. إذ كان عهد هنرى هذا متناقضا مع عهدى أبيه وجده من جميع الوجوه. فقد مات أبوه وهو بعد طفل. وقد جلبت عليه المتاعب التى واجهها فى حداثته مأساة شخصية، كما جلبت الكارثة على الامبراطورية أيضا. فقد تمرد عليه بناؤه. كما كانت انتصاراته هشة. وبينما كان باستطاعة كاتبى ترجمة لويس التقى

أن يركزا على حقيقة أن لويس، رغم كل ما صادفه من عثرات، ظل على الدوام ابنا وفيا للكنيسة، فإن هنرى الرابع، على عكس ذلك، تعرض للحرمان الكنسى والطرد من رحمة الكنيسة على يد البابا جريجورى السابع. لقد سمح هنرى لنفسه أن يتوج بيدى البابا الذى عينه بعد أن طرد جريجورى من روما. بيد أن تلك كانت آخر أوراقه، ذلك أن البابا المضاد الذى عينه لم يكن سوى القائد الكنسى لحزب الامبراطور. ورغم أن النهاية العادية لحكم أى امبراطور تتمثل فى التتويج المجيد لابنه ووريثه، فإن وريث هنرى كان متمردا حين مات الامبراطور المسن، الذى جاء الموت راحة له فى خضم المصائب التى أحدقت به.

ولا بد أن الأمر تطلب قدرا كبيرا من الشجاعة لكتابة «حياة هنرى الرابع». إذ لم يكن لدى المؤلف أية سوابق يهتدى بها فى عمله. ولم يكن بمقدوره أن يقدمه فى صورة الفاتح، أو الشخص المقدس، أو حتى الرجل الحكيم. لأن سياسته آلت إلى الفشل. وأيا كان حجم الكتاب فإنه لم يكن كافيا لقولبة المعلومات التى جمعها الكاتب فى النموذج الذى أعده لكتابه. فضلا عن أن ذلك لم يكن ليحسن صورة هنرى بحيث يمكن تقديمه فى صورة الضحية التى قضت عليها مؤامرة حاكها البابا. لأن ذلك كان سيؤدى ضمنا إلى تعتيم صورة جريجورى السابع. لقد جلب جريجورى السابع على نفسه عداوة الكثيرين، ولكن خليفته أوربان الثانى Urban II كان أكثر منه حنكة فى النواحى السياسية، بحيث أن الرأى العام تحول إلى الجانب البابوى مرة أخرى فى الوقت الذى مات فيه هنرى الرابع سنة ١١٠٦. وكان لا بد من تناول مشكلة التقليد العلمانى(٤). بشكل حذر.

---

(٤) مشكلة التقليد العلمانى تجسيد للصراع بين الملكية والبابوية على تبوأ المكانة العليا فى غرب اوربا فى العصور الوسطى. إذ كان الحكام العلمانيون يرون ان من حقهم تعيين رجال الدين فى الوظائف الكنسية داخل أراضيهم باعتبار ان هذا حق موروث. بينما تمسك البابوات بمبدأ سمو «نائب المسيح وخليفة القديس بطرس» على الحكام العلمانيين، وبالتالى رفضوا حق الملوك فى تعيين رجال الدين او التقليد العلمانى.

وقد تفجرت المرحلة الأولى من هذا الصراع بين الملكية والبابوية فى الربع الأخير من القرن الحادى عشر لتستمر على مدى خمسين عاما فى المانيا، ثم تنتقل إلى انجلترا. ففى ذلك الحين اندلع الصراع بين الامبراطور الألمانى هنرى الرابع Henry IV والبابا جريجورى السابع Gregory VII ولنبدأ القصة من اولها.

فى سنة ١٠٧٥ كان هنرى الرابع قد اصبح اقوى حاكم فى غرب اوربا بعد انتصاره الساحق على السكسون، وبدا وكأن زعامة غرب أوربا قد صارت من نصيبه، بيد أن الراهب هيلدبراند الذى كان قد اعتلى عرش القديس بطرس تحت اسم البابا جريجورى السابع ألقى القفاز فى وجه هنرى الرابع مما جره إلى ميدان الصراع ضد البابوية، فلم يكن الامبراطور غافلا عما حدث فى روما ابان انتخاب جريجورى ولكنه آثر أن يترك الشئون الايطالية ريثما يتفرغ لها، ولكن «الشيطان المقدس» =

= (جريجورى) لم يشأ إلا أن يتحدى الامبراطور بقراره ضد التقليد العلمانى، وتهديد هنرى بالعزل إذا لم يمتثل.

ويرى بعض الباحثين ان هذا التصرف من قبل البابا يكشف عن ان البابوية لم تعد ترى فى «هبة قنسطنطين» ما يكفى لتحقيق زعامة البابوية وسيادتها على غرب أوربا بالشكل الذى يرضى جريجورى ومعاونيه. ذلك أن هذه الوثيقة يمكن أن تفسر لصالح الامبراطورية، إذ ان الدراسة المتأنية لنصوصها توضح أن الامبراطور هو الذى يمنح السلطة للبابوية على الكنائس الاخرى، وكأنه يضع التاج الامبروطورى على مفرق البابوية بنفسه. ولم يكن جريجورى السابع ليقنع بهذا المركز للبابوية. وتكشف رسائله عن مكانة البابا كزعيم للعالم المسيحى بتفويض، او هبة، من المسيح نفسه وليس من اى حاكم علمانى.

وأيا كانت دوافع جريجورى السابع لهذا التصرف فإن هنرى الرابع رأى فى حرمانه من حق تعيين رجال الدين ما يهدد نظام الحكم فى مملكته. وكان طبيعيا أن يتصدى لهذا التصرف البابوى فى حزم. واتخذ الصراع لنفسه ميدانا فى إيطاليا حيث تنافس كل من البابا والامبراطور حول تأكيد حقه فى تعيين اساقفة بعض الاسقفيات الشاغرة. وتمثلت الخطوة التالية فى تصعيد الصراع بأن عزل كل منهما الآخر، فضلا عن قرار الحرمان الذى وقعه البابا على الامبراطور. ولم يكن جريجورى السابع يخشى الجيش الامبراطورى بفضل حلفاء البابوية الأقوياء فى ايطاليا (ماتيلدا ملكة تسكانا، والنورمان). ثم تحرج موقف هنرى الرابع بثورة أمراء المانيا وأساقفتها عليه وفرض الاقامة الاجبارية بأحد الأديرة عليه، وانذاره بالخلع من عرشه وتعيين ملك آخر إذا لم يصدر قرار العفو البابوى عنه قبل فبراير سنة ١٠٧٧.

ولم يجد هنرى الرابع بدا من الاستسلام. فذهب إلى البابا الذى كان قد احتمى بقلعة كانوسا Canossa. وتشكل الأحداث التى جرت بهذه القلعة الجبلية واحدا من أعظم المشاهد الدرامية فى التاريخ الأوربى. فقد ظل الامبراطور التعس واقفا يعانى الاذلال والبرد القارص ثلاثة أيام حتى سمح له البابا بالمثول بين يديه، ثم غفر له بشكل مهين. وهكذا استرد الامبراطور عرشه بعد أن فقد كرامته وهيبته. بيد أن أحداث كانوسا، من ناحية أخرى لم تكن مكسبا للبابوية، إذ أثار مسلك جريجورى السابع العنيف استياء المعاصرين كما تأجج فى نفوسهم التساؤل حول النوايا الطيبة والمستوى الاخلاقى للبابوية، وهو التساؤل الذى بذر بذور الشك حول البابوية، وهى البذور التى نمت سريعا إبان القرن التالى.

ووقفت معظم المانيا - باستثناء السكسون - بجانب هنرى ضد رودلف ملك سوابيا الذى تم تعيينه بدلا منه. وأعلن البابا تأييده للملك الجديد وأعاد فرض قرار الحرمان على هنرى الرابع. بيد أن الرياح جاءت بما لا تشتهيه السفن البابوية. إذ مات رودلف. ولم تسمح ظروف ماتيلدا ملكة تسكانيا والنورمان بحماية البابا ثم سقطت روما فى أيدى قوات هنرى الرابع حيث تم تعيين البابا الجديد كليمنت الثالث. واستنجد جريجورى بالنورمان الذين اقتحموا المدينة الخالدة سنة ١٠٨٤. وانشبوا فيها مخالب النهب والتدمير مما فرض عليه أن يرحل معهم عنها حيث مات مريضا فى سالرنو سنة ١٠٨٥. على أن موته لم ينه هذه المشكلة التى ظلت قائمة ردحا طويلا من الزمان: انظر:

= Cantor, Med. H'st pp. 293 304, 312-16.

وثمة كاتب مجهول أخذ على عاتقه مهمة تبرير تصرفات الامبراطور. وكل مانعرفه عن هذا الكاتب المجهول أنه كان يعيش فى فلك الامبراطور. قرب نهاية حكمه، وأنه كتب مؤلفه هذا بعد موت هنرى الرابع مباشرة، وكان على معرفة جيدة بالكلاسيكيات اللاتينية وبالكتاب المقدس، وبسير القديسين، ومن ثم فمن المحتمل أنه كان قسيسا. والسيرة التى كتبها تأخذ شكل مرثية جنائزية. إذ أن شعب هنرى قد ارتدى ملابس الحداد حزنا عليه وتعبيرا عن تعاطفهم معه فى السراء والضراء. ويطلق الكاتب لمشاعره العنان لكى يهدىء من سورة حزنه على سيده. فقد تمرغ الشرف الامبراطورى تحت الأقدام، ذلك الشرف الذى بلغ مكانة سامية فى عهود أسلاف هنرى. وهو أمر يدعو إلى الحزن والأسى. فلماذا حدث؟. يرى المؤلف المجهول أن ماحدث ليس نتيجة لخطايا هنرى، صحيح أنه انغمس فى لهو الشباب وعبثه، ولكنه تاب إلى حياة الفضيلة فيما بعد. ووجد المؤلف السبب التاريخى لما حدث فى المتاعب التى واجهت هنرى قبل أن يبلغ سن الرشد، وفى التدهور الداخلى الذى كان قد بدأ فى مملكته. كما أن الرجال الأقوياء معتادون على الشد والجذب، ولا يلائمهم السلام وما فيه من دعة لأنه يحد من طموحهم؛ ومن ثم فهم لايركنون إلى حياة السلم طويلا. ولذا فقد تفجر العصيان ضد هنرى بمجرد أن أرسى دعائم القانون والنظام. فضلا عن أن هناك سببا انسانيا يفسر لنا تمرد أبناء هنرى عليه، وهو أن أعداءه قد أغروهم بما بذلوه من وعود كما لعبوا على أوتار المواجهة بين الشباب والمسنين.

وقد غاص المؤلف المجهول فى أغوار مشكلة السببية لمسافة أبعد مما وصل اليها ثيجان فى كتابه «حياة لويس التقى» ويود المؤرخون المحدثون لو أنهم تعمقوا أكثر من ذلك فى سبيل الكشف عن أسباب تدهور السياسة الألمانية خلال سنى حداثة هنرى، بيد أن الكتاب يتوقف بهم عند مجرد التخمين، وقد مارس كاتب ترجمته قدرا ضئيلا من الخداع بابراز الأعمال القليلة الناجحة التى أتاها هنرى. كما صور توبته فى كانوسا كما لو كانت انقلابا سياسيا، فقد سبق أعداءه بالحيلة وذهب إلى جريجورى لينال عفوه، واستبدال اللعنة بالبركة، ثم عاد إلى ألمانيا ليسحق المتمردين. ومن المؤكد أن هذه كانت حركة بارعة من هنرى، رغم أنها لم تكن ناجحة بالقدر الذى يصوره المؤلف المجهول. فمازال السبب فى أن هنرى لم يستطع أن يستمتع بانتصاراته قط خافيا. إذ لازم النحس والهزيمة خطواته. وقد هون المؤلف المجهول من سياسة هنرى

= أيضا سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ٣ج١، ص٣٣٨ ـ ص ٣٩٤، كذلك انظر لمزيد من التفاصيل:

Southern, Western Society, pp. 100-106; Margaret Deanesly A hist of the Med, Church, pp. 98-103; Barraclough, The Med. Papacy, pp. 77-93.

(المترجم)

المعادية للبابوية ولم ينتقد البابا جريجورى السابع بشكل مباشر. وتولت «عجلة الحظ» الاجابة عن السؤال المشكلة. إذ أن الحظ حول هزائم هنرى إلى انتصارات، ولكن ربة الحظ لم تلبث أن ألقت به كسير الفؤاد. ويطرح العلماء الألمان آراءهم عن دور الحظ فى كتاب «حياة هنرى الرابع». ففى رأيهم أنه يمكن تفسير دور الحظ على أساس أنه يقدم لنا رؤية شاملة للتاريخ. إذ أن الصورة التى رسمها بوئيثـوس للربـة المتقلبة ارتبطت بالمفهوم السائد فى بلاد الشمال، والذى يعتبر أن الحظ مرتبط برئيس القبيلة الذى كانت هزيمته تفسر على أنها سوء حظ الناس جميعا. أما مشاكل هنرى فكانت تبدو فظيعة فى نظره هو وحده. وثمة رأى آخر اقل تطرفا يرى أن المؤلف المجهول لجأ إلى الحظ كسبب ثانوى، لأنه لم يقصد أن يؤلف كتابه فى الموضوع، كما أن كتابـه لا يلقى الضوء على دور الحظ أو يبينه. بل إنه، على العكس، يستخدم الحظ بشكل مبسط لكى يضفى مسحة درامية على ماقد يبدو تاريخا للصراعات العنيفة والاقتتال الذى لاينتهى، ولكى يستثير شفقة القراء وتعاطفهم. كما أنه يزيـد من إحساسنـا بالمأساة، وأنا أميل إلى الرأى الثانى. إلا أن المؤلف المجهول كان فنانا على أية حال، إذ أنه حقق لهنرى سمعة طيبة، ورغم أنه لم يخطط لكتابة تاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة، إلا أنه أمعن التفكير والتأمل فى مشاكل السببية.

كانت للملكات تراجمهن أيضا. وأكثر هذه التراجم إشراقا هى «الثناء على الملكة إيما». وكلمة «ثناء» أو «مديح» عنوان مستحدث للكتاب، ولكنه يعبر عن قصد المؤلف فى مديح الملكة. وإيما Emma هى أرملة الملك ايثيلريد Aethelred، ثم زوجـة الملك الدانمركى كنوت Cnut. وقد كلفت أحد الكتاب ـ ربما كان قسيسا فى كنيسة سان أومير St. Omer أو راهبا فى دير سان برتين St. Bertin المجاور ـ بكتابة مديح لها ولعائلتها. وكان والد إيما دوق نورماندى، كما أنها أمضت ثلاث سنوات من عمرها فى إقليم فلاندرز. ولما كانت تعرف أن كنيسة سان أومير تمتلك تراثا أدبيا، فقد رأت أن أى راهب أو قسيس فيها سيكون طويل الباع فى مجال الدعاية. وهناك فى حياتها الكثير مما يشكل عقبة فى سبيل من يرد أن يكتب مديحا لها، لا سيما إذا كان سيكتب عن حياتها إبان الفترة من ١٠٤٠ إلى ١٠٤٢. إذ كان من الواجب أن تتحلى الملكة بفضائل المرأة؛ وذلك بأن تكون زوجة محبوبة وأما عطوفة. ولكن إيما كانت قد تزوجت مرتين، وكان زوجها الثانى عدوا لزوجها الأول. وكجزء من الصفقة، وافقت على أن يتنازل أولادها من ايثيلريد عن مطالبهم فى التاج الانجليزى للأبناء الذين تنجبهم من كنوت. وبات واضحا أنها تتجاهل أولادها من الملك الانجليزى فى سبيل مصلحتها الخاصة. والواقع أن فرصتهم فى العرش كانت ضئيلة على أية حال.

وقد تجاهل المؤلف المجهول أى ذكر لزواج إيما الأول. وحاول أن يوهمنا أنها لم تكن

أرملة حين اتخذها كنوت عروسا له، وأن أبناءها من ايثيلريد كانوا أصغر من أبنائها من الزواج الثانى، وأن هذا هو السبب فى أنهم لم يطالبوا بأية حقوق تجاه أبناء كنوت. ولما كان من المتوقع أن يعرف الحقيقة عدد كبير من القـراء، فقد استخـدم المؤلف المجهول كلمات حريصة اختارها بحذق بحيث لا يستطيع أحد أن يمسك عليه كذبة مختلقة. واستخدم نفس هذا الأسلوب الفنى لتشويه الحقائق فى أجزاء أخرى من كتابه. وهو يكرر ذكر «الكليشيه» الذى وضعه فى المقدمة من أن «**على المؤرخ أن يقول الحقيقة**»، ثم يفسر هذه العبارة ببراعة بأنها تعنى «**لا شىء غير الحقيقة**» ورغم أنها «**ليست الحقيقة الكاملة**». وحين لا يكون لديه ما يدعو إلى التضليل يقدم لنا صورة صحيحة وكاملة عن الانجليز وبلادهم فى نطاق إمكانياته كرجل أجنبى يعتمد عـلى ما يسمعه من الآخرين.

أما إيما نفسها فتختفى خلف سحابة من الاستعارات والكنايات البلاغية، ولكن المؤلف الذى مدحها استطاع أن يكتب فى أسلوب ينبض بالحيوية عن مشـاهداتـه الشخصيـة، مثال ذلـك ما كتبـه عن كرم كنـوت وتقواه الـواضحين إبـان زيارتـه لسان اومير. وصوره الشهيرة التى وصف بها المشاهد البحرية مستقاة من قراءاته لفرجيل من ناحية، ومن قدرته على الابداع الخيالى من جهة أخرى. وربما يكون قد سمع وصفا لأساطيل الفيكنج، رغم أنه من المحتمل الا يكون قد رأى واحدا منها. فقد استولت على خياله. وثمة صورتان عن أساطيل الفيكنج التى تبهر العين بمقدماتها المذهبة وأسطحها الملونة تتألقان بين صفحات كتابه، كما تبرز من بين السطور تلك الكائنات الخرافية، والدرافيل المحفورة على مقدمة السفينة، والتنين والعجـول التى تبدو كما لو كانت حقيقـة، وراية الغـراب السحريـة التى ترفـرف على الأسـاطيل الدانمركية. كلها تشى بقراءاته حول هذه الموضوعات.

وفى كتاب «حياة لويس السمين» الذى كتبه **سوجير Suger** مقدم دير سان دينيس (ت ١١٥١)، تختفى الدراما، والخيال، والكتابة المتألقة. ونجد أنفسنا أمام تـرجمة مملة ورتيبة تركزت على مسرح صغير هو جزيرة فـرنسا Ile - de - France. كـانت حسنات لويس السادس (١١٠٨ ـ ١١٣٧) أكثر من حسنات روبير التقى، إذ أنه كان ملكا من الدرجة الثانية. ويتمثل عمله الرئيسى لصالح الملكية الفرنسية فى إخماد التمرد الذى قام به البارونات. على حين فشلت سياسته فى نورماندى والفلاندرز. وعلى أية حال، كان سوجير داعية نابغة، إذ أنه لوح بعصاه السحرية، وإذا بالبيرة التـافهة تتحول إلى شمبانيا فوارة. وجاء السحر ببركة سان دينيس الذى يبسط حمايته على دير سوجير وعلى الأسرة المالكة فى فرنسا. وكان سوجير رجلا عظيم الهمة، إذ كان يدير أراضى الدير بكفاءة عالية، ويشيد الكنائس ويزينها كما كان بمثابة الساعد الأيمن

للملك. وركز فى كتابه على دور لويس فى حماية الكنيسة وحمل راية سان دينيس. وقد أظهر الملك إخلاصه لدينيس منذ نعومة أظفاره على عكس أبيه فيليب الأول الذى كان يشعر أنه غير جدير بهذا الشرف. وقد وجد سوجير مكانا له، إذ تنتهى قصة حياته بدفنه هناك.

ويستمد سوجير تأثيره من صراحته وليس من مبالغته. فما هو الداعى لأن يلفق للويس صورة قديس؟ كان يكفى أنه حارب من أجل سان دينيس، وأظهر مدى ما يتحمله الملك من مشاق فى سبيل حماية شعبه من الأعداء. ويبالغ سوجير حين يزعم أن لويس لم يفشل بسبب غروره قط؛ إلا أنه يقول على لسانه فى أواخر عهده أنه كان بوسعه أن يحقق من الانجازات أكثر مما حقق. وقد واجه الامتحان الأكبر سنة ١١٢٤ حين لوح الملك الألمانى هنرى الرابع مهددا بغزو فرنسا. فدعى لويس أفصاله الاقطاعيين إلى الاجتماع لكى يتبعوه للدفاع عن المملكة. ولكنهم -وقد شعروا بمدى ضعفه- سلكوا مسلكا غريبا، ذلك أن معظمهم لم يلب الدعوة أو يكلف خاطره مشقة الاعتذار. وعاد الملك بخفى حنين. ويبدو من المصادر الألمانية أنه كان يخطط لشن غارة تأديبية، ولم يكن يخطط لغزو واسع النطاق، كما تكشف هذه المصادر عن أن تمردا نشب فى مؤخرة جيشه مما جعله يتقهقر. ولكن سوجير يصور الأمر على أنه انتصار رائع للفرنسيين على الألمان. إذ انتصر سان دينيس فى شخص الملك لويس. كما أن سوجير قد شارك فى هذا النصر باعتباره مقدم دير سان دينيس، ومستشار الملك وكاتب ترجمته.

ويمكن أن نرى الاستمرارية واضحة فى هذه السلسلة المتتابعة من التراجم الملكية. ففى المحل الأول، ليست هناك ترجمة واحدة بينها أخذت على عاتقها مهمة عرض الحقائق والتواريخ: إذ لم تكن هذه المسألة واردة على الاطلاق. إلا أن سوجير الواقعى كان أكثر كرما من غيره. وقد اختلط المديح الكلاسيكى بالتراث المسيحى فى سير القديسين، الأمر الذى أدى إلى تقليل حجم المعلومات الصحيحة التى كان ينبغى توفرها فى الترجمة. ورغم أن النموذج السويتونى كان يتيح قدرا أكبر من الدقة، فإنه لم يكن يرضى الذوق السائد فى العصور الوسطى بالمرة. إذ انتصر التراث البلاغى على هذا النموذج. ولا يمكن أن نتوقع الموضوعية من قبل كاتبى التراجم سواء كانوا يكتبون بقصد المديح أو بقصد التبرير. وما يحمد لهم هو أنهم يتذكرون النصيحة التقليدية للمؤرخ بأن يذكر الحقيقة وأن يكتب عن الأحداث كشاهد عيان بقدر ما يستطيع. وهم يبقون الحقيقة واضحة بشكل عام، ويفضلون الحذف والاختيار على الكذب المكشوف. وتبرق اضواء الحقيقة الكاشفة فجأة لتضىء معظم قصصهم التقليدية. ويجب أن نعجب بنبوغهم كرجال دعاية، لأنهم جميعا يبذلون ما بوسعهم

من أجل الحكام الذين فشلوا فى تحقيق ما كان مرجوا من أى بطل مسيحى

والتطور فى ميدان كتابة التراجم واضح وحافل بالمعانى. فالكنيسة تتولى أمر كتابة التراجم. وتظل الترجمة التى كتبها اينهارد حالة فريدة. إذ كان الحكم على الحاكم وعرض صورته يتم وفقا للمقاييس التى كان رجال الكنيسة قد تواضعوا عليها. ونحن نعجب بشخصية الملك المخلص التى تتجسد فى لويس التقى، وبشخصية الملك المسيحى فى ألفرد، وبشخصية القديس فى روبير التقى، والمبشر الانجيلى فى كونراد، وبالمحسنين الكريمين فى إيما وكنوت، وبحامل راية سان دينيس فى لويس السادس. أما هنرى الرابع المنكود فيبدو فى ترجمته فى صورة من لا يعادى الكنيسة أو البابوية.

ونلمس التقدم نفسه حين نترك التراجم إلى أنماط أقل تخصصا فى التدوين التاريخى. إذ كان الكتاب من رجال الكنيسة الذين يرون التاريخ من خلال عدسات كنسية، ولكن المؤرخ العام لا يلتزم بالخط الجاهز كما يفعل مؤلف الترجمة. وسنجد مزيدا من تغير الاهتمامات، وكثيرا من وسائل تناول المادة التاريخية. كما سنجد عدة مفاجآت.

الفصل السادس

التاريخ، المدونة، البحث التاريخى (٩٥٠-١١٥٠)

توقف التدوين التاريخى، باستثناء الحوليات، فى أوربا فيما بين أواخر القرن التاسع، وأوائل القرن العاشر. ذلك أن الحروب التى اندلعت نتيجة لتصدع الامبراطورية الكارولنجية، وغارات الفيكنج، والهنغاريين، والمسلمين جعلت التأليف الأدبى أمرا صعبا. وفجأة ظهر عالم من الطراز الأول هو **فلودورد Flodoard** **قسيس ريمس Rheims** (ت ٩٦٦). وكان فلودورد كاتب حوليات دؤوبا؛ ولكنه كتب أيضا «تاريخ كنيسة ريمس»، كما كتب أشعارا فى تمجيد انتصار المسيح وقديسيه. وكان، مثل بيديه، مؤرخا باحثا. إذ كان هدف كل منهما أن يكون أشمل من مجرد جامع للأخبار التاريخية وهو يدرس الماضى البعيد. كما كتب كل منهما فى لغة لاتينية كنسية واضحة لكى يصل إلى أوسع جمهور ممكن من القراء. وجمع فلودورد الأدلة والبراهين على تاريخ ريمس الباكر. فاعتمد على بعض الروايات الشفوية، وعلى كتابات الكتاب اللاتين الكلاسيكيين، فضلا عن سير القديسين. وتم اكتشاف الملف الذى جمعه أثناء الاعداد للكتابة منذ زمن قريب. ومنه يتضح كيف أضنى نفسه سعيا وراء الدليل التاريخى؛ إذ كان يقتنى نسخة من نقش مسجل على مذبح كنيسة فوزجيس Vosges، وذلك لأن أحد كبار أساقفة ريمس السابقين كان قد كرس نفسه للكنيسة. وقد ساعدته إحدى زياراته لروما على نقل المرثيات المنقوشة على إحدى مقابر البابوية لكى يستخدمها فى قصيدة من قصائده. وقدم فلودورد عرضا حاذقا لتاريخ ريمس المتأخر اعتمادا على معلوماته التى استقاها من تجاربه الشخصية.

والمفاجأة التالية هى ما يمكن أن أسميه «**تاريخ الصالونات Salon history**». وهو نمط من الكتابة يثير الدهشة والاستنكار، كما يبدو من اسمه. وهناك كتاب ثلاثة، وهم **لويد براند Liudprand** **ويدوكند Widukind**، **وريشر Richer**، الذين كانوا متخصصين فى الكلاسيكيات، كما اشتركوا فى كونهم هازلين متعصبين. وكانوا يكتبون فى لغة لاتينية كلاسيكية الطابع. وكان «لويد براند» يرصع لغته اللاتينية بعبارات وكلمات يونانية، وقد خطر ببال المترجم الذى نقل مؤلفاته إلى الانجليزية أن يترجم هذه العبارات والكلمات اليونانية إلى الفرنسية. مما يعطينا انطباعا عن أدبه. ويفضل كل من «ويدوكند» و«ريتشر» استخدام كلمة «معابد» الكلاسيكية عوضا عن كلمة «كنائس»، كما يطلق على الجيوش المعاصرة له اسم «فرق legiones» اللاتينية. وعلى

العموم، فإنهما لم يقتبسا من الكتاب المقدس؛ ذلك أن «لويد براند» لا يستخدم عبارات الكتاب المقدس إلا حين يضطر إلى وصف مناسبة كنسية. ويبدو أن أحدا من الثلاثة لم يكن يتمتع بأية حاسة نقدية، رغم أنهم جميعا عاشوا فى عصر شهد أحداثا جساما، ولم يعايشوا هذه الأحداث كمتفرجين، وإنما كرجال ذوى مواقف سياسية واضحة. بيد أن الحقيقة القائلة بأنهم كانوا يرددون الأساطير لا تعنى أنهم كانوا من السذج؛ اللهم إلا إذا اعتبرنا ليفى ساذجا لأنه يخبرنا بالقصص المتداولة عن تاريخ روما الباكر. كذلك فإن قصص لويدبراند البذيئة تذكرنا بفولتير.

بدأ لويدبراند (ت ٩٧٢) حياته وصيفا فى بلاط الملك «هوف Hugh» بإيطاليا، ثم ترقى فيما بعد فى خدمة أوتو الأول الذى كان له فضل رسامته أسقفا على كريمونا Cremona. وقد اختار لكتابه الأول عنوانا هو «**واحدة بواحدة**». إذ أنه كتبه نكاية فى أعدائه. وأهدى هذا الكتاب إلى راهب أسبانى كان قد قابله فى بلاط أوتو بألمانيا، واقترح عليه أن يكتب مؤلفا تاريخيا عن عصره. وهو يوضح فى مقدمته أن هدفه تسلية قرائه. لأن دراسة الفلسفة تستدعى التسلية عن طريق الكوميديا أو قراءة التواريخ الممتعة للرجال الأبطال. فالطلاب الذين أرهقتهم متابعة شيشرون «**سينعمون بالانتعاش فى فيض العبارات المتدفقة منى**». ويزيد حقده على خصومه فى حلبة الصراع السياسى الايطالى من استمتاعنا بحوليته المخزية. كما تثيرنا تعليقاته الدنيئة اللاذعة إذ يقول: «**يحب الايطاليون أن يكون لهم سيدان، وذلك لكى يضربوا احدهما بالآخر**». ورغم أن لويد براند كان لمبارديا، فإنه لم يكن يريد لنفسه سوى سيد واحد هو «أوتو» وله مؤلفان صغيران؛ أحدهما عن «أعمال أوتو» الذى يكيل فيه الثناء على الامبراطور، بينما يبالغ فى تشويه صورة الحزب المعادى له، والثانى عن «السفارة القسطنطينية»؛ وهو عبارة عن ذكريات ساخرة عن رحلته إلى القسطنطينية، إذ كان يكره البيزنطيين وطعامهم، وعاداتهم، وسائر مظاهر حياتهم. والأذى الذى نتج عن خوضه فى الأوحال مايزال باقيا مستمرا. إذ أن المؤرخين لم يبدأوا فى التشكك فى الصورة التى رسمها للأحزاب المتنازعة فى روما إلا منذ زمن قريب. فالبابوات والنساء هم مادته الاخبارية الدائمة، وهى «توليفة» برهنت أن لها سحرا لا يقاوم.

أما ويدوكند، فكان يفضل المعارك على مكائد البلاط. كان راهبا فى أحد الأديرة السكسونية فى كورفى Corvey، وهو دير أسسته الأسرة الملكية. وكانت تربطه بالأسرة الالمانية الحاكمة علاقة وطيدة، إذ أنه أهدى كتابه المسمى «أعمال السكسون» إلى الاميرة الراهبة ماتيلدا Matilda ابنة أوتو الأول. وهذا المؤلف ينقسم إلى كتب ثلاثة، لكل منها مقدمة أكثر تملقا من سابقتها. وهدف ويدوكند من هذا الكتاب أن يسلى الاميرة ماتيلدا ويرفع من قدرها بتمجيد أسلافها. وهو يبدأ بأصول السكسون ويمضى

متسلسلا حتى موت أوتو سنة ٩٣٧. ولسنا نعرف تاريخ وفاة ويدوكند؛ لأن تواريخ نصوص كتبه متضاربة، إلا أنه يبدو أنه بدأ فى الكتابة أثناء حياة أوتو. والصورة التى يرسمها للسكسون تقدم لنا مزيجا من التراث البطولى الجرمانى، والتراث الكارولنجى الذى خلفه اينهارد. ويضيف ويدوكند روايته الشخصية إلى التراث الرومانى القديم. فقد رسمت شخصية كل من هنرى الصياد Henry The Fowler وأوتو الأول على نسق شخصيات الأبطال الأسطوريين. إذ يبرزان كمحاربين عظيمين، وصيادين كريمين كثيرى البذل والعطاء لمن حولهما من المحاربين، وذلك فى إطار يفوق الاطار البشرى. وتحمل الصورة التى يرسمها ويدوكند لأوتو بصمات كل من سويتونيوس وإينهارد. إذ نجد أوتو وقد تحول، مثل يوليوس قيصر، إلى الانشغال فى وضع «**قوانين مقدسة وبشرية**» بعد أن سحق أعداءه فى الداخل وفى الخارج.

أما السمات الأصيلة فى كتاب ويدوكند فتتمثل فى إحيائه لنمط من القياصرة متطور عن ذلك الذى كتب عنه سويتونيوس. إذ جاء بالقياصرة ـ الجنود الذين عرفتهم الفترة المتأخرة من العصر القديم، والذين جاء بهم الجيش إلى العرش الامبراطورى. ولم يكن أولئك القياصرة مدنيين مثل القياصرة الاثنى عشر الذين كتب عنهم سويتونيوس. ويقرر ويدوكند أنه تم تتويج هنرى الصياد أولا ثم أوتو ثانيا فى ميدان المعركة، وصار كل منهما امبراطورا بعد أن أحرز انتصاره العظيم. وهو يتجاهل الحقائق بمنحهما اللقب الامبراطورى فى أعقاب مناداة الجيش بذلك. ولابد أن هذه الحقائق كانت معروفة لرجل له مثل هذه الصلة الوثيقة بالبيت الملكى. ذلك أن هنرى لم يتوج امبراطورا فضلا عن أنه لم يستخدم اللقب الامبراطورى قط، بينما تعين على أوتو أن ينتظر إلى ما بعد تتويجه فى روما سنة ٩٦٢؛ ولم يكن يستخدم اللقب الامبراطورى بشكل منتظم قبل ذلك الحين، وحتى بعد نصره المؤزر الذى أحرزه فى ليخفيلد سنة ٩٥٥. ويستطرد ويدوكند متجاهلا تتويج أوتو امبراطورا على يد الباب فى روما. وقد حذف هذه الواقعة عن عمد. فمن المؤكد أنه كان يعلم أنها قد حدثت، كما أنه لم يتورع عن تسجيل انتصارات أوتو على الرومان العصاة. ولابد أن الأميرة ماتيلدا كانت تعرف ذلك أيضا. ويغطى ويدوكند ما قام به من حذف بأن يحذرها بأنه لا ينوى اخبارها بالقصة الكاملة لما قام به أبوها من أعمال. ويبدو تجاهله لواقعة التتويج فى روما غريبا، لا سيما وأنه وصف تتويج أوتو على يد كبير أساقفة ريمس فى آخن، بعد أن خلف هنرى الصياد على العرش سنة ٩٣٦. ولابد أن السبب فى ذلك راجع إلى أن ويدوكند كان يكره الارتباط بالرومان. وربما يكون اينهارد قد شجع فيه الاحساس بأنه لا يجب تتويج القائد العسكرى البطل بيد أحد القساوسة، حتى ولو كان ذلك القسيس هو خليفة القديس بطرس نفسه، ولما كان أوتو قد حصل على لقبه الامبراطورى فى

ساحة الوغى، فلم يكن ثمة ما يدعو لأن يقدمه إليه أحد رجال الكنيسة. أما التتويج الملكى فى آخن فكان أكثر ملاءمة وتوافقا؛ ذلك أنه كان يقوى حلقة الوصل بين أوتو، وشارلمان.

وقد دارت مناقشات طويلة حول ما قام به ويدوكند من حذف، كما طرحت تفسيرات عديدة لكتابه، واختلف العلماء فى تقدير أهمية انحياز اينهارد العلمانى فى التأثير على هذا الكتاب. إلا أن النقطة الحقيقية فى الموضوع هى أن ويدوكند استكشف منطقة جديدة فى التاريخ القديم، وهى الفترة التى حكم الأباطرة ـ الجنود أثناءهـا، كما اكتشف اطارا أمكن من خلاله أن يحتفظ للسكسون بصلتهم بالقياصرة دون التضحية بأمجادهم كقادة محاربين.

أما ريتشر (ت. ٩٩٨) فكان راهبا فى دير سان ريميجيوس St. Remigius فى ريمس، كما تتلمذ على يد جربرت الذى صار البابا سيلفستر الثانى Sylvester فيما بعد. وكان جربرت أشهر أساتذة اللغة اللاتينية فى عصره. وأهدى ريتشر كتـابه إلى جـربرت باعتباره تلميذا معجبا به. كما أبدى تعقله بعدم الاعتذار أو شرح هدف الكتاب على نحو ما جرت به العادة آنذاك. وكان جربرت هو الذى طلب كتاب «التواريخ» ممـا أوضح أن تدوين التاريخ مجال متحضر، وليس ثمة ما يضطر المرء إلى الاعتذار عن تقليده ليوليوس قيصر. وقد سار ريتشر على نهج قيصر من حيث إنه بدأ كتابه بوصف لجغرافية بلاد الغال، وعادات السكان وتقاليدهم، ثم رسم صـورة عامـة لتاريخهم الباكر. وتناول تاريخ بلاد الغال بالتفصيل بعد سنة ٨٨٨، وهى السنة التى شهدت انهيار الامبراطورية الكارولنجية النهـائى. ولأن درجة الصـدق فيما يـرويه ريتشر ضئيلة، فقد أضر ذلك بالطريقة التى انتهجها فى كتابه ألا وهى طريقة إضفاء السمة الكلاسيكية على التأليف التاريخى. ويمكننا أن نـراقب منهجه أثنـاء عمله فى هـذا الكتاب. فهو يعتمد فى البداية على فلودورد كمصدر، ذلك أن كتابات فلودورد كـانت بمتناول يده فى ريمس، وهذا ما يقوله ريتشر نفسه. وقد أعاد كتابة مؤلفات فلودورد لكى «يحسن» الأسلوب السهل الواضح الذى كتب به الأخير، وأخذ يعبث بالمضمون كيفما يحلو له. وكان من الممكن اعتباره معاصرا للأحداث ثم شاهد عيان بعد توقف المصدر الذى يعتمد عليه؛ إلا أننا لا نثق به على الاطلاق. إذ كان منحازا من الناحية السياسية، كما قادته الصداقة والمصلحة إلى تأييد هوف كابيه Hugh Capet ضد الكارولنجيين الفرنسيين. والأسوأ من هذا، أن تعليمه أضله عن الطريق الصحيح. كما أنه يستعرض معلوماته الجيدة بأن يخترع أمراضا يقتل بها شخصياته، أو هو متهم بذلك على الأقل، إذ أنه ليس باستطاعتنا التثبت من حقيقة هذا الأمر. إلا أننا يمكن أن نتأكد من استغلاله لسالست؛ ولكن نتيجة هذا الاستغلال جاءت فاضحة

مشينة. إذ أن غرامه بالمؤرخ الرومانى قاده إلى أن يغير توقيت الحصار حول إحدى المدن من فصل إلى فصل، لأنه أراد أن يقتبس وصف مشاهد الحصـار من كتاب « الحرب اليوجورتية » لسالست. كما أنه يجعل هوف كابيه «**يشرع القوانين ويصدر المراسيم**» عند انتخابه ملكا سنة ٩٨٧. على حين أن الكابيين الأوائل لم يكونوا من المشرعين. وكل ما فعلوه فى هذا الاتجاه هو تقنين انتقال ملكية الأرض. ولكن بما أن القياصرة الرومان كانوا يصدرون القوانين، وكذلك كان آل أوتو؛ فقد تعين على هوف كابيه أن يرتدى العباءة الامبراطورية والوشاح وأن ينافسهم فى ميدان التشريع. وقد كشفت الهجمات النقدية التى شنها العلماء المحدثون على كتاب « التواريخ » الذى ألفه ريتشر عن أنه نموذج لأحط أنماط الحذلقة. كان ريتشر قصاصا موهوبا مثل ويدوكند ولويد براند، لا سيما حين كان يصف مغامراته الشخصية، فهو ممثل هزلى جيد.

وثمة امرأة مؤرخة نضيفها إلى الوهم المسمى بتاريخ الصالونات، وهى **هروتسويتا Hrotswitha** التى كانت راهبة فى دير جاندرشيم Gandersheim بسكسونيا. ويعرفها دارسو الدراما فى العصور الوسطى من خلال اعدادها لكوميديات Terence فى ثوب مسيحى. كما كتبت قصيدة تاريخية عن أوتو الأول عقب تتويجه فى روما سنة ٩٦٢. ولما كان الكتاب المتعلمون نادرين فى ذلك الحين، فإن وجود كاتبة متعلمة كان يعد مثالا فريدا آنذاك. بيد أنها كانت داخل زمرة من الرجال. وتتضوع الصفحات بأريج ما، إذ أن هروتسويتا قد كتبت فى أسلوب خفيف متأنق. ورغم أن رواياتها لم يبق منها سوى شذرات، فإن ما تبقى منها يوضح لنا أنها كانت تشعر بـارتباط عـاطفى مع رومـا المسيحية. وكانت قصة الحب التى عاناها أوتو هى أشد جوانب حياته جاذبية بالنسبة لها : فقد أنقذ أوتو الملكة أدلهيد Adelheid من ذلك القاسى الذى كان يضطهدها، ثم تزوجها وجعلهـا تشاطـره حكم الامبراطـورية. والـواقع أن القصيـدة التى كتبتها هورتسويتا «**رواية خيالية تنبض بالحياة**».

ولكى نتذوق نمطا مخالفا لأولئك المؤرخين الأدباء ينبغى علينا أن نتحـول صوب المدونة التاريخية الديرية. ويوضح بندكت Benedict ـ الذى كان راهبا بديـر سان أندرو St. Andrew فى مونت سوراكتى Monte Soracte (إلى الشمال الشـرقى من روما) ـ والذى تتوقف مدونته عند أحداث سنة ٩٧٢ ـ مدى ما أصاب اللغة اللاتينية فى الأوساط المتواضعة التعليم. وقد أثار هذا الأسلوب اشمئزاز أحد العلماء الألمان، فـوصفه بقـوله «**إنـه احط درك يمكن أن تهوى إليـه اللغة التى استخـدمهـا شيشرون**». إذ أن بندكت هذا لم يكن يلتزم بأية قواعد نحوية، كما أنه استخـدم كلمات دارجة باللهجة العامية. وربما يكون الناسخ الذى نقل كتابه قد ارتكب بعض الأخطاء، بيد أن الأصل غير صحيح بكل تأكيد. وتتوافق خشونة الأسلوب تماما مع

المضمون. وقد رأينا أوتو بعيون لويدبراند، وهورتسويتا وويدوكند التى تشى باعجابهم به. أما بندكت فيحكى لنا عما يبدو وكأنه غزو قام به هذا الملك السكسوقى ورجاله الذين مارسوا أعمال السلب والنهب، وتفوح من ثنايا رثائه «للمدينة الباسلة»، التى استولى عليها الأجانب، رائحة هيامه الشديد بهذه المدينة. والحقيقة أن كتاباته تثير الأسى والحزن فى النفوس بشكل يجعلها بعيدة عن مجال الأدب.

وفى القرن الحادى عشر ازداد نشاط التدوين التاريخى واتسع. إذ تزايد عدد الرهبان الذين كتبوا المزيد من المدونات التاريخية. كما توسع كتاب التراجم البابوية فى نشاطهم؛ فلم يعد اهتمامهم مقصورا على الشئون المحلية. فقد كانت كل الأساليب التى ورثتها العصور الوسطى عن العالم القديم قد ترسخت؛ كما تم ابتكار أنماط جديدة تولدت عن الأنماط القديمة. وبينما كان الكتاب الذين تعرفنا عليهم لتونا «أصلاء»، نجد أمامنا «أنماطا» تكتفى بالتقليد. أما خلفاؤهم فلا يظهرون هذا التطرف سواء فى الرقة أو فى الخشونة. وعلى أية حال فإن هؤلاء ليسوا كتابا من الطراز الذى يصيب القارئ بالكآبة، لأنهم ينقلون لنا أنباء الحركات الجديدة التى ظهرت فى الفترة التاريخية التى عايشوها. وسوف نرجئ الحديث عن نمو المدن والحروب الصليبية إلى الفصول التالية فى هذا الكتاب. وسأختار هنا عينة للتواريخ الجدلية التى ألفت عن النزاع الذى ثار حول «التقليد العلمانى».

وكما رأينا، فإن هذا النزاع قد أجبر كاتب ترجمة هنرى الرابع على التفكير فى الأسباب. كما أن **برونو Bruno** قد ألف كتابه «عن الحرب السكسونية» للدعاية للجانب المضاد. ومن الأمور المتناقضة أن أقل المساهمين فى التدوين التاريخى الجدلى شأنا هو أكثرهم مدعاة للتأمل والتفكير. فقد كان برونو أحد أفراد الاكليروس فى كاتدرائية مجدبرج Magdeburg، كما كان على صلة بكبير الأساقفة. وعندما مات الأخير انتقل إلى خدمة كبير أساقفة مرسبرج Merseberg الذى أهداه كتابه عن تاريخ الحرب السكسونية سنة ١٠٨٢. وكان شعار برونو هو «سكسونيا للسكسون». لقدر ثار السكسون ضد هنرى الرابع السوابى «الذى حاول أن يستعبدهم»، كما اعتقدوا. ومن ثم فإنهم تحالفوا مع جريجورى السابع لأسباب سياسية، لا لأنهم كانوا من دعاة الاصلاح الدينى. وقد صدمهم عفو جريجورى السابع عن هنرى الرابع فى كانوسا، ورأوا فى ذلك العفو «لعبا على الحبلين». فقد خذلهم البابا. كما فشلت حركات التمرد التى قام بها السكسون فى الحصول على تأييد جريجورى الكامل للملك الذى انتخبوه بدلا من هنرى.

وهكذا وجد برونو نفسه يكره البابا وسفراءه بقدر ما يكره هنرى ومؤيديه. وكان لابد للسكسون، الذين قاتلوا فى سبيل حريتهم، أن يكسبوا الحرب. وقد دفع الفشل

الذى لقيه السكسون ببرونو إلى محاولة تقصى الأسباب وتلمس الدليل والبرهان. وكان عليه بادىء ذى بدء أن يبرر عصيانهم وتمردهم، الذى كان أمرا خطيرا فى الرايخ الألمانى. كان هنرى طاغية، لماذا ؟ ولكى يجيب برونو عن هذا السؤال أشار، مثل كاتب سيرة هنرى إلى حداثة السن كسبب، رغم أنه استخدم هذا السبب على نحو مخالف. فقد أساء المنافقون تنشئة الملك الصغير، الذى لم يصلح من أساليبه ووسائله أبدا. ولكن، لماذا كان السكسون يعانون النكسات والخيبة ؟ إن برونو يلومهم فى فطنة لأنهم أخلوا بوعودهم لحلفائهم السوابيين حين عقدوا صلحا منفردا مع هنرى. وقد أدت هذه الغلطة من جانب السكسون إلى انقسام الجبهة العامة إلى الأبد. وبعد كانوسا، يقع اللوم على جريجورى السابع الذى شجع العصاة، ثم تخلى عنهم حتى صارت الأمور على هواه. وفى سبيل تدعيم مزاعمه جمع برونو الخطابات المتبادلة بين البابا من جهة وأمراء السكسون وأساقفتهم من جهة ثانية، واستخدم هذه الخطابات لتبرير مزاعمه. وقد وجد جريجورى ما يبرر عفوه عن هنرى، إلا أن السكسون أمطروه وابلا من العتاب والاستجداء لكى يمنحهم مساندته الأدبية، لأنه «**تخلى عن مساندتهم**». واستطاع برونو الحصول على نسخ الخطابات بفضل العلاقة التى كانت تربطه بكل من مجدبرج، ومرسبرج. وثمة سوابق لتدوين الوثائق فى سياق المؤلفات التاريخية والمدونات التاريخية الكنسية، بيد أن كتاب «عن الحرب السكسونية» الذى كتبه برونو عبارة عن رسالة على نمط «الحرب اليوجرثية» التى كتبها سالست : ذلك أن برونو كان قد درس سالست جيدا. ولم يكن نسخ الرسائل وتوثيقها فى سياق المؤلفات التاريخية الأدبية من الأمور الشائعة آنذاك. وقد دفع اليأس ببرونو إلى الخلط بين مختلف أساليب التدوين التاريخى. فجاء كتابه «عن الحرب السكسونية» خير مثال على ذلك. وهكذا كان النزاع حول مسألة التقليد العلمانى حافزا على مراجعة النفس والتجديد.

وكان لانجلترا تراثها فى ميدان السجلات التاريخية. وتبدو المدونة الأنجلو ـ سكسونية كمثال فريد من نوعه فى غرب أوربا، من حيث كونها سجلا متصلا للأحداث التى كتبت باللغة المحلية الدارجة. وربما يكون جمع هذه المدونة وتداولها قد بدأ بعد سنة ٨٩٩. إذ كان الكتاب فى مختلف مراكز النسخ ينسخون الروايات السابقة ثم يضيفون إليها ما تجدد من أحداث. وثمة مدونة أخرى، هى «**مدونة بيتر بوروف** Peterborough Chronicle» استمر تدوينها بشكل متواصل إلى ما بعد الغزو النورمانى وحتى سنة ١١٥٥. وقد ساهم المتعلمون من الأنجلو ـ نورمان بطاقاتهم الخلاقة فى مجال التدوين التاريخى، وهى المساهمة التى تميزوا بها فى إحياء التعليم فى القرن الثانى عشر. ويتمثل سبب تناولى الموجز جدا لهم فى هذه الدراسة فى أن الطالب المتحدث بالانجليزية يمكنه العثور على ترجمات جيدة ومقدمات طيبة لمؤلفاتهم. ولذا

فـإننى سوف اكتفى بـذكر الأسمـاء الشهيرة فقط، من أمثـال**أوردريك فيتـاليس Orderic Vitalis** **ووليم المالسبورى William of Malmesbury**

وقد عاصر كل منهما الآخر، كما مات الاثنان فى أوائل أربعينيات القرن الثانى عشر. وعاش أوردريك عمرا أطول من زميله، إذ أنه ولد سنة ١٠٧٥، أى قبل وليم بحوالى عشرين عاما. كذلك عاش كل منهما حياة الرهبان فى مطلع حياته، وظل كلاهما من رهبان دير سان أفرول St. Evroul فى نـورمانـدى ومالسبـورى على التـوالى طوال حياتهما. كما أن كلا منهما جاء نتاجا لزيجة مختلطة، فقد ولد أوردريك لأب فرنسى أو نورماندى وأم إنجليزية. على حين يحكى لنا وليم أنه سليل أسرة أنجلو ـ نورماندية. كان مولد أوردريك بالقرب من شروسبيرى Shrewsbury إلا أن أباه وهبه لدير سان أفرول مكرسا إياه لخدمة الرب، ورباه على هذا الأساس حتى لا يفسده أقرانه «وهذا هو السبب الذى يذكره لنا أوردريك فى انتقاله للعيش فى كنف قوم غرباء». ثم عاد أوردريك إلى إنجلترا بعد سنوات فى زيارة لجمع مادة كتابه فى التاريخ. ونحن نعرف أنه أقام فى ورستستر worcester وكرولاند Crwland، لقد كان كل من أوردريك ووليم باحثا دؤوبا، وقارئا نهما يسعى وراء الكتب أينما كانت، إلا أننا لا نملك دليلا على أن أيا منهما قد قرأ مؤلفات الآخر. ومن حيث كونهما مؤرخين فإنهما يختلفان كما يختلف الجبن عن الطباشير. إذ أن كتاب أوردريك المسمى «التاريخ الكنسى» يستحضر صورة لكليو Clio ربة التاريخ تبدو فيها كما لو كانت امرأة متوحشة ضخمة الجثة تعنف من يناصرها وتهدده بالويل والثبور، بينما استطاع وليم أن يمسك بزمام هذه الربة بحيث صارت طوع بنانه.

ويقدم أوردريك نفسه لقرائه كراهب بسيط. لم يتول منصبا فى ديره، كما لو تواته فرصة حضور المجالس الكنسية أو الذهاب إلى البلاط، إلا فى أحوال قليلة. وينتهى كتابه وهو يلهج بالشكر والعرفان، ذلك أنه كان مسرورا بكونه أمضى حياته بطولها فى رحاب الدير بعيدا عن الدنيا وهرجها. ويتولد فى نفوسنا انطبـاع بأننـا أمام رجـل متواضع لا يفرض نفسه علينا إلا بتصديق روايته التى يرويها كشاهد عيان لكى يبين لنا كيف كانت حياته العملية متوافقة مع الرواية التى يحكيها. وهو يحكى لنا عن رسامته، وعن خروجه النادر من ديره، ثم عن ردود فعله الشخصية تجاه الكوارث، فحين غرقت السفينـة البيضاء (١١٢٠) وغـرق معها الأمير وليم ابن هنرى الأول ورفاقه، ورغم أنه لم يكن بينهم أحد من أصدقائه أو أقاربه، فإن التفاته إلى الانسانية عموما هو الذى خلق بداخله مشاعر الحزن والأسى على من ماتوا. وتعكس مواقفه الفردية مدى ما يمر على المؤرخ من صروف الدهر وتقلباتـه، كما تعكس إحسـاسه بالخطة الالهية للتاريخ، رغم أنه كان يستطيع أن يترك التعليقات الصائبة اللاذعة

تسقط من شفتى شخصية تبدو سهلة الانخداع. وهو يلوم اللصوص ومفسدى الأملاك الكنسية ـ والديرية منها على وجه الخصوص ـ بطريقة عادية. إلا أنه يتميز بحساسيته المرهفة التى تجعله يكره القسوة أيا كان شكلها، وكانت شفقته على الضحايا، وإدانته للجناة ـ حتى أولئك الذين كان يكن لهم الاعجاب ـ أكبر من أن تكون مجرد لغو فارغ.

ومن المثير للسخرية أن كليو (ربة التاريخ) قد خدعته وجعلته يسجل أعمال النورمان، الذين كانوا أكثر شعوب عصره عنفا واضطرابا. بيد أنه لم يبدأ فى تأليف كتابه بهذا القصد. اذ ان مقدم ديره طلب منه ان يكتب تاريخ سان افرول. وانطلق فى سبيله فكتب تقريرا تقليديا عن مؤسسى الدير، وعن المحسنين الذين اغدقوا عليه عطاياهم، وعن الامتيازات، ونمو الدير، والرفاهية، ثم تقلبات الدهر والخسائر التى منى بها ديره. الا ان هذا جره الى مجال ارحب وابعد. ووجد اوردريك نفسه مضطرا الى ان يكتب ضمنا عن تاريخ الأسرة النورمانية التى كان لأفرادها علاقة بديره. وحينئذ تحقق من انه يتحتم عليه ان يكتب تاريخ الدوقية، وهو ما لم يكن قادرا على ان يتناوله بمعزل عن تاريخ النورمان ككل. اذ كان النورمان قد غزوا نستريا Neustria واستقروا بها، فقد خرج النورمان من دوقيتهم لغزو جنوب ايطاليا وصقلية حيث اقاموا لأنفسهم عدة دويلات، كما قام الدوق وليم بغزو إنجلترا. وقد لعب النورمان دورا رائدا فى الحملة الصليبية الأولى. وانتزع بوهيموند الصقلى لنفسه إمارة فى انطاكية. وحيثما وجد النورمان كانت الروابط الأسرية والدينية قائمة وطيدة. وهكذا تحول كتاب «التاريخ الكنسى» الى كتاب عن تاريخ العالم المسيحى. ذلك ان المؤلف كتب عن عدة اماكن مسيحية فى الوقت نفسه، ووصل بكتابه الى سنة ١١٤١، حين اعجزته الشيخوخة، وهو فى سن السابعة والستين عن الامساك بقلمه. وكان قد جمع قبل ذلك تاريخا عالميا يبدأ بتجسد المسيح ويستمر حتى عصره، وقد استخدم هذا التاريخ كمقدمة لكتابه الذى حاول ان يجعل منه كتابا شاملا بقدر ما يستطيع.

وقد فرضت عليه التغييرات التى طرأت على خطته اثناء التأليف أن يكرر وان يستطرد. ويلتمس اوردريك العذر لنفسه اذا ما جره الاستطراد الطويل خارج الموضوع احيانا. وقد شجعته طريقة الرهبان فى الكتابة على اصطناع ضرورة الاستطراد. اذ كانت المواعظ الديرية تستطرد كثيرا تمشيا مع اسلوب (تكنيك) «القراءة المقدسة» ولابد ان فكرة تحديد المرء لخطته قبل بدء الكتابة، ثم الالتزام بها اثناء الكتابة، كانت تبدو فكرة غير صائبة امام اى راهب فى ذلك العصر. وهذا ما يتضح من كلمات سان جريجورى فى كتابه «اخلاقيات العمل»، الذى كان واحدا من اوسع الكتب انتشارا فى العصور الوسطى، إذ يقول:

« .... اذا تقابل نهر، اثناء تدفقه فى مجراه، مع وديان فسيحة على ضفتيه، فسرعان ما يحول مجراه اليها، فاذا ما ارتوت الوديان حتى شبعت عاد النهر سريعا الى مجراه، وهذا ما يجب ان يفعله كل من يتصدى للكلمة الربانية.... ».

لقد كان هدف المؤرخ أن يحض على الفضيلة. وكان من الأوفق لهدفه أن يتوقف بين الحين والحين لكى يحكى عن حياة أحد القديسين، والمعجزات، او لكى يصف اعتناق أحد الشعوب الوثنية للدين المسيحى.

وعلى الرغم من هذا، كانت لأوردريك خواطره. فقد أراد أن يكتب تاريخا كنسيا، ولكنه خاض فى غمار التاريخ العلمانى. وحاول أن يميز بين الموضوعين، كما أزعجه كثيرا انه لم يتمكن من التزام جانب العدالة الحقة فى التاريخ العلمانى، ويقول فى هذا الصدد :

« ... إن المؤرخين المهرة يستطيعون كتابة تاريخ لا ينسى عن أولئك الرجال والنساء.... وعلى اية حال فإننا نحن الذين نفتقر الى أية تجربة عن المحاكم الدنيوية، بل قضينا أعمارنا فى جولاتنا اليومية فى اروقة الأديرة التى نعيش فى رحابها، لن يسترعى انتباهنا الا ما يتصل بهدفنا... ».

«لقد ترك أبناء وليم الفاتح مادة وفيرة يمكن ان يؤلف منها المتعلمون والمفوهون أسفارا قيمة» ورغم إنكار أوردريك لاهتمامه بالشئون الدنيوية، فإن كتابه يقدم لنا ما هو اكثر من مجرد الملاحظات الموجزة عن تاريخ الانجلو – نورمان السياسى. بيد أن هذه الملاحظات لا ترضيه، فقد كان يعتقد أن القصة فى حاجة لأن تروى من جديد فى مكانها الصحيح، وليس باعتبارها ملحقا للتاريخ الكنسى. لقد سنحت لأوردريك فرص عديدة الا أنه فشل فى اقتناص اى منها.

وكان ينبغى على النورمان أن يشكروه على المساحة التى أفردها لهم فى كتابه، رغم أنها كانت مساحة محدودة. اذ كانت تلك هى المرة الأولى التى يظهر فيها النورمان كشعب مسيحى فى مجال تدوين التاريخ. وقد تناول المؤرخون السابقون على اوردريك جوانب جزئية منفصلة من التاريخ النورمانى : مثال ذلك **دودو راهب دير سان كونتين** **Dudo of St. Quentin** الذى روى قصة اسطورية الملامح عن غزو نورماندى. واستمر المؤرخون من غير النورمان، بصفة عامة، فى رسم صورة النورمان بأسلوب مؤرخى القرنين التاسع والعاشر، فقد صوروهم على انهم شعب من الغزاة البرابرة غلاظ القلوب الذين داهموا الممالك المسيحية. ولم يكن هناك ما يحول دون اوردريك والرؤية الواضحة لسمات النورمان وخصائصهم الوطنية. فهل يجعل الفاتح يصف اهل دوقيته بانهم **«شعب مشاغب، على استعداد دائم لأثارة الأضطرابات»** كما

انهم «**قلقين على الدوام تحدوهم الرغبة الجامحة فى زيارة الأراضى الأجنبية**». واذا ما انتصروا فى الخارج، فإنهم يذبحون بعضهم بعضا بمجرد أن يخلو العرش من وجود حاكم قوى. بيد انهم يمتازون ويتفوقون كمقاتلين وبناة للكنائس. وقد فضل أوردريك النورمان على من جاورهم من الشعوب بسبب ذلك الاحساس الذى لازمه طيلة حياته بأنه إنجليزى يعيش مغتربا عن وطنه. ولما كان يكتب انطلاقا من تلك القاعدة القياسية التى التزم بها الكنسيون فقد استسلم للأحكام المسبقة، كما غلبه التحيز فى روايته للتاريخ العلمانى. وبفضل تجربته الشخصية كان مدركا للفروق القائمة بين النورمان وأعدائهم الرابضين على الحدود. والواقع انه كان يكتب كما لو كان حاميا للنورمان.

وتمثلت النتيجة فى «تاريخ بربرى» جديد صاغه فى إطار كتابه «التاريخ الكنسى». لقد كانت لرجال الشمال فى وثنيتهم مآثرهم البطولية فى ميادين القتال، ثم أثبتوا بطولتهم وشهامتهم بعد اعتناقهم للمسيحية؛ ورغم هذا فأن اوردريك لم يغفل ذكر أعمالهم الشريرة. ويتمثل عنصر الأصالة فى كتابه فى انه اقتحم مجالا جديدا.

ومن ناحية اخرى، فان أوردريك هو «مؤرخ الباحث المعاصر» ذلك ان روايته الممتدة وغير المترابطة تضع أمامنا ثروة من المعلومات فى موضوعات شتى. ورغم انه بذل جهودا مضنية فى سبيل الوصول الى الحقائق، فانه اخطأ فى كثير من التفاصيل لأن مصادره قد ضللته. لقد قرأ المدونات، كما طرح اسئلته على من كان يعتقد انهم عارفون ببواطن الأمور. كما أن دراسته الكلاسيكية، من ناحية اخرى، لم تقف حجر عثرة أمامه وهو يدون اخبار معاصريه وسلوكياتهم. ولم تكن لديه الانماط الجاهزة التى يستطيع أن يصوغ فى قوالبها المتعارف عليها شخصيات السادة النورمان والفرنسيين من ذوى الثروة المتوسطة والمعتدلين فى تدينهم. ويقدمهم اوردريك كأفراد حقيقيين كما شاهدهم بنفسه. وهكذا نكون قد مضينا بعيدا عن «تاريخ الصالونات».

وبغض النظر عن اهتمام «التاريخ الكنسى» بالأحداث التاريخية المحلية، فان هذا الكتاب يعكس تاريخ الفكر، اذ انه يعكس لنا صورة عن افكار الرهبان السود (البندكتيين) عن النظم الاصلاحية الجديدة، وكان اوردريك يكره «المتجددات السسترشينية Cisterciat Novelties»[(١)] التى كونها الرهبان، الا انه حاول ان يكون عادلا.

---

(١) شهد القرن الثانى عشر حركة احياء ديرية عظيمة، ربما بسبب السلام النسبى الذى ساد ربوع اوربا منذ منتصف القرن الحادى عشر. اذ كانت غارات النورمان – التى شكلت مصدر خطر عظيم على الحياة الديرية – قد انتهت، كما ان القوى الاقطاعية التى كانت منغمسة فى الصراع ضدهم تفرغت للمساهمة فى التقدم الحضارى المطرد آنذاك، فضلا عن نهاية النزاع حول =

كما يعد الكتاب أيضا من مصادر تاريخ النظرية السياسية. فهو يبين لنا ما كان الراهب النورمانى يتوقعه من الحكام. اذ كان اهم ما يميز الحكومة القوية فى نظره هو قدرتها على إخماد الحروب الداخلية وصد الغزوات الخارجية وكان اوردريك يفترض دائما إن المتمردين على خطأ. لأنهم كانوا يضعون مصالحهم الخاصة قبل الصالح العام. اما الحاكم الذى يثقل كاهل شعبه بالضرائب، والذى يعبث بالامتيازات الكنسية، فهو حاكم شرير، ولكن الأسوأ منه هو ذلك الحاكم الذى ليس له وجود فعال والذى يهمل تنظيم باروناته. ورغم ان وجهة النظر التى يطرحها أوردريك تعبر عن رؤية ديرية عامة، إلا أنه يقحمها اقحاما ويدعمها بما يورده من أمثلة. وقد توفرت لديه أمثلة عديدة، ذلك أن حركات التمرد غالبا ما كانت تنشب فى نورماندى.

إن كتاب «التاريخ الكنسى» جهد طويل وشاق، ولكنه يمتاز بأنه يجتذب القراء لأنه يوضح لهم كيف كان العالم يبدو من أروقة دير سان افرول. وعلى النقيض من ذلك،

= مسالة التقليد العلمانى. وازدهرت المدارس الكاتدرائية. ومن خلال النظام الكلونى بزغت فكرة الاصلاح الكنسى، رغم ان هذا النظام نفسه بات بحاجة الى الاصلاح.

وفى تلك الأثناء التى ماجت فيها اوربا الغربية بارهاصات نهضة القرن الثانى عشر. قام الراهب روبير مقدم دير موليم Moleme ببرجانديا Burgandy، ومعه طائفة من الرهبان تملؤهم الرغبة فى العودة بالقاعدة البندكتية الى بساطتها الأولى وانضباطها، بتأسيس دير جديد سنة ١٠٩٨ك فى سيتو Citeaux (او سستر شيوم Cistercium). ومن هذا الدير اشتقت الطائفة السسترشية اسمها الذى عرفت به وهو Cistercian Order. وكان افراد هذه الطائفة الذين حازوا شهرة فائقة منذ القرن الثانى عشر، يتهمون البندكتيين المعاصرين بأنهم مرتدون. وقد نشأت هذه الطائفة بقصد الهروب من المجتمع على عكس طائفة الرهبان الأوغسطنيين Augustinians المعاصرة لهم والتى كان افرادها يسعون الى خدمة المجتمع الذى يعيشون فى كنفه بشتى السبل. وقد اعتبر السسترشيون انهم فقط الملتزمون بما جاء فى القاعدة البندكتية التى وضعها القديس بندكت اساسا للنظام الديرى (انظر: Cantor, Med. Hist., pp. 161-3وكذلك نص القاعدة البندكتية Robert Brentano, the Eatly Middle Ages, pp. 81-94) وقول السسترشيين انهم يحيون طبقا لأساليب الحياة التى عرفها المجتمع المسيحى الأول، وان كل ما يرغبون فيه هو البعد عن المجتمع سعيا وراء البساطة. ويعد تنظيم السلطة وتسلسلها داخل الجماعة السسترشية من افضل اساليب التخطيط التى عرفتها العصور الوسطى. اذ ان هؤلاء الرهبان قد نظموا انفسهم داخل نظام جديد بالاعجاب رغم انهم كانوا يحيون فى عالم تشابكت فيه السلطات المختلفة مع بعضها البعض وتعقدت وقد انتشرت اديرتهم بمعدل سريع للغاية رغم ان ظروف الانتشار لم تكن متوفرة. وقد اتسم نظامهم الداخلى بالشدة والصرامة. كما انهم كانوا يختارون اديرتهم بعيدا عن اماكن التجمع السكانى مثل المدن والقلاع.

انظر:

Southern, Western society and the Church, pp. 250-65; Margarte Deansly, A hist., of the Med. Church, pp. 117-22.

(المترجم)

كان وليم المالمسبورى هو «مؤرخ المؤرخ الحديث» لأننا نقرأه كمصدر للحقائق والأفكار مثل اوردريك، كما ندرس منهجه ايضا. ويتشابه وليم مع فلودورد الذى ترسم خطاه دون وعى. بينما ترسم خطى بيديه بوعى كامل فى دراسته للماضى كموضوع قائم بذاته؛ وهو ما كان يعنى ان يقوم بعمل اكثر بكثير من البداية والنهاية الميكانيكيتين اللتين كان كتاب التواريخ والمدونات السابقين يتخذونهما. اذ تطلب الأمر بحثا مكثفا فى سجلات العصور الماضية. وقد بدأ وليم عمله وهو متسلح بالميزة نفسها التى توافرت لأوردريك فى نورماندى، اذ كانت مكتبة دير مالمسبورى تضم مجموعة جيدة من الكتب لأن أحد مقدمى الدير كان من علماء جيميجى Jumieges كان قد أعاد تأسيس هذه المكتبة. وتولى وليم وظيفة امين المكتبة، مما اتاح له فرصة الاطلاع على الكتب، وفرصة الحصول على نصوص جديدة للمكتبة. وقد اضاف الى مصادر تاريخ بريطانيا التى كانت فى المكتبة من خلال المعلومات التى جمعها عن طريق الرواية الشفوية التى سمعها سواء فى مالمسبورى او اثناء قيامه برحلاته عبر انحاء البلاد. كما قابل الرجال الذين كانوا شهود عيان، او كانوا يحتفظون بتسجيل للأحداث «**التى يتهددها خطر النسيان**». وقد خاض فى خضم من المعلومات التى لم يكن قادرا على التحقق من صحتها، وحاول أن يميز الأسطورة عن التاريخ. وكان طبيعيا أن يأخذ بعض الروايات الخيالية والقصص الخرافية على انها حقائق، بيد ان هذا لا يصدق على جميع ما كتبه. وكانت القصص الطويلة التى نسجت حول الملك آرثر Arthur ملك بريطانيا منتشرة ومتداولة حين بدأ وليم يكتب مؤلفاته الا ان هذه القصص لم تخدعه لأنه كان يستبعد حقا ان يكون لسكان ويلز القرن الثانى عشر اسلاف من ذلك النمط الذى تصوره تلك القصص. والحقيقة ان وليم بذل من الجهد الواعى فى سبيل الحكم على مادته ونقدها، اكثر مما بذله اوردريك.

ويتميز وليم - كمؤرخ - بحسه النقدى الواضح، وباهتمامه الكبير بالدوافع الكامنة وراء الحادث التاريخى. وهو يستمتع بالمقارنة بين الدوافع الظاهرية وبين الدوافع الحقيقية وراء سلوك احد الاشخاص. ولكى نستنبط فلابد لنا ان نخمن: وكان وليم يخمن على نحو ما يفعل المؤرخون حتى اليوم. وكان يعمل على اساس مبدأ يقول إن الناس يتصرفون بوحى من الدوافع التى تثير اهتماماتهم الذاتية. اى انه يجب علينا ان ننظر الى اهتماماتهم وليس الى وظائفهم؛ فالبابا اوربان الثانى، اعلن عن الحملة الصليبية الأولى فى كليرمونت، لمساعدة مسيحيى الشرق على الخلاص. اما دوافع البابا الحقيقية، على حد تعبير وليم، «**فلم تكن معروفة تماما**». كان اوربان يأمل فى ان تتيح له الفوضى الناجمة عن الحملة الصليبية فرصة استعادة املاك البابوية فى ايطاليا، والتى كان انصار الامبراطورية قد استولوا عليها فى غمار النزاع

حول التقليد العلماني. وبنى وليم تفسيره على اساس من الكلام الذى كان الناس يثرثرون به، أو على اساس رأيه الخاص؛ ذلك ان مؤتمر كليرمونت قد عقد فى وقت كان وليم ما يزال طفلا، وربما لم يكن قد ولد بعد. بيد ان تخمينه لدوافع اوربان الحقيقية يكشف عن الطريقة التى كان ينظر بها الى الأسباب فى العملية التاريخية.

كان وليم يعتقد أن التصرف دون وجود الدوافع الذاتية أمر نادر ومثير للدهشة. فهو يكتب عن الولاء المنزه عن المصلحة باعتباره استثناء. فقد وقف ايرل روبرت امير جلوسستر Gloucester باستمرار الى جوار اخته غير الشقيقة، الامبراطورة ماتيلدا، فى حروبها ضد الملك ستيفن، على عكس ما فعل اصدقاؤها المقربون. وكان دافعه الى هذا الموقف هو ولاؤه الخالص لها. واذ تسربت عدوى الشك إلى قرائه، يرتاب وليم فيما اذا كانوا سيصدقون أن الأمير روبرت كان يتصرف دون انانية. ومما زاد فى ريبته ان قراءه سيعرفون ان الأمير وليم هو حاميه، ومن ثم اخذ يدفع عن نفسه تهمة النفاق بأن يبرهن على ان ما ذكره هو الصدق. وثمة سؤال يظل يفرض نفسه بالحاح على المؤرخين فى كل عصر اذا ما اخذوا يناقشون سبب تصرف الناس على نحو بعينه. وهو سؤال يقول: لصالح من؟ Cui bono. وقد طرح وليم على نفسه هذا السؤال، وأجاب عنه باعتباره دارسا للطبيعة البشرية، ينظر الى الجانب العابس اولا.

أما احساسه بالشكل فقد كان أرقى من احساس أوردريك. إذ أن وليم اظهر مقدرة طيبة على الفصل بين التاريخ المقدس والتاريخ الدنيوى. ويعرض كتابه «اعمال الأساقفة» لتاريخ انجلترا الكنسى، على حين يعتبر كتابه «اعمال الملوك» المرادف العلمانى له. وحين يصل الى عصره يخاطر بادانة اشخاص ما زالوا على قيد الحياة حين يروى الحقيقة. كان أوردريك يحتمى فى دهاليز ديره وأروقته، ومن ثم كانت اسبابه للخوف من ملاحظة عظام الرجال لما كتبه عن سلوكهم اقل. اما وليم فكان اكثر ارتباطا بالأمراء، ولكنه حل مشكلته بان كتب التراجم الملكية على نهج ما كتبه سويتونيوس، مما مكنه من اعطاء تقرير هيكلى عن الحكام دون ان يحكم عليهم. وقد تناول نموذجه فى حذق، تاركا لشخصياته حرية الحركة داخل اطار هذا النموذج. وليس باستطاعتنا ان نختبر ما قاله وليم عن أن هنرى الأول قد انجب عددا كبيرا من الأبناء غير الشرعيين ليكونوا دعامة لعرشه وليس طلبا للمتعة؛ الا ان هذا الكلام يضفى لمسة ملطفة على صورة ذلك الملك الحاذق، الماهر، البارد، لقد رسم وليم هذه الصورة بحرص المحبين. وكانت آخر مؤلفاته رسالة أسماها «التاريخ الجديد». وهى تبدأ باستعراض السنوات الاخيرة من حكم هنرى الأول، ثم تقودنا الى الحرب الأهلية التى دارت رحاها فى عهد ستيفن. ولم يكمل وليم هذه الرسالة اذ وافته المنية سنة ١١٤٣. وهذه الرسالة افضل اعماله. فقد استطاع أن يوظف معلوماته كشاهد عيان

للحوادث التى جرت فى غرب إنجلترا، كما استطاع ان يثبت فيهـا ادلته وبـراهينه المعاصرة. وهو حريص على أن يخبرنا متى كان حاضرا فيما يعرض له من أحداث، ومتى اعتمد على السماع. وكان روبرت امير جلوسستر هو اقوى معارضى ستيفن كما كان بطل الكتاب والشخصية الغـالبة عـلى احداثـه؛ وهكذا نجـد انفسنا فى خضم التيارات السياسية.

كان وليم يأخذ مبدأ ان المؤرخ يجب ان يكون محايدا مأخـذ الجد، فهـو يكتب متفاخرا بانه يستطيع ان يكون رأيا غير منحاز عن الغزو النورمانى لانجلترا، اعتمادا على اختلاف جنسية كل من ابويه عن جنسية الآخر. ومن سوء الطالـع انه يـأخذ بالرواية النورمانية الرسمية بما فيها من انجاز ضد هارولد Harold وبافتراءاتها ضد الكنيسة الانجليزية. وهو ما يصدق ايضا على اوردريك، رغم وعيه بانه انجليزى. ذلك أن هذه كانت هى الرواية الوحيدة المتاحة امام كل منهما. ويقوم تفاخر وليم شاهدا على مثالية حياده، فقد كان من المستحيل تحقيق مثل هذا الحياد لأن مصادره كانت تنحاز الى احد الجانبين، وكان هو يسير على هديها. ويضع كتابه المسمى «التاريخ الجديد» نظرياته موضوع الاختبار. وقد ابتكر روايته عن الحروب الأهلية دون مصدر يرشده. وخرج من الاختبار بنجاح كبير. اذ ان «التاريخ الجديد» يقدم لنا صـورة عادلة ومتوازنة عن الشخصيات وعن أسباب الحروب بقدر ما هو متوقع من شخص معروف عنه أنه من أنصار امير جلوسستر. وهو ما يعد مؤشرا على مهارة وليم فى الصنعة التاريخية. فقد غرس فى نفوس طلاب التاريخ ودارسيه الرغبة فى قراءة تقرير غير منحاز، كما حاول ارضاءهم بشرح موقفه، حتى يمكنهم التسامح معه.

ومما يبرر شعبية وليم عند المؤرخين المحدثين ما تمتع به من مواهب كمؤرخ : فهو يبدو لهم «**كواحد منا**» أو هو «**يكاد يكون من زملائنا**». وربما تكون متعة المصافحة عبر القرون هى السبب فى بعض المبالغة عن مدى عصريتـه كباحث يـدرس الماضى السحيق. ويفسر الحاضر؛ بيد ان شعورنا بزمالة مؤرخ مالمسبـورى شعور حقيقى، ومما يزيد فى جاذبيته انه يتمتع بالقدرة على اجتذاب القراء. وهذا هو ما يميزه عن غيره من المؤرخين الأنجلو – نورمان. وكانت هذه من سماته المميزة؛ بل أنه حتى أوردريك لايمكن أن يجتذب القراء طويلا، وانما يقرأ على عدة مرات. ويتمثل الفرق هنا فى أن وليم يقدم المزيد من البحث ومن الامتاع على حد سواء.

وليس هناك من قرائه من يتعب نفسه فى مشكلات التقسيم الزمنى أثنـاء قراءة مؤلفاته. وتبين لنا اشاراته، التى ترد فى ثنايا سطوره بـين الآن والآخر عن تـدهور الاخلاقيات والنهاية الوشيكة للعالم، انه اخذ بالفكرة القائلة بأنـه يعيش فى العصر السادس والأخير من عمر العالم. اذ كان المؤرخون قد استقروا على التنبؤ بمستقبل

غير محدود فى هذا العصر الأخير. ويزعم كل من اوردريك فيتاليس، وهنرى الهونتنجدونى (ت ١١٥٥) Henry of Huntingdon فى كتابه «تاريخ الانجليز» ان دراسة التاريخ تساعد على التنبؤ بالمستقبل وعلى فهم الحوادث الجديدة ابان حدوثها. اما اوردريك فيضع مزاعمه بشكل واضح اذ يقول:

«يحدث احيانا ان تطرح حوادث كثيرة نفسها على الجاهل على انها أمور لم يسمع عنها من قبل، وغالبا ما تنشأ الظروف الجديدة فى العصور الحديثة، ولا يمكن للعقليات غير الخبيرة ان تكشف عنها وتوضحها إلا بالرجوع الى الأحداث السابقة المشابهة».

ان راهب سان افرول، وارخون هونتنجدون يفترضان أن نبوءة المؤرخ سوف تمتد لتشمل أرض الوطن، اذ ان الحوادث الجديدة ليست مأخوذة من سفر الرؤيا. ويهتم كل منهما بالنبوءات التى تنسب الى عرافة ويلز وهى النبوءات التى كانت شائعة فى ذلك الحين. وقد مرت بالفعل بعض الأمور والاحداث التى تحدثت عنها تلك النبوءات التى تدخل فى اطار طراز «النبوءة بعد وقوع الحدث». ورغم أن ما مر من أمور واحداث قد كذبت النبوءات الا ان احتمال تحقق النبوءات الأخرى فى المستقبل كان ما يزال قائما.ولكن نبوءات ميرلين Merlin كانت سياسية تتناول المعارك الانسانية والغزوات. والاثارة والاهتمام اللذان اثارتهما تلك النبوءات واذكت نيرانهما يدفعان بنا الى التفكير فى تضاؤل الاهتمام بقدوم المسيح الدجال. ذلك إن إهتمام الناس آنذاك تركز حول المعارك التى نشبت بين الملوك الانجليز وجيرانهم، وليس على اقتراب يوم القيامة.

بيد أن اوروسيوس لم يكن قد تخلى تماما عن مكانته فى عقلية العصور الوسطى. فان رؤيته البانورامية للتاريخ كانت ما تزال تفرض نفسها متحدية كل رؤية جديدة. وكان المؤرخون يقرأون كتابه «التاريخ ضد الوثنيين» باعتباره مصدر ثقة فى التاريخ الباكر، ينبغى نسخه توطئة لكتاباتهم عن الأحداث الأقرب الى عصرهم. ولكن القارىء المتأمل سيجد فيه ما هو اكثر من ذلك؛ اذ كان اوروسيوس يشجعه على ان يكتب تاريخا عالميا جديدا، متطلعا بناظريه الى الأفق البعيد. فهل استطاع أحد آنذاك ان يجعل من تقسيم اوروسيوس للزمن تقسيما عصريا؟ لقد آن الأوان لأن يحاول البعض ذلك.

الفصل السابع

التاريخ العالمى

وضع بنيدتو كروتشه «التاريخ الفكرى» فى أسمى مراتب التدوين التاريخى. «**فليس ثمة فترات فى التاريخ، هناك مشكلات فحسب**». والمؤرخ المفكر هو الذى يعكف على فحص المشكلات وامعان النظر فيها. ولا يمكن أن يكون هناك تاريخ عالمى بالنسبة لأى مؤرخ جدير باللقب الذى يحمله، لأنه لا يستطيع أن يدير عقله فى آن واحد فى كافة وجوه التاريخ وجوانبه. والكاتب التافه فقط هو الذى يكتب تاريخا من الدرجة الثانية أو الثالثة، وهو ما سيجد المرء نفسه مدفوعا إليه إذا ما حاول أن يكتب تاريخا عالميا. وفى الوقت الذى تصدق فيه مقولات كروتشه عن المؤرخين المحدثين، فإنها لا تنطبق على أولئك المؤرخين الذين عاشوا فى القرن الثانى عشر. ومع تسليمنا بأن التاريخ الفكرى هو أسمى أنماط التدوين التاريخى، وبأن المؤرخ الحقيقى هو الذى يحصر اهتمامه فى المشكلات التاريخية، فإن هذا المؤرخ نفسه لا يستطيع أن يتجاهل الفترات التاريخية. لقد كانت معالجة التاريخ الفكرى فى القرن الثانى عشر تعنى التأمل والتفكير فى التقسيم الزمنى الموروث عن أوروسيوس، وهو ما يعنى أن تطرح المشكلات جانبا. فماذا يكون التاريخ إن لم يكن تاريخا عالميا؟ فقد كان انكار عالمية التاريخ فى القرن الثانى عشر انكارا بالتالى لحقيقة المسيحية. ولكن، هل كانت التقسيمات الباكرة للزمن إلى عصور ستة أو ممالك أربع تقدم الاطار الصحيح لكتابة تاريخ الفترة ما بين القرن الخامس، والقرن الثانى عشر؟ حقا أن اعداد المؤرخين قد تزايدت كما زاد عدد كتاب المدونات التاريخية، وكتاب التراجم، ولكن أحدا منهم لم يتطوع لكى يكون أوروسيوس آخر. فالواقع أن هذه كانت مهمة ثقيلة الوطأة بما تحمله من صعوبات.

كانت المشكلة فى جذورها راجعة إلى التغير الذى طرأ على أحوال الغرب آنذاك. إذ كانت هناك أسباب فلسفية تفسر لماذا كان التغير يعنى التدهور والاضمحلال. فنحن نبتلى بالتدهور منذ اللحظة التى يبدأ فيها وعينا يتكون داخل رحم الأم. وهذه العقيدة جزء من فلسفة سان أوغسطين عن الحياة. أن التوازى بين حياة الانسان وعصور العالم، التى أخذت تمضى فى صيرورتها حتى وصلت بالعالم إلى عشية عصره السادس والأخير، جعل من الطبيعى أن يفترض الناس فى العصور الوسطى أن التغيرات التاريخية سوف تمضى نحو الأسوأ. وكان من السهل أن تروى القصص عن التدهور،

بل إن ذلك كان أمرا ممتعا للغاية، وكان المؤرخون يتلذذون وهم يلقون باللوم فى كل اتجاه. وعلى النقيض من ذلك، كانت التغيرات نحو الأفضل هى التى تستوجب الشرح والتفسير؛ إذ كيف يمكن حدوثها فى فترة التدهور والاضمحلال؟. بيد أن البدع كانت تظهر فى جوانب الحياة. وكان من الممكن وصف بعض هذه التيارات الجديدة بأنها «سيئة»، ولكن ذلك الوصف لم يكن يصدق عليها جميعا، إذ كان بعضها «جيدا» دون جدال. ومن ثم فإنه كان محيرا.

«... والواضح أمام الجميع لكى يروا كيف أن أمورا كثيرة، وأشياء ذات أهمية كبرى نحتاج إليها فى حياتنا هذه، وهى مفيدة لكل من الصالح والطالح على حد سواء، كما أنها جميلة فى حد ذاتها، تم انجازها ولا يزال يتم على أيدى رجال طيبين ورجال اشرار أيضا...

ومنذ ذلك الحين تولدت فروع جديدة فى التعليم، وأنماط عديدة من الحرف، فضلا عن العديد من وسائل البحث العلمى الدقيق، وفنون البلاغة، ومختلف المناصب والوظائف، إلى جانب البحوث التى تفوق الحصر فى ميادين الأدب والفن والعمارة...».

يا لها من دلائل تلك التى توحى بها هذه السطور التى كتبها أحد مقدمى الأديرة السسترشية ـ وهو المدعو وليم راهب سان تييرى William of St. Thierry، أحد المعجبين بسان برنار ـ فى كتابه «الرسالة الذهبية» الذى وجهه إلى الرهبان الكارتوسيين،[1] فى مونت ديو Monte Dieu (١١٤٤ - ١١٤٨). وقد اعتزل وليم ورفاقه العالم؛ لكنه أيقن أن العيش فى رحاب العالم فى زمن مثل زمنه أمر يبعث على النشاط ويحفز الهمم. ذلك أنه لم يكن هناك من علماء أوائل القرن الثانى عشر من يستطيع أن يغمض عيني عن التغيرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التى تجرى من حوله.

---

(١) تأسست هذه الطائفة التى عرفت باسم النظام الكارتوسى Carthusian Order سنة ١٠٨٤. إذ أن سان برونو الالمانى الذى كان استاذا بالمدارس الكاتدرائية فى ريمس زهد حياة المدن فترك ريمس وذهب ليعيش وحيدا فى بقعة موحشة بالقرب من جرينوبل Grenoble، حيث تجمع حوله عدد من النساك. وفى سنة ١٠٨٤ جمعهم فى دير بالقرب من قرية كارتوسية Cartusia ـ التى اشتقت الجماعة اسمها منها ـ واطلق على الدير اسم جراند شارتريز Grande Chartreuse، لكنه اشترط عليهم أن يعيشوا داخل الدير فى صوامع منفصلة، ولا يجتمعون إلا فى صلاة المساء أو على الطعام فى أعياد معينة. وكان كل راهب يعد طعامه بنفسه، وله جزء خاص فى حديقة الدير يتولى العناية به. كما كان عليه أن يقرأ صلواته فى صومعته. وداخل هذا النظام امتازت الحياة بالصرامة الشديدة، والوحدة، والصمت إذ كان مثلهم «O beata solitudo: O sola beatitudo» العزلة سعادة: والسعادة هى ..

وكان طبيعيا أن تؤدى التغيرات الاقتصادية إلى أن يسىء شرار الناس استغلالها. إذ كان من المفروغ منه ألا يوافق أى من رجال الكنيسة على نمو المدن وعلى طلب سكان المدن للامتيازات، لأن ذلك سيؤدى ـ فى تصورهم ـ إلى أن ينقلب النظام الذى وضعه الله رأسا على عقب. وقد أدت الثروة المتنامية إلى الرفاهية وإلى انتشار طراز الملابس الخليعة وانتشار عادة تصفيف الشعر، كما ازدهر الربا. ومن الواضح أن « التنوع فى الوظائف والمناصب » الذى ذكره وليم كان راجعا إلى نمو الحكومة الدينية والعلمانية على حد سواء. وقد أدت الوسائل الأكثر عقلانية فى استخراج أموال الرعايا إلى مزيد من القهر والفساد، ذلك أن الموظفين بدأوا فى تنمية ثرواتهم من هذا السبيل. وصار المحامون والبيروقراطيون ـ بتصرفاتهم المشينة ـ هدفا للمصلحين الأخلاقيين. ولكن، من ذا الذى كان يستطيع أن ينكر أن بعض الحركات الجديدة كانت « طيبة »؟ لقد أثار نجاح الحملة الصليبية الأولى مشاعر البهجة والسرور فى نفوس رجال الكنيسة. وكانت الجماعات الدينية الجديدة مثل: الرهبان النظاميون الذين أسسهم سان فيكتور، والسسترشيون أو الرهبان البيض، والرهبان المعروفون باسم Premonstratenians، وجماعات النساك والزاهدين بمثابة نماذج لمحاولات البحث عن الكمال، بما فيها من تحير وارتباك فى الاختيار بين الطرق المؤدية إلى الكمال المنشود. كان الاصلاح الدينى فى العصور الوسطى الباكرة محصورا فى مجال الرهبان والنساك فحسب، أما الآن فقد صار هناك من ينافس الرهبان السود[٢]. إذ كان أعضاء كل

= العزلة ». ومات برونو سنة ١١٠١ وأخذ الكارتوسيون ينتشرون بالتدريج فى أنحاء أوربا، ولكن انتشارهم لم يكن على نطاق واسع مثل الانتشار الذى لقيه السسترشيون، وذلك بسبب قسوة النظام الكارتوسى وصرامته. وقد أخرجت الطائفة الكارتوسية عددا من العلماء الذين حازت كتاباتهم الاعجاب فى أوربا العصور الوسطى. أشهرهم هوف Hugh (ت ١٢٠٠).

انظر: Margaret Deanesly, A hist., of the Church, pp. 122–24.

(المترجم)

(٢) تقصد المؤلفة بالرهبان السود الرهبان البندكتيين، وقد عرفوا باسم الرهبان السود بسبب لون ردائهم. وكان سان بندكت St. Benedict قد وضع « القاعدة البندكتية » للدير الذى أسسه فى مونت كاسينو Mont Cassino بالقرب من نابولى. وبنهاية القرن التاسع صارت هذه « القاعدة » قانونا لكل أديرة غرب أوربا. ونظرا للمساهمة الفعالة من جانب البندكتيين فى مجالات الدين، والتعليم، والحكم، والاقتصاد، فإن الفترة ما بين ٥٥٠ إلى ١١٥٠ تقريبا كانت تعرف باسم القرون البندكتية؛ وقد اعتراها الوهن حتى ظهرت مع مطلع القرن الثانى عشر عدة نظم ديرية منافسة مثل تلك التى أشارت إليها المؤلفة فى المتن: انظر:

Cantor, Med. hist., pp. 165–71, The Med. World, pp. 99–110

أيضا: Robert Brentano, The Early Middle Ages, pp. 81–94

وكذلك سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ ١، ص ١٦٤ ـ ص ١٦٩.

(المترجم)

جماعة يزعمون أن ممارساتهم ومثلهم مستمدة من العهد الجديد. وتمثل التحدى الاكبر فى ذلك الكم المتزايد من الطلاب والدارسين، حيث زادت أعداد المدارس الراقية المستوى التى تقدم خدماتها التعليمية لصفوة كبيرة العدد. إلا أن الأشرار قد اساءوا استغلال الفرصة هنا أيضا، فقد أخذ كل من الطلاب والمدرسين يضيعون وقتهم فى «الأسئلة التافهة» بيد انه كان من الممكن تسخير الدراسة فى خدمة الكنيسة إذا ما احسن الانتفاع بها. إذ كانت المدارس تعد القساوسة لرعاية الشعب المسيحى، وتعمق فهمهم للعقيدة الكاثوليكية.

وقد عكف بعض العلماء آنذاك على التفكير فى حقيقة ما يجرى من تغيرات، فاكتشفوا أنها تغيرات «طيبة» ومن ثم افسحوا لامكانية التطور نحو الأفضل مكانا فى رؤيتهم للتاريخ. فقد تميز هوف راهب سان فيكتور Hugh of St. Victor (ت ١١٤١) - والذى كان راهبا يدرس فى دير سان فيكتور بباريس - باحساسه الشخصى الفريد بالتطور التاريخى. فقد بدأ انطلاقا من النظرة التقليدية التى ترى فى التاريخ تاريخ الخلاص الانسانى، وانتهى إلى استنتاج أنه يجب على الكنيسة أن تشجع نمو المؤسسات الجديدة، وإلا فكيف يتسنى لها أن تقوم برسالتها على الأرض؟ وهكذا توصل إلى أن التيارات الجديدة جزء من الخطة الالهية، وقد شارك جود فرى Godfrey، الذى كان راهبا فى دير سان فيكتور وتلميذا لهوف، استاذه فى تفاؤله. فكتابه «الكون الأصغر Microcosmos» أى الانسان، عبارة عن مقالة دينية مطولة تبين كيف أن الانسان، حتى الانسان الخاطىء، قد حباه الله بنعمة القدرة الطبيعية على ابتكار ما يحتاج إليه لكى يعيش حياة كاملة ومتحضرة على سطح الأرض. بل إن جودفرى يكاد يطير فرحا بسبب الكم المتزايد من الكتب التى ألفت فى شتى ألوان المعرفة.

وقد انبرى انسلم الهافلبرجى Anselm of Havelburg، الذى كان واحدا من «الرهبان البيض» لتفنيد الاتهامات التى وجهت إلى التجديد. وبنى دفاعه على أرضية تاريخية، إذ لم يعد يكفى أن يجادل بالقول بأن أسلوب الحياة الذى اختاره لنفسه مستمد من الانجيل، لأنه كان مدركا لأن الاصلاح يعنى التجديد؛ إذ أنه لا يمكن للمرء أن يعود إلى الأخذ بقيم الماضى فى حاضره دون تعديل. ومن ثم بنى أنسلم جدله على أساس أن الروح القدس مستمرة فى الايحاء بأشكال الحياة الدينية الجديدة، حتى فى العصر الأخير من عمر العالم. ثم استجمع شتات شجاعته ليعلن فى حسم أن التغير نحو الأفضل يمكن أن يحدث حتى فى ذلك العصر الأخير.

وفرضت الجوانب الجديدة نفسها على مجموعة أخرى من العلماء هم: المحامون الكنسيون. وهنا كانت المسألة متعلقة بمهنتهم، لأن هذه الأمور المستحدثة كانت

تفرض نفسها على ثقافتهم وتعليمهم وتدريبهم. إذ كان القانون الكنسى يتطور بسرعة مماثلة لسرعة تطور اللاهوت. فقد زادت القواعد التى تحكم القضايا المطروحة فى ساحات المحاكم الكنسية والمحكمة البابوية Curia فى عددها، كما صارت أكثر تعقيدا. ويعود القانون الكنسى فى أصله إلى الكتاب المقدس، والمجامع الكنسية، والمراسيم البابوية (وبينها الوثائق المزورة)، ولكن التفسيرات والأحكام الجديدة التى تقررت لمواجهة المشكلات الجديدة كانت تضاف باستمرار إلى المجموعة الأصلية. وكان المحامون الكنسيون يعملون بحكم وظائفهم فى مجال القانون الكنسى، القديم والجديد. ولم يكن بوسعهم أن يغضوا البصر عن الفروق القائمة بين القانون الذى يعملون بمقتضاه، وبين ممارسات الكنيسة الباكرة. إذ لم يكن فى العهد الجديد ثمة ما يقابل القواعد التى كانت تنظم مسائل عدم زواج الاكليروس أو حيازة الممتلكات على سبيل المثال. بيد أن هذه القواعد كانت لازمة لحل مشكلات المجتمع المعاصر. كان رجل القانون الكنسى يتقبل بصدر رحب الحقيقة القائلة بأن الحياة المسيحية كانت تخضع للتنظيمات الكنسية، كما كانت تزداد ارتباطا بالبابوية بشكل مطرد. ودائما ما يفخر المحترفون بأعمالهم، لا سيما إذا أضفت عليهم قدرا من الأهمية. وكان المحامون الكنسيون المشتغلون بالقانون الكنسى يؤمنون بمهنتهم إيمانا عميقا، لأنها كانت تعنى ضمنا إحداث التغييرات وتطبيقها فى ساحات القضاء. وقد أفادت الكنيسة من التطورات القانونية، أو قل إن هذا هو ما كان رجال الكنيسة يفترضونه وهم يدرسون كتب القانون الكنسى للطلاب.

كان العلماء الذين ذكرتهم من اللاهوتيين أو من رجال القانون الكنسى، ولكنهم لم يكونوا من المؤرخين. وكان هوف راهب سان فيكتور هو الوحيد الذى ألف كتابا فى التاريخ. وكان كتابه الذى اتخذ شكل مدونة تاريخية عالمية يستخدم كدليل لطلاب الآداب واللاهوت. وقد جمعه هوف بقصد أن يكون كتابا تعليميا، أى أنه لم يتناوله باعتباره وسيلة يعبر بها عن آرائه فى التطور التاريخى. وكان المؤرخون أكثر من اللاهوتيين ورجال القانون الكنسى محافظة ونفورا من الأفكار. الجديدة ذلك أنهم كانوا يسجلون ما يطرأ من تغيرات ومتجددات، مع ما تستوجبه من ثناء أو لوم. وقد لاحظ المؤرخ البرجندى رالف جلابر Ralph Glaber (مات بعد سنة ١٠٥٩) فعلا الحماسة السائدة لبناء الكنائس؛ إذ يقول إنه كان يبدو أن الأرض قد اتشحت بثياب بيضاء. الا أنه لم يناقش علاقة هذا التغير بعصر شيخوخة العالم.

كان تقسيم الزمن إلى عصور ستة أمرا مسلما به. وكان ينبغى أن يكون تقسيم الزمن وفقا للممالك الأربع حافزا يحث المؤرخين على التفكير والنقد. إذ كان من الممكن قياس هذه النظرية واختبارها فى ضوء الحقيقة الواقعة. لقد كانت الفترات ماثلة فى

العقل، طالما وجدت على الأرض مملكة قوية. ولكن هل كانت المملكة العالمية الرابعة، أى الامبراطورية الرومانية، ما تزال موجودة فى ذلك الحين؟ لقد تركناها فى القرن السابع تحاول أن تمد فى عمرها من خلال الحكم البيزنطى. وكان بعض المؤرخين يرون أنها قد قسمت فعلا بين ملوك أقل شأنا، على حين تجاهل البعض الآخر هذه المسألة. ثم جاء تتويج شارلمان ليعطى للامبراطورية دفعة جديدة للحياة. وكان ذلك مؤشرا على انتقال السلطة. فقد تراخت قبضة بيزنطة على إيطاليا، وبينما أخذت هيبة بيزنطة تتدهور اتجه البابوات صوب الفرنجة طالبين حمايتهم فى مواجهة البيزنطيين واللمبارديين.

وفى أوساط البلاط الفرنجى ابتكرت نظرية جديدة لتبرير إحياء الامبراطورية فى الغرب. فقد انتقلت الامبراطورية من البيزنطيين إلى الفرنجة، دون أن تفقد خاصيتها الرومانية. ومن ثم ظلت المملكة الرابعة على قيد الحياة. وكانت نظرية «النقل» تحمل فى طياتها عدة تناقضات، إذ أن الامبراطورية البيزنطية كانت ما تزال موجودة، والواقع أنها حظيت باعتراف شارلمان، كما أن حدود الامبراطورية الكارولنجية اختلفت عن حدود الامبراطورية الرومانية. فقد كانت الامبراطورية الرومانية ترتكز على البحر المتوسط، بينما ارتكزت الامبراطورية الكارولنجية على حوض نهر الراين. بيد أن مثل هذه التفاصيل، رغم ما لها من جاذبية، ليست ذات وزن كبير فى القياس. إذ أن مفهوم الامبراطورية واللقب الامبراطورى ظلا قائمين حتى بعد انهيار الامبراطورية الكارولنجية. وكان تتويج أوتو الأول امبراطورا فى روما علامة على أن «نظرية النقل» قد قطعت مرحلة أخرى. فقد «انتقلت الامبراطورية الرومانية من الفرنجة إلى الألمان» هذه المرة. ومهما يكن من أمر، فان هذا كان أقل اثارة للدهشة من انتقالها من البيزنطيين إلى الفرنجة، لأن كلا من الفرنجة والألمان ينتمون إلى أصول بربرية.

لقد بدت امبراطورية السكسون والساليين من بعدهم أقل رومانية من امبراطورية شارلمان. فقد اقتصرت حدودها على الأراضى الواقعة غرب الفلاندرز واللورين، وظلت فرنسا وبريطانيا وشبه الجزيرة الأسبانية وجنوب ايطاليا خارج حدودها، كما احجم الأباطرة السكسون والساليون عن فرض دعاواهم الأمبراطورية على أقرانهم من الحكام. ومن ثم فان مسألة المكانة الامبراطورية لم ترق إلى مستوى الممارسة الفعلية تقريبا. إذ لم يكن الحكام خارج الحدود الفعلية للامبراطورية يعتبرون أنفسهم مجرد ملوك تابعين للامبراطور، رغم أنهم كانوا من الناحية النظرية من رعايا الامبراطورية. فكيف عالج المؤرخون هذا الموقف؟ لقد كانت هناك مؤامرة صمت. ولنأخذ مثالا على ذلك من انجلترا فى كتاب «تاريخ الانجليز» الذى كتبه هنرى الهونتنجدونى حوالى سنة ١١٤٥، فهو يذكر تتويج شارلمان ولكنه لا يذكر شيئا عن تتويج أوتو. وقد عالج، هو وكثيرون غيره، موضوع المملكة الرابعة بالحذف، بل إنهم لم يسألوا ما إذا كانت

المملكة الرابعة قد قسمت بين عشرة ملوك، كما جاء فى نبوءة دانيال، وما إذا كان ذلك بالتالى نذيرا بقدوم المسيح الدجال.

وثمة مؤرخ وحيد قام بمحاولة يشوبها التردد للملاءمة والتوفيق بدلا من مجرد تجاهل نظرية النقل، وهو هوف راهب فليرى Hugh of Fleury (ت بعد سنة ١١١٧). وبدأ هذا المؤرخ بتأليف كتاب عن «التاريخ الكنسى» وفق الخطوط التقليدية، ولم تمثل مسألة انتقال الامبراطورية الكارولنجية أية مشكلة بالنسبة لهوف، ذلك أنه اعتبر شارلمان والفرنجة فرنسيين. وقد وصل بأحداث كتابه عند تقسيم امبراطورية شارلمان بين أبناء لويس التقى. ثم الف كتابا عن الملوك «المحدثين» فى فرنسا منذ موت شارلمان حتى سنة ١١٠٨. وقد فرضت عليه خطته ان يجابه مشكلة العلاقات بين ملوك فرنسا والأباطرة الألمان. ويزعم هوف ان الفرنسيين انفصلوا عن الألمان بعد معركة فونتنوى Fontenoy التى انتصر فيها الملك الفرنسى شارل الأصلع سنة ٨٤١: فهو يقول «**وظلت مملكة الفرنجة منفصلة عن الامبراطورية الرومانية منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا**» ولا ينكر هوف الوجود المستمر للامبراطورية الرومانية التى كان يحكمها الألمان فى عصره، إذ أنه يسجل ببساطة الحقيقة القائلة بأن المملكة الفرنسية لا تنتمى لها. وهكذا بدا وكأنه يواجه التحدى، ثم إذا به يتوقف فى منتصف الطريق. وناقض نفسه حين قبل اعتبار أن الامبراطورية القائمة فى عصره هى المملكة الرابعة، وحين وضح فى الوقت نفسه أن هذه الامبراطورية فقدت صفة العالمية.

وقدر لأحد الألمان أن يمعن النظر والتفكير فى هذه المشكلة، ذلكم هو أوتو الفريزى الذى يتألق بمفرده كمؤرخ مفكر. وقد ساعدته مؤهلاته وخبرته على أن يقوم بالمهمة خير قيام. ولد أوتو سنة ١١١٥ تقريبا وهو من أصل المانى، فأبوه من أسرة بابنبرج Babenberg، وأمه من أسرة ستاوفر Staufer. وعلى الرغم من زواج أبويه، فقد كان هناك عداء قائم بين الأسرتين. وكان للفوضى التى نشبت مخالبها فى بلاده تأثيرا عميقا عليه. ورحل النبيل الشاب إلى باريس طلبا للدراسة، وهناك قرأ فى الآداب واللاهوت. وفى باريس استطاع أن يشهد الخصومات الأكاديمية، حيث توزعت مشاعر الولاء فى نفسه، فقد كان من المعجبين بسان برنار، ولكنه فى الوقت نفسه كان مرتبطا برباط الصداقة مع جيلبرت من لابوريه Gilbert of La Porrée خصم برنار. ثم انضم أوتو إلى طائفة الرهبان السسترشية أتباع سان برنار. وصار مقدم دير موريموند Morimond. وحين تخطى العشرين من عمره تولى أسقفية فريزينج Freising. ويرجع فضل ترقيه السريع إلى بنى جلدته، ولكنه أيضا كان متعلما وقديرا. وباعتباره سليلا للأرستقراطية الألمانية، ومن علماء باريس، وراهبا من اتباع سان برنار، واسقفا فى الرايخ الألمانى، تميز أوتو برؤيته الفردية، وعقليته الفاحصة. وقد بعث كتاب «تاريخ

المدينتين» ـ الذى كتب ما بين سنة ١١٤٣ وسنة ١١٤٥ تقريبا ـ أوروسيوس حيا فى ثوب معاصر.

ويعكس عنوان الكتاب صدى أفكار سان أوغسطين، ذلك أن أوتو انطلق ليكتب تاريخا عن المدينة السماوية والمدينة الأرضية، اللتين ورد ذكرهما فى كتاب «مدينة الله» لأوغسطين. بيد أن القديس أوغسطين كان سابقة مبكرة، ولـذا فإن أوتـو قد اكتشف أن عليه أن يجعل الكنيسة هى مدينة الله. وكان يتفق مع أوغسطين فى رأيه بأن المسيحى المؤمن والشرير على حد سواء يختلطان فى الكنيسة الأرضية، الا أنه كان يرى أنه يجب على المؤرخ أن يتعامل مع الكنيسة باعتبارها مؤسسة بعـد أن اعترف بها قنسطنطين، وليس له فى ذلك أى خيار. وقد أدى به هذا الرأى إلى أن يتخذ من أوروسيوس نموذجا يهتدى به فى كتابه «التاريخ العالمى» إذ يتناول كتابه تاريخ الكنيسة وأعدائها فى إطار تقسيم الزمن إلى عصور ستة وممالك أربع. وتناول تاريخ الكنيسة كمؤسسة بأن شرح أن حالتها كانت «أسعد» ـ بعد ما نالها من أسبـاب القوة والثراء ـ مما كانت عليه ابان الاضطهادات التى تعرضت لها فى بواكير أيامها، بيد أنها لم تكن افضل من الناحية الأخلاقية. لقد كبر أوتو الصورة الأوروسيوسية بأن اضاف إليها تاريخ مؤسستين أخريين هما : التعليم والديانة (التى كان يعنى بها النظم الدينية). وكانت هاتين تعد جزءا من تاريخ الكنيسة.

وفى بحثه عن مفتاح التغيرات التى حدثت منذ زمن أوروسيوس ـ وهو المفتاح الذى سيساعده على رسم التيار الكلى للتاريخ ـ أشار أوتـو إلى الحركـة التى سارت من الشرق إلى الغرب. فقد بزغت مراكز القوى العالمية، سياسيـا، وثقافيـا، ودينيا، فى الشرق ثم تحركت صوب الغرب. وكان تاريخها متوافقا مع العصور الستة، فالملكة أو الامبراطورية، والكنيسة، والتعليم، والدين، شهدت جميعا فترة الصعود والتألق ثم الاضمحلال داخل إطار كل عصر بدوره. وفى رأى أوتو أن المملكة أو الامبراطورية لم تكن عدوا للكنيسة. وأخذ عن أوروسيوس إيمانه بـالدور الايجـابى للامبـراطوريـة الرومانية، ذلك أنها قامت بحماية الكنيسة. أما أعداؤها فهم الهـراطقة والـوثنيون والمسيحيون الأشرار، سواء من القساوسة أم من العلمانيين. فقد هاجموهـا فى كل العصور.

ولكى يبدأ بمملكة عالمية : نظم أوتو الصورة التى رسمها أوروسيوس عن طريق القرائن. فقد تحولت امبراطورية الفرس والميديين المزدوجة إلى الامبراطورية البيزنطية وامبراطورية الفرنجة. فقد انتقلت الامبراطورية إلى الفرنجة حين أحيا كل من شارلمان وأوتو الأول الامبراطورية الرومانية. إذ أن أوتو الفريزى اعتبر الفرنجة والألمان بمثابة شعب تيوتونى واحد. ومن ثم فان انتقال الامبراطورية من احدهما إلى الآخر يعد أمرا

محليا. وحاول الكشف عن الشعب الذى تولى زمام الامبراطورية فى تلك الأيام المظلمة التى أعقبت تصدع امبراطورية شارلمان وحتى تتويج أوتو الأول. فربما كانت الامبراطورية فى ذلك الحين تحت رعاية اللمبارديين الذين كانوا من الشعوب التيوتونية. على أية حال، فالواضح أن المملكة العالمية قد انتقلت من الأسر الحاكمة الشرقية إلى الأغريق ثم الرومان، وبقيت على رومانيتها منذ ذلك الحين. وتشابه مصير امبراطورية شارلمان مع مصير الامبراطوريات الشرقية، وامبراطورية الأغريق والرومان، وهو ما حدث أيضا بالنسبة للامبراطورية الألمانية. ففى جميع الأحوال تأتى البداية فى شكل صعود نجم الامبراطورية عن طريق الغزو، ثم يسود عصر من الرفاهية، تأتى من بعده الهزيمة على أيدى الأعداء فى الداخل والخارج. فقد بزغت شمس الامبراطورية الألمانية عن طريق الغزو، ثم وصلت إلى قمتها تحت حكم هنرى الثالث. وبدأ أفولها إبان عهد هنرى الرابع. وفى هذه المرة لم يحدث أن استعادت الامبراطورية قوتها. إذ أن هزيمة هنرى الرابع (أمام جريجورى السابع) انتصار للكنيسة. واقتبس أوتو نبوءة من حلم التمثال فى رؤيا دانيال (٢ : ٣٣ ـ ٣٤)(٣) تتنبأ بتوقيع قرار الحرمان، والاذلال الذى سيناله أحد الأباطرة على يد أحد البابوات. الا أن انتصار الكنيسة لم يملأ الفراغ الناجم عن انهيار السلطة العلمانية، فقد سادت الفوضى سائر أنحاء الامبراطورية «والممالك الأخرى»، واتخذ أوتو من الحروب الأهلية التى اشتعلت بين ستيفن وماتيلدا فى انجلترا مثالا يبرهن به على أن «الممالك الأخرى» كانت لها مشاكلها مثل الامبراطورية. فماذا يبقى غير انتظار قدوم المسيح الدجال؟. لم يعترف أوتو بأن الامبراطورية قد قسمت بين الملوك العشرة الذين ذكرتهم رؤيا دانيال، بيد أنه كان يعتقد أن الامبراطورية تتدهور نحو التلاشى والاختفاء. إلا أنه كان يفتقر إلى الاتساق فى تناوله للامبراطورية الغربية كمملكة عالمية، إذ أنه منح لقب «امبراطور» للحاكم البيزنطى. كما كان يشير إلى «الممالك الأخرى» دون أن يقرر أنها تنتمى إلى الامبراطورية الغربية. ومن ناحية أخرى، يبدو نموذجه الذى أخذه عن أوروسيوس معقولا فى مجال التاريخ السياسى. حقا إن الامبراطورية الرومانية تدهورت، وفشل الأباطرة حتى فى مجرد الحفاظ على النظام داخل حدودهم.

أما «الدراسة» فقد برهنت على أنها أقل انصياعا لنموذج الصعود والسقوط. فمن

---

(٣) يقول نص الآيتين: «راس هذا التمثال من ذهب جيد، صدره وذراعاه من فضة. بطنه وفخذاه من نحاس، ساقاه من حديد، قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف. كنت تنظر إلى أن قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقها». وقد أوردنا الآية السابقة عليهما لزيادة الايضاح. (المترجم)

المؤكد أن الدراسة قد انتقلت من الشرق إلى الغرب. وهذه الفكرة ترجع أصلا إلى ألكوين الذى نبه شارلمان إلى انه يجب أن يؤسس «أثينا جديدة» فى عاصمته آخن. وكان من الواضح أن الاغريق قد ورثوا الحكمة عن الشرق ثم نقلوها إلى الرومان. والآن ازدهرت الدراسة فى فرنسا وبات واضحا أن التعليم يتركز فى مدارس باريس. وربما كان العلماء فى باريس قد حاولوا جعل نظرية انتقال الدراسة توافق مقتضى الحال، وهو الأمر الذى يتمشى مع الحقيقة لأن المدارس الكاتدرائية فى ألمانيا وحوض الراين كانت قد فقدت جاذبيتها، إذ كان الباحثون يتجهون رأسا إلى باريس إذا ما رغبوا فى الدراسة فى مناطق شمال الألب. وربما يكون أوتو قد التقط الفكرة أثناء اقامته فى باريس. ومن المحتمل أن يكون قد تأثر بهوف راهب سان فيكتور.

وتمثلت الصعوبة فى أنه إذا كان تاريخ الدراسة قد سار على نهج التاريخ السياسى، فقد كان ينبغى أن تسقط الدراسة أيضا فى براثن التدهور والذبول. فالصعود، فالتألق على القمة، ثم التدهور، كلها مراحل تأتى بالضرورة فى ركاب نظرية «النقل». وربما كان أوتو يرى أن عصر ازدهار مدارس باريس قد ولى وفات. إذ أن ما يقوله عن الدراسات المعاصرة له محير لدرجة أنه يمكن تفسيره على أى وجه من الوجوه. فهو لا يحدد رأيه بدقة، كما كان يفعل حين يكتب عن الامبراطورية. وعلى أية حال، فإنه كان يرى أن الدراسة تحركت غربا باتجاه شاطئ الأطلنطى الذى كان نهاية العالم المعروف آنذاك. ومن الناحية الجغرافية، لم يكن ممكنا أن تمتد المدارس إلى أبعد من ذلك، أيا كان طول فترة التدهور. وقد تنبأ شاعر من أوكسفورد فى القرن الرابع عشر بأن حركة الدراسة التالية سوف تكون نحو «**شعوب العالم الخارجى، فى أقصى الغرب**»، ومن المحتمل أنه كان يمزح (لأن الأمريكتين لم تكونا قد اكتشفتا بعد).

أما «الديانة» فكانت متعبة بقدر أكبر من «الامبراطورية» و«الدراسة». فقد كان أوتو يائسا من الامبراطورية، وربما لم يكن راضيا عن مذاهب باريس ومناهجها التعليمية، وهو ما يفسر لنا سر انضمامه إلى طائفة الرهبان السسترشيين، ولم يكن يملك سوى الاعجاب بحركات الزهد الجديدة وقديسيها. وحاول تطبيق نموذجه على الديانة. وكان التناسب تاما فيما يتعلق بالبداية، فقد بزغت الديانة فى الشرق. والعهد القديم حافل بالقصص عن النساك والزهاد المقدسين، كما أن الرهبنة والديرية المسيحية قد ارتبطت فى أصلها بآباء الصحراء[٤]. ثم تحركت صوب الغرب. بيد أنها

---

(٤) كان لتغلغل الفلسفة الافلاطونية الجديدة العميق فى الفكر المسيحى فى القرون الأولى بعد المسيح، بثنائيتها عن الروح والجسد وتحللها من العالم المادى، اثره فى إيجاد الايمان بأن الروح تضمن خلاصها حين تحل الجوانب الروحانية فى الانسان محل الجوانب المادية والجسدية. وقد أحس بعض رجال الكنيسة الذين تميزوا بتقواهم وورعهم الشديد، والذين فسروا الانجيل على هذا

اكتسبت حيوية وروحا جديدة جعلتها أبعد ما تكون عن التدهور والاضمحلال، فقد كانت بمثابة الضوء الذى يلمع فى دياجير الظلام. ويتناول كتابه «تاريخ المدينتين» بالتفصيل مظاهر التغير والتحول فى أحوال البشر كما تبدو من خلال المؤسسات الكنسية. لقد كانت الديانة مختلفة عن كل من الامبراطورية والدراسة لأن القديسين قد سموا بأنفسهم فوق التغير والتحول. إذ يرجع الفضل إلى مزاياهم وسجاياهم فى حفظ العالم المترنح من السقوط: ذلك أنه «**ينبغى علينا أن نتوقع نهاية العالم فى القريب العاجل، ما لم نستمد العون من صلوات الرجال المقدسين ودعواتهم الطيبات**». وربما كان أوتو يتمثل سان برنار فى ذهنه وهو يكتب هذه الكلمات. فقد كان أحد رهبان سان برنار قبل أن يفقد الأخير سمعته كقديس صانع للمعجزات حين أخذ يدعو إلى الحملة الصليبية الثانية التى انتهت بالفشل.

كانت الديانة مزدهرة طالما لم يكن لديها عمل تؤديه، كما أنها لم تتوافق تماما مع التقسيم الزمنى الذى أخذ به أوتو الذى استسلم للبرهان، وهى ميزة نادرا ما توفرت لمؤرخ ربط نفسه بنظرية ما، على نحو ما فعل أوتو. وهو لم يجبر الحقائق على النوم فوق سريره البروكروستينى[٥]. وربما تتدهور الديانة فى المستقبل، لأنها قد أظهرت مرونة غريبة إذ أنها بقيت حية حتى بعد انتقالها إلى الغرب، كما أنها تلكأت فى الانقياد لنموذج الصعود والتألق والسقوط الذى صاغ أوتو نظريته على أساسه. وكان أوتو من الأمانة بحيث اعترف بما كان يواجهه من صعوبات. وتبدو هذه الأمانة واضحة تفرض نفسها على كل من يقرأ كتابه. لقد كان أوتو يتمتع بحس نقدى مرهف استخدمه فى تناول الأساطير المقدسة، ذلك أنه كان يريد دائما أن يولى الحقائق التى يعرفها ما تستحقه من اعتبار. ويظهر هذا الحرص على الحقيقة جليا حتى فى آخر مؤلفاته، وهو كتاب موضوعه ما وراء التاريخ meta history وليس التاريخ. وفيه

— النحو الثنائى العنيف بخطر عظيم على أرواحهم من جراء الحياة فى مجتمع القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد بما ساد فيهما من مظاهر التدهور والانحلال، فهربوا إلى أماكن مقفرة سعيا وراء الحياة الروحانية الخالصة، وكانت الصحراء المصرية خير مكان يلائم مطلبهم. وعرف هؤلاء باسم آباء الصحراء. ومن أوائل هؤلاء الآباء القديس بولس الطيبى (حوالى ٢٥١ – ٣٥٦) والقديس انطونيوس المعاصر له الذى نظم عددا من مستعمرات الرهبان فى صحراوات صعيد مصر يقيم فيها الرهبان فى صوامع منفصلة. (المترجم)

(٥) نسبة إلى بروكروستيس اللص اليونانى الذى تذكر الأساطير أنه كان يرغم ضحاياه على النوم فوق سريره ثم يحاول الملاءمة بين اجساد الضحايا والسرير بالقطع والاضافة، وتقصد المؤلفة بهذه العبارة أن أوتو الفريزى لم يحاول لى عنق الحقائق أو قولبتها فى قالب النظرية التى ربط نفسه بها وإنما ذكر الحقائق على ما هى عليه. (المترجم)

يتناول أوتو ما وراء الطبيعة، ويضع الخطوط العامة للحياة الآخرة حيث يحل الخلود محل الزوال. إلا أنه - حتى وهو يعالج هذا الموضوع - يستمد معلوماته من الكتاب المقدس ومن كتابات آباء الكنيسة دون أن يقحم تأملاته وأفكاره الخاصة.

لم يكن أوتو مؤرخا نمطيا. ولم يحظ كتابه «تاريخ المدينتين» بأى رواج خارج حدود ألمانيا، كما أن كتاب التاريخ لم يقلدوا كتابه لما يتسم به من أعمال للفكر والتأمل. واستمر المحامون الكنسيون فى مناقشة العلاقات بين الامبراطورية والبابوية و «الممالك الأخرى». وقد عمر موضوع انتقال الدراسة من الشرق إلى الغرب كثيرا. لكن أحدا من المؤرخين بعد أوتو لم يحاول أن ينسج من نظرية الانتقال هذه تاريخا عالميا. كما أن أحدا لم يتناول بالدراسة مشكلة التغيرات التى حدثت فى العالم القديم. فهل كان ذلك راجعا إلى الكسل، أو قصر النظر، أو إلى الروح المحافظة؟ هذا ما يستحيل علينا أن نقرره.

وربما يكون أوتو نفسه قد صاغ نظريته فى التاريخ العالمى فى مرحلة متأخرة من عمره. وهناك من الأسباب ما يبرر ذلك. إذ كان الامبراطور فردريك بربروسا Frederick Barbarossa، ابن أخت أوتو الذى تولى عرش الامبراطورية سنة ١١٥٢، قد وضع خططه لأن يعيد للامبراطورية مجدها القديم. ولعبت الدعاية دورا هاما فى حملته؛ إذ كان عليه أن ينشر أمجاد الماضى فى المؤلفات التاريخية. وطلب من أوتو أن يرسل إليه نسخة من «تاريخ المدينتين». وهنا ساورته المخاوف والظنون. إذ لم يكن ما ورد بالكتاب عن اضمحلال الامبراطورية ودمارها ليلقى هوى فى نفس الامبراطور أو يتوافق مع أغراضه على الاطلاق. وقد التمس أوتو لنفسه العذر فى تشاؤمه. وكتب مقدمة يشرح فيها أنه كتب «تاريخ المدينتين» فى زمن تعس كئيب. كما طلب من رينلاند الداسلى Rainland of Dassel المستشار الاعلامى لفريدريك، أن يفسر الكتاب بطريقة لا تثير استياءه. وقد دعم الامبراطور موقف أوتو؛ إذ أنه أبدى إعجابه واستمتاعه بقراءة كتابه؛ إلا أنه قرر أن يوظف مواهب أوتو فى الدعاية لما قام به من منجزات فى سبيل إعادة بناء الامبراطورية. وهكذا وضع أوتو فى موضع الطبيب الذى شخص مرضا قاتلا ثم تعين عليه أن يحتفل بشفاء مريضه. وشرع أوتو فى إنجاز مهمته بعزم وهمة.

وجاء الكتاب الجديد فى موضوع مختلف هو «أعمال فريدريك» كما يقول عنوانه. ولا يتطلب هذا الموضوع تقسيم الزمن إلى فترات أو عصور. واستطاع أوتو أن يركز على القصة الباهرة لعائلة فريدريك، وعلى ما تميز به فى شبابه من بطولة وشهامة. ثم يصل بأحداث الكتاب إلى ارتقاء فريدريك لعرش الامبراطورية، وهنا يذكر أن الصباح المشرق قد انبلج بعد ليلة مظلمة مطيرة. ويعيد أوتو كتابة تاريخ الامبراطورية منذ

الصراع بين هنرى الرابع، وجريجورى السابع حتى تتويج فريدريك، وفقا لرؤية جديدة؛ إذ أنه يبرز صعود أسرة فريدريك، ويخفف من حدة النكسات التى تعرض لها هنرى الرابع وتدهور الامبراطورية. ويحكى عما أحرزه فريدريك من نجاح فى عبارات متوهجة. إذ يصفه بأنه رجل حق: لأنه أعاد بناء الامبراطورية كما جاءت أعماله منسجمة مع الكنيسة، على نحو ما كان أسلافه يفعلون فى تلك الأيام الخوالى المجيدة قبل انفجار النزاع حول التقليد العلمانى. ولابد أن أوتو كان مخلصا فى ثنائه على فريدريك. إذ كان لابد لانجازات فريدريك الباكرة فى ألمانيا وإيطاليا أن تستأثر باعجاب رجل من بنى جلدته وأسقف فى الكنيسة الامبراطورية مثل أوتو. فإلى أى مدى انساق أوتو بسبب هذه الانجازات نحو تعديل رأيه فى نموذج التاريخ العالمى؟ هذا ما لا نعرفه على وجه التحديد. لقد استمر أوتو فى اهتمامه بما يجرى من أحداث خارج الامبراطورية. ولجأ إلى الاستطراد ضاربا عرض الحائط بالتعليمات التى وضعها بنفسه (من حسن الحظ أن هذا قد زاد من قيمة كتابه عن أعمال فريدريك). وفى بعض الأحيان نجده يلتمس العذر لنفسه لعدم التزامه بالموضوع إلا أنه لم يحاول أن يصوغ مادته فى إطار ذلك الهيكل الزمنى الذى استخدمه فى «تاريخ المدينتين». إذ أن الامبراطورية، شأنها شأن الديانة، قد قلبت الاطار الزمنى رأسا على عقب حين عاشت فترة جديدة. واكتفى أوتو بتحذير فريدريك من عجلة الحظ. وربما كان يعتقد أن حركة الاحياء قد لا تستمر. وربما يكون أيضا قد اعترف بأن نموذجه فى التاريخ بحاجة إلى إعادة النظر والتعديل. وإذا كان الأمر كذلك، فإن أوتو قد احتفظ برأيه لنفسه؛ الأمر الذى لا يزال سرا مجهولا.

ويتوقف كتاب «أعمال فريدريك» دون أن ينتهى تأليفه بموت أوتو سنة ١١٥٨. وطلب من القس راهوين Rahewin أن يكمل الكتاب. ووصل به راهوين إلى أحداث سنة ١١٦٠. ويبدو من التكملة أنه كان متمرسا على الكتابة، وأنه كان مؤرخا سليم الحس؛ إلا أن الموضوع لم يكن يتطلب كتابة تاريخية تأملية.

ويرمز اعتدال أوتو وضبطه لنفسه إلى مستقبل الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى. فقد اتخذ خلفاء أوتو من الحاضر بؤرة لأعمالهم، وزاد تركيزهم على الحاضر بشكل مطرد، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التساؤل عن علاقة هذا الحاضر بالماضى.

الفصل الثامن

تاريخ الخدمة المدنية[1]

يوحى مصطلح «الخدمة المدنية» اليوم بصورة رجال تقليديين يشغلون وظائف مأمونة. وقد وجدت الخدمة المدنية فى القرن الثانى عشر؛ بيد أنها كانت تطورا جديدا فى حكومة العصور الوسطى. إذ لم يكن البيروقراطيون قد نعموا بعد باستقرار النظام الوظيفى (الروتين). يقول مارك بلوك[2] فى كتابه القيم عن المجتمع الاقطاعى إن ظهور العامل أو الموظف المأجور كان ايذانا ببدء مرحلة جديدة فى التاريخ الوسيط، فقد تزايد عدد القساوسة الذين يشغلون وظائف الجهاز البيروقراطى الجنينى. وبدأ أولئك «**العاملون ذوو المعاطف السوداء**» يقسمون أنفسهم فيما نعرفه اليوم بالدرجات «الأدارية» و«التنفيذية» فى سلك الخدمة المدنية. وشق بعضهم طريقه نحو الدرجات العليا ووصلوا إلى القمة. بينما ظل الآخرون فى المستويات الأدنى حتى أحيلوا إلى المعاش. وكان أولئك الموظفون يعملون فى خدمة الحكومات، والبلدية، والكنيسة؛ التى كانت جميعها بحاجة إلى المحاسبين والاداريين. وقد رأينا أن وليم راهب سان تييرى قد أحصى «**مجموعات مختلفة من المناصب والوظائف**» فى قائمة المتجددات الملموسة فى عصره. لقد كانت الخدمة المدنية تقدم للشباب فرصة اختيار المهنة أثناء بحثهم عن وسيلة يتعيشون منها، بشرط أن تكون درايتهم طيبة بمبادئ القراءة والكتابة والحساب.

وقد كتب بعض البيروقراطيين التاريخ فى وقت فراغهم، أو فرضت عليهم حياة

---

(١) عنوان هذا الفصل فى الفصل الأصلى civil Service history ، وتقصد به المؤلفة تلك الكتب التاريخية التى الفها فى العصور الوسطى مؤرخون يعملون فى سلك وظائف الخدمة المدنية، سواء بعد تقاعدهم او اثناء وجودهم فى سلك الخدمة كما سيتضح من سياق الفصل. (المترجم)

(٢) كان مارك بلوك Marc Bloch أستاذا فى جامعة باريس قتله النازيون فى سنة ١٩٤٤ بينما كان يحارب فى صفوف المقاومة الفرنسية. ويعد ابرز العلماء الذين قاموا بدراسة التطور الأقتصادى فى العصور الوسطى لا بسبب مساهماته فى التاريخ الزراعى فحسب، وانما بسبب المناهج والمفاهيم التاريخية التى أرسى دعائمها، وتأثيره على جيل بأسره من العلماء الفرنسيين المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى. وهو يؤمن بأن النظم تكتسب أهميتها بما لها من وظائف اجتماعية. ويمكن بشئ من التساهل أن نعتبر أن مارك بلوك وتلاميذه بمثابة المدرسة الأجتماعية فى التاريخ الوسيط. (المترجم)

الفراغ بحيث عكفوا على كتابة مذكراتهم. وقد نتوقع من الموظف المدنى الذى يكتب التاريخ أن يكون أسلوبه مختلفا عن الأسلوب الذى يستخدمه الرهبان وهذا ما حدث بالفعل. فقد كانت نظرته للأمور مختلفة، كما انه تميز بخبرته المباشرة بما يكتب عنه. فغالبا ما كان عمله يزج به فى غمار أحداث التمرد والعصيان وغيرها من الاضطرابات؛ وذلك لأنه لم يكن يحيا تلك الحياة الوادعة الآمنة التى يعرفها من يعيشون فى دهاليز الاديرة وأروقتها. وأول مثال نتناوله عن تاريخ الخدمة المدنية كتاب بعنوان «مصرع شارل الطيب».

وهذا الكتاب قطعة ثمينة فى مجال التدوين التاريخى. ومؤلفه **جالبرت البروجى** Galbert of Bruges، الذى كان يعمل مسجلا العقود والوثائق بمجلس القساوسة فى كاتدرائية المدينة. وكان من أفراد الجهاز التنفيذى، لأنه كان كاتبا متواضع الدرجة، ولم يكن له دخل من أوقاف الكنيسة فيما نعلم، وربما كـان يتعيش من راتبه ومن الرسوم التى كان يتقاضاها عن عمله. وكانت المناسبة التى كتب عنها هى مصرع الكونت شارل أمير الفلاندرز Count Charles Of Flandres بينما كان راكعا يصلى فى الكاتدرائية. وكان الذين اغتالوه من افراد اسرة ارلمبالد Erlembald القويـة، ذات الأصل الحقير. وكان الكونت شارل قد بيت النية على تحقيق أصلهم، وربما كان ينوى أن يعيدهم إلى حالة القنية مرة أخرى. فكان أن لجأوا إلى هذا التصرف اليائس فى سبيل انقاذ انفسهم. وبعد الاغتيال احتلت الأسرة قلعة بروج Bruges، التى كانت بجوار الكاتدرائية، ثم اشعلوا نيران الحرب فى الريف. وامتد لهيب الحرب إلى سائر أنحاء كونتية فلاندرز. ومن المؤكد أن الوقت اللازم للكتابة قد توفر لجالبرت، لا سيما وأن المتمردين قد نقلوا محفوظات مجلس القساوسة إلى القلعة، وبالتالى لم يعد بامكانه أن يستمر فى عمله كموثق للعقود والسجلات. وحرص على أن يسجل تقريرا يوميا عن الأحداث التى كانت تجرى من حوله. وقد اضطر إلى الاستمرار فى المهمة التى اخذها على عاتقه، إذ كان يشعر أنها نوع من الاجبار، فقد كان يعتبر مهمته هذه «**شرارة صغيرة من الاحساس**». وهنا نفتقد العذر الذى كان الكتاب السابقون يسـوقونـه ويذكرون أنهم يكتبون مؤلفاتهم تلبيةلطلب ما. لقد كان جالبرت يكتب بمبادرة ذاتية، وكانت كتابته متجددة ودقيقة، كما كان هو دقيقا فى حرفته.

ولأن الكونت الصريع لم يخلف وريثا، فقد ظهر وليم كليتو Willian Clito، الذى كان يحظى بمساندة ملك فرنسا، ليطالب بحكم الكونتية. وكان لابد أولا من إخراج المتمردين من القلعة، فقد كانت السيطرة عليها تعنى السيطرة على المدينة بأسرها.

وانتهز سكان مدينة بروج ومدينة جنت Ghent المجاورة الفرصة وانتزعوا من سيدهم الجديد عدة تنازلات. إذ أن سكان المدينتين اجتمعوا سويا ليبيعوا مساعدتهم لقاء الوعود المبذولة. وكانت تلك خطوة جديدة ماهرة فى سبيل كسب حريتهم والتحرر من الاعباء التى كانت تثقل كواهلهم من قبل الكونت. وبذل كليتو الوعود لأفصال الكونت الصريع والذين كانت حقوقهم فى فرض الضرائب قد ألغيت. وساعده سكان بروج وجنت على هزيمة المتمردين بعد نضال مخيف، ثم تمردوا بدورهم عليه حين تنكر لوعوده التى بذلها لهم، ذلك أنه كان أشبه بمن يدس يده فى جيوب الآخرين. وأدى طرد كليتو من أراضى الفلاندرز إلى المزيد من الحروب. فقد حاول أدعياء جدد فى عرش الكونتية أن يجربوا حظهم فى غزوها (كان عددهم أربعة) وتتبع جالبرت سلسلة الأحداث المتداخلة حتى إعادة إقرار السلم. ثم أضاف مقدمة وعدة فصول لشرح أصول النزاع.

وقد وجه جالبرت كتابه هذا إلى أهل بروج «**وكل المخلصين**». وكان يمتاز بتضامنه مع سكان مدينته، رغم سلوكهم الخاطئ ، الذى كان هو أول من اعترف به. وهو يلوم ملك فرنسا، والنبلاء، ورجال الكنيسة والسكان دون تحيز أو محاباة، ذلك أنهم جميعا ارتكبوا الجرائم والحماقات. وكان قادرا على رؤية جانبى المشكلة، فقد كان قتلة الكونت شارل مدانين بالخيانة، وانتهاك الحرمات الدينية أيضا ولذا فإنهم جديرون بما نالهم. ومن ناحية أخرى، كان من الطبيعى أن يحاربوا فى سبيل الحفاظ على وضعهم ومكانتهم. وبفضل ذهنه المتفتح لم يقع جالبرت فى منزلق الثقة المفرطة بالعناية الألهية. إذ أنه كان فى البداية يرى المتاعب على أنها عقاب أنزله الرب جزاء على خيانة الناس لحكامهم، وهو الأمر الذى يحرمه الكتاب المقدس، ثم صارت القصة أشد تعقيدا، وها هو ذا يعترف بحيرته. وقد توفر له وضوح الرؤية بفضل ما ناله من تعليم، كما أنه لم يعتمد على سويتونيوس فى رسمه للشخصيات التى تنبض بالحيوية. لقد احسن جالبرت استغلال الفرصة التى سنحت له، كما جدد وابتكر.

والقصة التى أوردها جالبرت عن الاغتيال قصة فريدة لا مثيل لها. أما المثال الثانى الذى أقدمه فى هذا الصدد فهو «حوليات جنوا»، وهى مختارة من بين عدة حوليات ومدونات تاريخية خاصة بالمدينة. وكانت جنوا تختلف عن بروج، فقد كانت المدن الفلمنكية تدين برخائها المطرد إلى صناعة المنسوجات ولذا كان على سكان المدينة أن يؤمنوا أرباحهم ضد الجهود التى يبذلها السيد الاقطاعى من أجل ابتزازها عن طريق فرض الرسوم والاشراف على حكومة المدينة. أما رخاء جنوا فكان قائما على

أساس التجارة البحرية. إذ أن مواطنيها اتجهوا صوب البحر لأن اراضيهم الجبلية التى تكتنف الساحل دفعتهم إلى ركوب البحر. وكون التجار الجنويون ثرواتهم عن طريق التجارة البحرية، والحروب البحرية ضد المسلمين والقراصنة. وكانت هناك عائلات ثرية معدودة تدير شئون المدينة. ومن الناحية القانونية، كان الامبراطور هو سيدهم، بيد أنه كان يفتقر إلى الوسائل التى تمكنه من التدخل فى شئونهم. كما أنهم دفعوا بأسقف المدينة إلى مركز متواضع بحيث أصبح عامل مساعدة أكثر منه عقبة فى سبيلهم. ومنذ وقت مبكر تطورت أساليب الأعمال التجارية من حيث الحسابات، والاستثمارات المشتركة، والتأمين ضد أخطار الملاحة فى أعالى البحار. ولذا كان ينبغى على التاجر ومن يعملون فى خدمته أن يكونوا متعلمين.

كذلك كانت حكومة المدينة تتطلب أن يكون المرء متعلما. إذ كان التجار من أبناء أغنى العلائلات يعملون كمستشارين، ويذهبون فى سفارات لدى القوى الأجنبية المعاصرة. وكان كفارو Caffaro، أول كتاب الحوليات الجنويين، رجلا متعلما وسليلا لأسرة حاكمة، أى انه ولد فى أوساط السلطة الادارية. كما أنه ساهم بنصيبه فى معترك السياسة والحرب. ويقارنه الناشر الذى تولى نشر مؤلفاته بيوليوس قيصر؛ إذ أنه لم يكتب التاريخ فحسب، وإنما شارك فى صنعه أيضا. ففى سن العشرين ذهب فى حملة صليبية برفقة البعثة الجنوية إلى فلسطين،حيث حارب فى معارك الحصار وزار المدينة المقدسة. وتبدأ حوليته بسنة ١٠٩٩، وهو اختيار واع، لأن هذه السنة كانت بداية لمرحلة جديدة فى تاريخ المدينة، فقد تشكلت أول حكومة قومونية، كما اقلعت منها حملة بحرية كبيرة بشكل لم يسبق له مثيل. وقدم كفارو حوليته إلى مستشارى ومجلس جنوا سنة ١١٥٢، وحرص على أن تكون مواكبة للأحداث المعاصرة. فأمروا بنسخها على حساب المدينة، لأن هذه الحولية سوف تحكى للجنويين عما حققته مدينتهم من انتصارات حتى آخر الزمان. وظل يدون حوادث حوليته حتى مات سنة ١١٦٦ وهو فى سن الثمانين.

وهذه الحولية مكتوبة بلغة واضحة خالية من الزخارف والمحسنات البديعية المصطنعة. وكاتب الحولية لا يتواضع، بل يذكر تجربته الخاصة كما يذكر أنه استطاع الوصول إلى محفوظات المدينة. وحين لا تكون هناك ضرورة تحتم ذلك، يمدنا بالتفاصيل الدقيقة عن مالية المدينة، ومقاييس المبانى، وعدد السفن التى خرجت للغزو. كما يقدم لنا تقريرا غير مسبوق عن المجالس الامبراطورية والبابوية. كان هدفه تمجيد جنوا، ولذا فإنه يعترف أنه يمر على فترات الضعف فى تاريخها مر الكرام.

إن روح جنوا، المدينة الصغيرة، هى التى رفرفرت على البحر المتوسط بأسـره. وتكشف أفكـاره السياسيـة عن تلك النظـرة العملية التى ميـزت المدن – الـدول الأيطالية. وهو يعالج الصراع بين البابا والامبراطور معالجة بارعة. فقد استطاعت جنوا أن تكسب من كل من الطرفين. إذ كان فريدريك الأول بحاجة إلى المال لتمويل حملاته فى إيطاليا، ولذا فإنه عرض امتيازات المدن للبيع. وتلقى الجنويون امتيازات امبراطورية خاصة، رغم أن كفارو يتغاضى عن أنهم قد اضطروا إلى دفع مبالغ طائلة. وقد أقام الباباإسكندر الثالث فى جنوا حين أرغمه النزاع مع فريدريك على الهرب إلى فرنسا، وكان الميناء هو طريقه إلى الهرب، ولذا فإنه بذل وعدا خاصا لمواطنى الميناء. واكتفى كفارو بأن يكتب فى حـوليته عن أن روح الشر هى التى أثـارت الخلاف فى الكنيسة، ولم يزد على ذلك. ولم يذكر ما كان يعرفه من أن البابوية كانت تـرى أن فريدريك منشق يستحق لعنة الحرمان لأنه منح الامتيازات لجنوا. ولماذا تنحاز إذا كان بمقدروك أن تلعب عـلى الحبلين؟ إن هـذا السؤال يعبر عن مـوقف الجنويـة الانتهازى. فقد كان البيازنة هم أعداء جنوا الحقيقيين، لأنهم كانوا أهم منافسيها البحريين. وكان يكرههم أكثرمن كراهيته للمسلمين الذين كانت قوتهم البحريـة قد تدهورت. أما الأعداء داخل الوطن، فكانوا نبلاء الريف الذين شكلوا خطرا ماثـلا يتهدد السلام، فقد كانوا بطبيعة الحال معادين للمجتمـع التجارى. ولم يكن ثمـة ما يدفعه إلى معاداة رجال الكنيسة، فقد قلمت أنياب الاكليـروس بحيث لم يعودوا يشكلون اى خطر، إلا أن عقليته العلمانية تتضح من خلال روايته عن احدى حوادث الحريق الخطيرة. ولابد لأى مؤرخ ديرى أن يـرجع فضـل السيطرة عـلى النيران وإخمادها إلى القوى الاعجازية للقديسين المحليين، ولكن كفارو يمتدح المواطنين الذين أطفأوها بجهودهم الذاتية.

ويشترك كفارو مع جالبرت بشكل عام فى أن روح العصبية Esprit de corps أو الولاء للجماعة تميز كلا منهما. إذ أن كلا منهما قد ربط نفسه بمدينته، وكان هذا موقف جالبرت إبان حوادث الاقتتال الدموية وظروف البؤس التى حاقت ببروج نتيجة الحروب الأهلية، كما فعل كفارو الشىء نفسه أثناء تألق جنوا وصعودها إلى مركـز القوة. وبالنسبة لجالبرت كانت بروج هى «**مدينتى سواء كانت على صواب أم خطأ**»، ضاربا عرض الحائط بمقاييس الصواب والخطأ. أما كفارو فلا يكاد يشعر بوجود هذه المقاييس الاخلاقية إذا كان الأمر يتعلق بمصالح جنوا.

ويعود بنا حنا السالسبورى John of Salisbury إلى الأوساط الكنسية المتعلمة. فقد

كان مديرا اكاديميا فى سلك الكنيسة. واتاحت له السنوات الطوال التى قضاها دارسا بفرنسا فرصة لقاء افضل اساتذة العصر. وفى سنة ١١٤٧ انضم إلى بيت تيوبالد كبير اساقفة كانتربورى Theobald of Canterbury وقد برهن حنا على أنه كاتب خطابات حاذق، ثم ترقى حتى صار السكرتير الخاص لتيوبالد. وهو يـوصف بأنـه اكاديمى فاشل. وربما كان يفضل أن يقوم بالقاء الدروس فى المدارس لو أنه كان قد نجح فى ايجاد وظيفة لنفسه وفى ايجاد مصدر يتعيش منه أيضا. بيد أن وظيفته كسكرتـير اتاحت له من وقت الفراغ ما استغله فى القراءة والكتابة من جهة، كما وفرت له النقود اللازمة لشراء الكتب من جهة أخرى، رغم أن ذلك لم يكن كافيا لارضائه على الاطلاق. وسافر أيضا الى خارج البلاد فى مهام دبلوماسية، حيث قابل أساتذة لامعين وطلابا ودارسين. كما كان يخالط الأمراء، والكرادلة، والبابوات دون أدنى قيود.

ومن بين كتابات حنا العديدة لايوجد سوى مؤلف تاريخى واحد بالمعنى الدقيق للكلمة. وجعل عنوانه «تاريخ البابوات» Historia Pontificalis وقد ترجم الى «تاريخ البلاط البابوى» فى مرحلة لاحقة. وكان حنا يطمح الى كتابة تاريخ كنسى على النسق الذى اتخذه أيوسبيوس. وقد قرأ ما أتيح له من كتب التاريخ فوجد أن أحدا لم يعالج الأحداث التى وقعت بعد مجمع رمس سنة ١١٤٨. ومن ثم فقد اتخذ من هذا المجمع بداية له، وقدم من التفاصيل الكاملة عنه ما لم يقدمه عن مصادره، ذلك انه حضر هذا المجمع بنفسه مع كبير الأساقفة. وقد اختار البلاط البابوى ليكون البؤرة التى يتركز كتابه حولها. وكانت هذه طريقة عقلانية عولج بها تاريخ الكنيسة فى منتصف القرن الثانى عشر حين كانت حكومة البابوية Curia فى طريقها لأن تصبح مركز الحكم فى العالم المسيحى اللاتينى بأسره. لقد كانت كل الطرق آنذاك تؤدى إلى روما؛ أى حيث يوجد البابا، واستطاع حنا ان يستطرد إلى أمور الكنيسة فى بلاد أخرى ترتبط برباط التبعية مع روما. ومذكراته كما وصلتنا تتوقف عند سنة ١١٥٢. وربما يكون قد ظل يكتبها حتى سنة ١١٦٤. ورغم وفاة تيوبالد فقد ظل حنا يحتفظ بوظيفته فى الهيئة الأسقفية، ثم أرغمه النزاع الذى نشب بين بيكيت وهنرى الثـانى على اللجـوء إلى فرنسا. وقد اتاح له النفى فرصا أوسع للكتابة.

وكتاب Historia Pontificalis عبارة عن مذكرات عالم دبلوماسى، يستعيد تجاربه من الذاكرة ويسجلها، وقد استطاع حنا من خلال أصدقائه من ذوى المناصب الرفيعة أن يحتفظ بقصب السبق فى الحصول على الأنباء. والكتاب خال من اللغو والزخارف البلاغية. إذ تبدو الخطب التى حواها الكتاب كما لو كانت تقارير حرفية منقولة عن الذاكرة أومأخوذة من مذكرات دونت قبل ذلك مباشرة. وتوفرت لحنا فرصة القراءة الجيدة بسبب حرصه وحذقه، فهو ينتقد كل شخص تقريبا، فيما عدا تيوبالد، كما أنه

يروى النوادر والفكاهات. وكان له انحيازه: ولكن، من من الدبلوماسيين لا ينحاز؟ لقد كان حنا مواليا للفرنسيين وعدوا للألمان. ولأنه كان رجل كنيسة لاغبار عليه، ويكتب من أجل صديق يتوافق معه فكريا هو «بطرس دى لاسل» Peter de La celle فانه لم يشعر بحرج وهو يطلق أحكامه القاسية على البابا والكرادلة. وقد أتاحت له الزيارة التى قام بها مبعوثان بابويان لألمانيا فرصة عظيمة للنيل من المبعوثين ومن الألمان على حد سواء. وعلى أية حال، فانه حاول جاهدا أن يتوخى العدل، ويبرز من ثنايا روايته عن مجمع ريمس مايتميز به من عدل وكياسة فى عرض موضوعه. وقد استحقت روايته هذه، ما اشتهرت به من أنها جهد مدقق فى عرض كل من طرفى النزاع. ويصف حنا محاكمة استاذه السابق «جلبرت دى لابوريه» ـ الذى كان اسقف بواتييه فى ذلك الحين ـ بتهمة الهرطقة التى وجهها اليه «سان برنار من كليرفو» وكان حنا معجبا بجلبرت كرجل وكعالم، كما كان يبجل سان برنار كقديس. فضلا عن أن برنار كتب تزكية لحنا دون أن يراه، حين ترك المدرسة وأخذ يبحث عن وظيفة. كما كانت ثمة التزامات شخصية لحنا تجاه برنار الذى أبدى ثقته به حين أوفده كرسول الى جلبرت بعد محاكمة الأخير. كان برنار يرى فى جلبرت مصدر خطر بما يلقيه من دروس الباطل، بينما كان جلبرت يعتبره مجرد هاوى ودخيل على الحياة الأكاديمية. وبذل حنا اقصى ما فى طاقته من أجلهما. إذ يوضح ان كليهما كان حسن النية، وهو يتعاطف مع جلبرت كرجل عقلانى مثقف، ولكنه يحترم دوافع برنار باعتبارها «غيرة على بيت الرب». وروايته عن اجراءات المحاكمة، وعن تهم الهرطقة التى وجهت إلى جلبرت، رواية تتسم بالحذر رغم انه اعتمد فيها على الذاكرة. وقد تمكن من معرفة جميع الأسرار بفضل ما كان يحاك من دسائس فى الخفاء، وبفضل تشابك المصالح الذاتية. ودائما ما تجذبنا المذكرات الى قراءتها إذا ما كنا نعرف شيئا عن الأشخاص الذين تدور القصة حولهم. ورغم أن اصدقاء حنا ـ وعلاقاته بهم وبغيرهم ـ يحتلون مكانهم فى مصادر أخرى معاصرة، فانهم لايظهرون بهذه الحيوية سوى فى كتابه.

لقد عمل مؤرخو الخدمة المدنية زمنا طويلا فى خدمة الحكومات البلدية والكنسية. ففى انجلترا، شهد عهد هنرى الثانى (١١٥٤ - ١١٨٩). نمو ما يشبه الأداة الحكومية الحديثة. وكان موظفو هنرى موظفين ملكيين أولا وأخرا، ولكن أرقاهم تعليما كانوا يؤمنون بأنهم موظفون عموميون أيضا. وأضاف هنرى الى تقاليد الحكم الرومانى القديمة مفهوما جديدا. إذ كان الامبراطور الرومانى يمسك بزمام السلطة العامة من أجل الصالح العام utilitas republicae، على الأفراد أن يتخلوا عن مصالحهم الخاصة فى سبيل الصالح العام. كما كانت المؤلفات التاريخية التى دونت فى العصور الوسطى الباكرة تصور الملك فى صورة القائد الحربى، وعادة ما كان رجال

الكنيسة يقيمون حكمهم عليه على أساس ما فعله لحماية الكنيسة. ولكن المفهوم القديم القائل بأن « السلطة العامة » حق خاص بالحاكم وحده ظل راسخا فى وجدان تلك العصور، وهذا المفهوم هو الخلفية التى بنى عليها «ريشر» ادعاءه بأن هوف كابيه «**ارسى القوانين واصدر التشريعات**» وذلك أن ريتشر جعل أعمال الملك تتواءم مع افكاره عما يجب على الحاكم أن يفعله.

والحقيقة أن هنرى الثانى كان يعقد الجلسات القضائية، التى تصدر عنها المراسيم الادارية والقانونية، كما أنه أصلح الاجراءات القضائية. وكان لاصلاحاته هدف مزدوج. فقد ملأت خزانته بالمال، كما شددت من قبضته على مملكته، وفى الوقت نفسه افادت اصلاحاته ملاك الأراضى بأن وفرت لهم اجراءات قضائية أكثر سرعة وعدلا. واستفاد ملاك الأراضى من اصلاحات هنرى، كما أن الملك أبدى اهتماما شخصيا بتحسين حكومته وتطويرها. فأحاط نفسه بالخبراء القانونيين الذين أفاد من مشورتهم فى صياغة مشروعاته.

وكان الموظفون المدنيون يولون اهتماما خاصا بالبناء والتشييد، وكان هناك ما يدعو موظفى هنرى إلى الفخر به، فقد أعجبوا بما قام به من اصلاحات، كما أنهم شاركوا فى ابتكار الأساليب الجديدة وساهموا فى الاشراف على تطبيقها. ولذا فقد كتبت عدة أبحاث فنية عن الحكومة منها « الحوار بين وزراء المالية » و « فى قوانين انجلترا » على سبيل المثال، وثمة نموذج طيب للمؤلفات التاريخية التى يكتبها موظفون احيلوا إلى الاستيداع، تلكم هى مدونة **روجر الهاودنى** Roger of Hawden.

واكتسب روجر لقبه من بيت القسيس الذى كان يعيش به فى يوركشير. وكان يحمل لقب « استاذ » وفى ذلك الوقت كانت الدرجات العلمية قد بدأت تصبح بمثابة جواز المرور إلى وظائف الخدمة المدنية. ودخل فى خدمة هنرى حوالى سنة ١١٧٤. وقد أتاح له عمله هذا سبيل التعرف على الجوانب العابسة والمشرقة فى الجهاز البيروقراطى للأسرة الأنجوية(٣). وخدم روجر فترة متصلة ما بين عامى ١١٨٥و١١٩٠ فى وظيفة قاضى الغابة. وكان قضاة الغابات هؤلاء يجوبون أنحاء البلاد لعقد محاكم الغابات حيث يصدرون أحكامهم على من يمارس الصيد فى الغابات دون تصريح، أو غير ذلك من المخالفات التى تنتهك قانون الغابة. وكانت قوانين الغابة هى أكثر جوانب الحكم الانجوى ارهاقا للناس، وأقلها مدعاة لرضاهم. ثم استقال روجر من وظيفته لكى يذهب فى صحبة عدد قليل من أهل الشمال للمشاركة فى الحملة الصليبية الثالثة.

---

(٣) نسبة إلى اسرة انجو Angouوهم الملوك الانجليز من هنرى حتى ريتشارد الثانى (المترجم)

عندما عاد للوطن سنة ١١٩١ استقر فى هاودن لكى يؤلف كتابه. وكانت وفاته سنة ١٢٠٢/١.

ويسمى كتابه «مدونة Chronicle». ولم يكن روجر يقصد أن يكتب تاريخا تزينه لزخارف الأدبية، كما أنه لم يحفل بالتحليلات السببية. وأهم ما يسترعى النظر فى المدونة أن روجر أفرد مساحة كبيرة فيها للكلام عن اجراءات الحكومة، وسجل الوثائق باعتبارها أدلة على ما يقول، كما أوضح تفاصيل الحياة الادارية بما سلطه عليها من أضواء معلوماته الخاصة. وكان ذلك نمطا جديدا فى التوثيق. إذ كان أيوسيبيوس قد ضمن كتابه الوثائق لكى يبرهن على أن الكنيسة انتصرت على مضطهديها وانتزعت منهم الاعتراف بوجودها. كما فعل المؤرخون الديريون الشىء نفسه فيما يختص بجماعاتهم. كذلك قام برونو بتوثيق كتابه «حرب السكسون» لكى يبرىء ساحة السكسون. أما روجر، فقد أراد أن يحتفظ لهنرى بمكانته كمصلح يستحق الاعجاب، بيد أننا نلاحظ مدى المتعة التى يصف بها كيفية أداء الحكومة الملكية لعملها. إذ كان يحترم طاقة هنرى وقدرته على ابتكار الوسائل الاصلاحية، كما لفت نظره اهتمام هنرى بارساء العدالة : فهو يذكر أن الملك قد عارض قرارا اتخذه كبير القضاة لأنه كان يعلم أن الأخير طرف فى خصومة شخصية مع المدعى عليه. كذلك كانت لروجر نظرة سديدة فيما يتعلق بالشئون الخارجية. كما كان يفهم دور المال، فقد ذكر أن حملة الأمير جون إلى ايرلندا قد فشلت لأنه كان مقترا فى الدفع للجنود والمرتزقة الذين استخدمهم. وتكشف لنا قراءة المدونة عن أن روجر كانت له عيوبه، فهو لا يتوقف للتأمل والتفكير فيما يكتبه، كما أن عدم الاتساق فى كتابته لم يكن ليزعجه من قريب أو بعيد. كذلك كان ذهنه مشوشا فقد كان ينتقل من جانب إلى آخر وهو يروى قصة النزاع، لأنه كان مواليا لكل من بيكيت وهنرى على حد سواء. أما مبادئه الدائمة أو تحيزه ـ فكانت ضد كبير الأساقفة، والمبعوثين البابويين الذين كان يكرههم من جهة، وكان ولاؤه لهنرى الذى وقف بجانبه مؤيدا اياه ضد المتمردين والأعداء الأجانب من جهة أخرى. والحقيقة أنه كان محصورا بالحدود التى كان يقبع داخلها باعتباره اداريا من الدرجة الثانية.

أما الأستاذ **رالف الديسى** Ralph of Diss فى نورفولك، فكان أعلى قدرا من روجر الهاودنى ومن أى مثقف آخر. فقد درس الآداب واللاهوت، وربما كان يقوم بالتدريس فى باريس أيضا. وشق طريقه فى الحياة العملية فى كنيسة سان بول St. Paul الكاتدرائية بلندن حيث تولى عدة مناصب مختلفة حتى وصل إلى منصب عميد الكاتدرائية سنة ١١٨٠، ويعد رالف «موظفا مدنيا دبلوماسيا»، وقد استخدمه الملوك الأنجويين فى البعثات والسفارات التى كانوا يوفدونها إلى الحكام المعاصرين باعتباره

خبيرا له مكانته فى المسائل القانونية والادارية. وقد جعله منصبه كعميد مسئولا عن رعاية شئون الضياع الكاتدرائية، كما تميز بكفاءته الادارية التى لانظير لها أثناء رئاسته لكاتدرائية سان بول بلندن. وتصفه المراسيم الكنسية بأن «**العميد الطيب**». أما أعمال رالف ومؤلفاته التاريخية فتضم مدونة عالمية قصيرة هى «مختصر المدونات التاريخية The abridgement of chronicles، التى تصل بحوادثها إلى سنة ١١٤٧، وكتاب أكبر حجما عنوانه «صور من تأملات التواريخ». ويبدأ هذا الكتاب بتنصيب هنرى فارسا فى سنة ١١٤٨ ويستمر حتى سنة وفاة المؤلف. وقد أعد رالف لهذا الكتاب ملفا كبيرا جمع فيه مادة الكتاب على مدى سنين عديدة. وفرغ من مسودته الأولى سنة ١١٩٠. وقد كتب رالف «صور التاريخ» على شكل حولية. وفيه يركز على انجلترا. وإن كان يورد بعض الملاحظات على الشئون الخارجية. ويكتب رالف عن نفسه حين يعرض للأحداث التى شارك فيها بنفسه. إذ أنه كان من الأهمية بحيث لم يكن بحاجة إلى أن يقحم نفسه فى سياق ما يكتبه. وإذا كان ثمة ضعف يشوبه، فهو أنه يدون نسخا من الخطابات التى كتبها لأصدقائه يسدى إليهم النصح والمشورة، إلا أن مشورته ونصائحه كانت مرغوبة آنذاك. إذ كان الناس يستشيرون العميد باعتباره رجلا ناضج العقل.

كان مفهوم «السلطة العامة» نبراسه فيما كتبه عن الحكومة الملكية. لقد وصف روجر الهاودنى كيف وضع هذا المفهوم موضع الممارسة الفعلية، أما رالف فقد ربط بين النظرية والممارسة الفعلية. ونسخ فى كتابه ما أصدره هنرى الثانى من أحكام، كما نسخ سجلات جمع الضرائب، وقوانين الغابة، وما إلى ذلك فى حوليته مدفوعا بحرارة رضاه وموافقته على ما يحدث من تطورات. ومن هذا كله يظهر لنا كيف استخدم هنرى سلطته العامة فى صالح المجموع. ولم تكن هناك سلطة عامة تحفظ السلام فى أيرلندا قبل أن يغزوها هنرى الثانى، الذى كان يرى أن السلطة العامة ينبغى أن تجب المصالح الخاصة. وثمة فقرة كتبها رالف فى حوادث ١١٧٩ نقتبسها فيما يلى:

«كان الملك يريد مساعدة أولئك الرعايا الذين لا يمكنهم حتى مساعدة أنفسهم، لأنه اكتشف أن العمد يستخدمون السلطة العامة لتحقيق مصالحهم الخاصة. ومن ثم فإن الملك، فى غمرة غيرته المتزايدة على الصالح العام، أوكل الحقوق القضائية إلى رجال آخرين مخلصين من رعاياه، وذلك حتى يتسنى لممثلى السلطة العامة أن يرهبوا المقصرين والجانحين عن سواء السبيل عند زيارتهم للقاطعات.. وأولئك المذنبون الذين أخطأوا فى حق الجلالة الملكية لابد وأن يجلبوا على أنفسهم الغضب الملكى..»

ويستمر رالف فى كلامه فيحدد الاجراءات التى اتخذها هنرى فى سبيل الحد من سلطات العمد فى الحكومة المحلية، وذلك بإرسال القضاة الملكيين الدوريين إلى أنحاء البلاد. كما يركز على اهتمام هنرى بإرساء قواعد العدالة فى جميع أنحاء مملكته وتجاربه فى السيطرة على مندوبيه. وكان يأمل فى أن يستخدم هنرى سلطاته العامة لحماية الضعيف فى مواجهة القوى. أما عن المدى الذى ذهب إليه هنرى فى سبيل تحقيق ذلك، فهناك مسألة أخرى، ذلك أنه من بين الملوك الثلاثة الذين ورد ذكرهم فى كتاب « الصور». نجد أن رالف يفضل هنرى لأن الأخير أبدى مهارة أكبر فى تسيير سفينة الحكم، ويأتى ريتشارد الأول فى مرتبة أدنى رغم مآثره العسكرية وبطولاته. أما جون فقد لطخ تاريخه حقا حين تمرد على أبيه وأخيه الأكبر عندما كان مايزال أميرا.

ويمكن لمفهوم السلطة العامة ـ التى تستخدم للصالح العام ـ أن يقودنا إلى مفهوم الدولة القومية. ومن المهم أن نرى ما إذا كان رالف الديسى قد سار خطوة انتقل بها من مفهوم إلى آخر، أو ما إذا كان لديه أى تصور لانجلترا كوطن قومى. فحين وصف رالف إحدى حركات التمرد أو العصيان نجده يركز على وجوب طاعة المرء لسيده وولى أمره وإخلاصه له. باعتبار أن هذا هو المقياس الذى نحكم بـه عليه. وهـو لا يلوم المتمردين باعتبارهم خونة لوطنهم. ويتركز ولاؤه لبيت أنجو الحاكم على نحو يجعله أكبر من ولائه لانجلترا التى لم تكن سوى جزء من أملاكهم. فقد ولد الأنجويون لآباء مختلطى الجنسية ما بين نورمان، وانجويين. وفرنسيين، وكانت أملاكهم الفرنسيـة تمتد من القنال الانجليزى حتى جبال البرينيس. وعلى أية حال كان رالف متحيزا ضد الشعوب التى تعيش خارج حدود فرنسا، فعلى هذه الحدود كانت تعيش شعوب غير متحضرة مثل السكسون بقلوبهم المتحجرة، والنمساويين بعاداتهم القذرة، بينما كانت صقلية تنجب الطغاة. والواقع أن مشاعر كراهية الأجانب عبرت عن نفسها بصيغة ما قبل أن يفرض ما نسميه « الشعور القومى » نفسه على الوجود، وقد تركت كراهية الأجانب هذه بصماتها على التدوين التاريخى.

وثمة سؤال ثان يطرح نفسه، كيف أثرت فكرة رالف عن السلطة العامة التى تمثلها الملكية على عرضه للصراع الذى نشب بين مليكه من ناحية وكبير الاساقفة الذى يتبعه رالف من ناحية أخرى؟ إن النزاع بين هنرى وتوماس بيكيت قد أبرز مشكلة العلاقة بين « السلطتين » وهى المشكلة التى تميز بها الفكر السياسى فى العصور الوسطى، أى السلطة الملكية regnum والسلطة الكنسية (المقدسة) Sacerdotium ، وباعتباره عميدا لكاتدرائية سان بول عاش رالف فترة الصراع بمهـارة محتفظا بعـلاقاتـه مع كـلا الجانبين. فرغم أن رالف بقى بانجلترا وكانت علاقته بهنرى وجلبرت فوليوت Gilbert

Foliot ـ الذى كان أكبر معارضى بيكيت بين الأساقفة ـ علاقة ممتازة، فإن كبير الأساقفة المنفى (بيكيت) وانصاره كانوا يعتبرونه صديقا مخلصا، ذلك أنه لم يتخل قط عن ولائه للكنيسة. وكان أهون عليه أن يشق طريقه خلال الصراع من أن يروى قصة هذا الصراع دون أن يعبر عن رأيه صراحة. إذ أن رالف كان يعمل لحساب مؤسستين، الكنيسة والتاج. وكانتا تتعاونان خفية طوال الوقت، ولكنهما كانتا تتصادمان أحيانا فى العلن. وفى ذلك الوقت ـ كما هو الحال الآن ـ كانت لأخبار الصراع قيمة أكبر من أخبار الوفاق. وألفى رالف نفسه فى مأزق، فلم يكن قادرا على حذف الأحداث التى أدت إلى مصرع بيكيت، الذى اعتبرته الكنيسة شهيدا وقديسا، كما أنه لم يكن قادرا على أن يلوم القديس توماس لأنه مات مدافعا عن حرية الكنيسة فى انجلترا. ومن ناحية أخرى، فإنه لم يكن يستطيع أن يوافق على محاولات بيكيت التى اعتبرها بمثابة محاولات للتخريب والعدوان على حكومة هنرى الثانى التى كان واحدا من المعجبين بها.

ولكى نبدأ بنقطة ثانوية فى المسألة نقول : إن القانون الكنسى كان يحرم على رجال الكنيسة تولى الوظائف العلمانية لأسباب اخلاقية وقانونية. فالواجب على رجال الكنيسة المخلصين أن يكرسوا أنفسهم للعناية بالرعية المسيحية. كما أن القانون الكنسى كان يمنعهم من المشاركة فى أية وظيفة تتصل بسفك الدماء، على حين أن الوظائف المدنية تتضمن إصدار الأحكام وتنفيذها بالاعدام أو ببتر عضو من جسد من يدان بارتكاب جريمة. كذلك فإنه لم يكن يجوز لأحد من رجال الكنيسة أن يتعود على حياة القلاع أو ينغمس فى الحياة العسكرية. بيد أن الملوك كانوا يكافئون قساوستهم بمنحهم الأسقفيات كوسيلة لتمويل الحكومة الملكية من دخل الكنيسة، وتغذية الادارة الملكية بالمواهب. وكان تطبيق القانون بدقة آنذاك، يعنى سحب جميع العقول العاملة فى مجال الخدمة المدنية. وكان رالف يرى أن جهاز الخدمة المدنية قد أنشئ من أجل الصالح العام، رغم أن ممارسة هذه الخدمة المدنية يتعارض مع القانون الكنسى، ويتضح من كتاباته أنه لم يكن ثابتا بل كان مترددا فى مسألة المبادئ. وعلى العموم، فإنه كان يظن أنه يمكن تبرير تولى أحد الأساقفة لوظيفة مدنية، بشرط أن يحصل على الاذن بذلك من رؤسائه الكنسيين. وكان هذا أمرا معقولا، لأنه كان من المحتمل الا يفرض الحظر على تولى هذه الوظائف إلا بين الآونة والأخرى.

وتقودنا المسألة الثانوية إلى المسألة الأكثر اهمية. إذ كان بيكيت يصر على الالتزام بحرفية القانون الكنسى. وحين صار كبيرا للأساقفة، تخلى عن منصبه كقاض للقضاة الملكيين. ثم جاء صدامه مع هنرى حول مسألة الامتيازات والحريات الكنسية بشكل عام، واعقب ذلك نفيه ثم مصرعه. وكان ضريحه فى كانتربورى مزارا يقصده الناس

من شتى أنحاء العالم المسيحى.

ولابد أن الطريقة الكارزمية (التى تركز على البطل) فى عرض الصراع قد عبرت عن نفسها فى استخدام الظلال الرمادية بدلا من الأسود والأبيض. وربما يكون رالف قد التزم بفكرة أن كلا من طرفى النزاع «**كان محقا فى ناحية، ومخطئا فى ناحية**». وكان ذلك بمثابة الضريبة التى يدفعها الكاتب المعاصر للأحداث، فربما يسىء إلى الجميع. ومع ذلك فإن رالف كان أكثر تأملا وتفكيرا من روجر الهاودنى، الذى انسحب من بين الأحداث التى سجلها دون أن يعلق على الآراء المتضاربة. وإذ لم يكن بوسع رالف الديسى أن يدين نفسه بعدم الاتساق، فإنه وجد لنفسه مخرجا بأن ابتكر طريقة ترتيب الأحداث.

فقد قسم مادته إلى أعمدة صحفية متوازية، يحوى أحدها ما نسميه الآن «تاريخا سياسيا» أى أعمال الملوك. بينما يضم الآخر سجلات المعارك، على حين يحتوى عمود غيرهما على التاريخ الكنسى، أى تتابع البابوات على الكرسى الرسولى وولايات الأساقفة والمجامع الكنسية. إلا أن رالف يضع عمودا آخر يختص بالصراع بين السلطة العلمانية والسلطة الكنسية. وابتكر علامات خاصة يضعها فى الهوامش لتميز كل ملاحظة. فالمعركة على سبيل المثال، يؤشر أمامها بسيوف متقاطعة. وهو يشرح منهجه فى مقدمته، ويستخدم هذا المنهج فى كتابيه. أما ميزة الترتيب الذى اختاره لكتابه، فتتمثل فى أن التقارب جعل الجمع بين عناصر الكتاب، أو الحكم على ما تضمنه أمرا غير ضرورى. إذ كان من الممكن تسجيل كل حادثة فى موضعها. كما كان من الممكن رواية أحداث الصراع دونما تحيز إلى جانب أحد المتنازعين.

لقد استخدم المؤرخون السابقون الأعمدة المتوازية لتدوين التاريخ الوثنى والتاريخ المسيحى بجانب بعضهما، إلا أن رالف مضى خطوة أبعد فسجل حوادث التاريخ المسيحى بجانب بعضها البعض، مع الحفاظ على انفصال جوانبها المختلفة وربما كانت لديه سوابق أخرى استفاد منها، ولكنها لم تصلنا. وربما تكون مأخوذة عن مقتبسات الكتاب السابقين، وقد نسخها رالف لتكون مقدمة لمؤلفاته التاريخية. ولدينا مثال يرجح ذلك هو ما كتبه هوف راهب سان فيكتور ناصحا الطلاب بأن يبقوا على الأنماط المختلفة من المعارف منفصلة، «**فأنت تضيع وقتك وترهق عقلك إذا ما خلطتهم**». وهو يضرب المثل بصيارفة باريس الذين يحتفظون بأنماط العملات المختلفة فى أكياس مقسمة إلى أقسام، وهذه التقسيمات اليدوية تساعدهم على تغير العملة بسرعة وسهولة تجعل الناس المحيطين بهم يشهقون تعجبا وهم يرون أنواعا عدة من العملات تخرج من الكيس نفسه. ولابد أن رالف قد وجد فى هذا المثال ما يروقه، ذلك أنه كان خبيرا ماليا. وربما يكون قد فكر فى النصيحة التى أسداها

هوف إلى الدارسين بأن يحتفظوا بملفاتهم منظمة مرتبة، ويعدلوها بحيث تتخذ شكل الكتابة التاريخية.

ولاشك أن رالف الديسى قد تنبأ بقدر كبير من شكل الكتابة التاريخية الحديثة. إذ تحول الكثير من التدوين التاريخى الحديث إلى تنظيم وترتيب. فنحن نحتفظ بمعلوماتنا فى قطع ورقية منفصلة (البطاقات)، ذلك أن المنهج يعنى توفير الوقت والتفكير. ولهذا فوائده المسلم بها، بيد أننا نسئ استخدام المنهج إذا ما جعلناه غاية فى حد ذاته. وليس هناك ما يجعلنا نقلد رالف، ولكننا يمكن أن نتعاطف معه وهو يبحث عن حل يخرجه من ورطته.

الفصل التاسع

الغزو والحروب الصليبية

لا يشعر غالبية الناس اليوم بالارتياح تجاه الحروب الصليبية التى يرون فيها أحد الملامح العابسة للتاريخ الوسيط. اذ أن الانسانية قد خاضت حروبا كثيرة لا سيما من ذلك النمط المسمى بالحروب الايديولوجية. وقد كان الصليبيون متعصبين متعطشين للدماء. والأسوأ من هذا ان بعضهم كان انتهازيا بحيث استغلوا الحروب المقدسة لتحقيق مآرب غير مقدسة. ويجدر بنا أن نصل اليهم بخيالنا التاريخى لكى نتفهم عقلياتهم.

وثمة تحيز آخر اكثر سوءا ضد الحروب الصليبية ينبع من ميلنا الى الحكم على أية حركة من خلال ما حققته من نجاح. فمن الممكن أن تكتب قصة الحروب الصليبية باعتبارها قصة الاخفاق والفشل الذى كتب على هذه الحروب منذ البداية. وإنه لسجل مؤسف حقا، فقد فشل اللاتين فى تأسيس مملكة دائمة فى فلسطين، كما استعاد صلاح الدين مدينة القدس سنة ١١٨٧، ثم تقلصت المملكة اللاتينية التى قامت مكان الامبراطورية البيزنطية سنة ١٢٦٠. وعلى اية حال، فان موقفنا المتحيز ضد الحروب الصليبية سوف يضعف اذا ما فكرنا فى هذه الحملات باعتبارها أكثر الحملات التى جردت لتوسيع رقعة العالم المسيحى شمولا وبعدا. والواقع ان بعض هذه الحملات كان ناجحا للغاية. اذ تمت استعادة أسبانيا من المسلمين بعد جهد متواصل، ذلك ان الفرسان الفرنسيين عبروا جبال البرانس لمساعدة المسيحيين الاسبان واستقروا فى شبه جزيرة ايبريا. وعلى الحدود الشرقية لألمانيا، ثم اخضاع السلاف القاطنين فيما بين نهر الالب ونهر الادور وتحويلهم الى المسيحية.

فقد جردت الحملات الصليبية لأغراض أخرى غير الحرب ضد المسلمين. اذ حولها البابوات لتكون حروبا ضد الهراطقة ايضا. فقد جاء الصليبيون من شمال فرنسا الى جنوبها لكى يقاتلوا ضد الهراطقة الألبيجنسيين[1]، ونجحوا فى هزيمة نبلاء الجنوب

---

(١) منذ نهاية القرن الحادى عشر بدأت بوادر المقاومة للسيطرة الكنسية على شئون الفكر والحياة الأوربية. وعند نهاية القرن الثانى عشر ذاعت الافكار التى اخذ يواقيم الفلورى Joachim of Flora يدعو لها، وقد لاقت افكاره الأخروية الذيوع بسرعة ملحوظة. وقد سار يواقيم على نهج سان برنار الذى زعم ان العالم قد دخل عصر المسيح الدجال الذى يسبق قيام القيامة. وعلى حين =

= اكتفى سان برنار بادانة كبار الاساقفة على اعتبار انهم اسرى الشيطان، فـان يواقيم جعـل البابوية نفسها هى المسيح الدجال. وقد قلب هذا المذهب الثورى نظرية وراثة البابا للمسيح رأسا على عقب، وحاز شعبية واسعة لدى جميع الفرق المخالفة بما فى ذلك قادة البروتستانت فى القرن السادس عشر. ونتج عن افكار يواقيم ذات الصبغة الثنوية ان ظهرت جماعة هرطقية جمعت حولها عددا ضخما من الاتبـاع فى جنوب فـرنسا: اولئـك هـم الكاتـاريون Czthari (اى الاطهـار، او القديسـون)، او الالبيجنسيون (نسبة الى بلدة البى Albi فى تولوز والتى كانت معقلا لهم)، واحيانا تعرف هذه الفرقة باسم مانوية العصور الوسطى. واصول هذه الفرقة او تعاليمها الدقيقة ليست معروفة لنا على نحو اكيد، وذلك لأن معلوماتنا عن هذه الفرقة. التى كانت اكثر فرق الهراطقة شهرة فى القرن الثالث عشر، مستمدة من الاوصاف التى اطلقها عليهم اعداؤهم ومن سجلات المحاكم الكنسيـة التى حاكمتهم وادانتهم. والحقيقة الاساسية هى انه عند نهاية القرن الثانى عشر كان سكان المدن الأثرياء، ونبلاء تولوز وبروفانس إما اعضاء فى الكنيسة الالبيجنسية واما من المتعاطفين مع قادتها ذوى الصفات القدسية، ومن هؤلاء المتعاطفين كان كونت تولوز واسرته على ما يرجح. وبالنظر الى ثروة جنوب فرنسا وحيويته الحضارية -- فقد ظل الجنوب محتفظا بطابعه الرومانى وتراثه اللاتينى - فان الحركة الالبيجنسية قد شكلت تهديدا خطيرا لوحدة العالم المسيحى اللاتينى. وكانت البابوية ومؤيدوها سنة ١٢٠٠ يرون السيطرة الالبيجنسية على جنوب فرنسا بمثابة سرطان ينهش فى جسد الحضارة الاوربية يجب استئصاله بأى ثمن.

واصول الحركة الالبيجنسية ليست معروفة، فقد ظهرت فى اواخر القرن الحادى عشر على استيحاء بشمال ايطاليا وجنوب فرنسا. ثم اختفت من ايطاليا بالتدريج، بينما اخـذت تنتشر ببطء فى جنوب فرنسا. وبعد سنة ١١٥٠ القت الحركة الالبيجنسية القفاز فى وجه البابوية والكنيسة الغربية، وكان رجال الكنيسة فى جنوب فرنسا على قدر من الفساد وعدم الكفاية بالقدر الذى جعل من تلك الانحاء تربة خصبة لنمو المذاهب الهرطقية. وينبغى ان ندين كنيسة القرن الثانى عشر لعدم قدرتها على وقف النمو المطرد للكنيسة الالبيجنسية، فقـد تجاهلتهم كثيـرا، اذ انها اكتفت بـارسال بعض الـوعاظ والمبشرين الى جنوب فرنسا لكى يقاوموا حركة تضرب بجذورها فى اعماق المجتمع.

وقد اكد ستيفن رنسمان وغيره من العلماء ان الكاتارية قد اخذت مثلها العليا عن مانوية القرن الرابع. ويقوم هذا الرأى على انه بينما اختفت المذاهب المانوية من العالم المسيحى اللاتينى، فانها غزت الامبراطورية البيزنطية من موطنها الاصلى فى فارس . وتقوم المانوية على ان هناك الهين، اله للخير واله للشر، للنور والظلام يتصارعان فى الدنيا، وهى تحـرم ذبح الحيـوانات. وقـد اخذ عنهم الكاتاريون هذه العقيدة، كما حرموا اكل لحوم الحيوانات، وحرموا الزواج وانكروا الثالوث المقدس، ويزعمون انهم الابرار حقا الذين يتمتعون بروحانية خالصة، ويمكن لأولئك الذين لا يحيون حيـاة طاهرة خالصة ان يضمنوا لانفسهم الخلاص اذا ما اعترفوا بقادة الكاتاريين.

وقد الصق اعداء الالبيجنسيين فى القرن الثالث عشر عدة تهم بهم، وليس بامكاننا التحقق من صحة هذه الاتهامات لافتقارنا الى الدليل والبرهان. ويذهب البعض الى انهم لم يكونوا فرقة هرطقية بقدر ما كانوا اصحاب ديانة مختلفة.

وفى بداية القرن الثالث عشر طلب البابا انوسنت الثالث مساعدة فيليب أوغسطس ملك فرنسا لتدمير الهرطقة الالبيجنسية، ولكن الاخير تجاهل نداءات البابـوية المتكـررة لانه كـان مشغولا .

ايضا. وسار الملوك الكابيون فى اعقابهم وسيطروا على جنوب فرنسا Midi. كذلك يمكن ان نصور الغزو الجزئى الذى قام به الأنجلو – نورمان لأيرلندا على انه نمط من انماط الحروب الصليبية، رغم ان ضحاياه فى هذه المرة كانوا من الكاثوليك «المتخلفين» ولم يكونوا من الهراطقة.

وقد حققت هذه الحملات جميعا نتائج دائمة، اذ انها كلها تركت بصماتها على خريطة اوربا. ولم يكن بوسع المعاصرين ان يتنبأوا بفشل اللاتين فى جبهة واحدة فقط هى فلسطين. فقد ادت الانتصارات المذهلة التى احرزتها الحملة الصليبية الأولى الى توقع ان فرنسا ما وراء البحار[٢]. قد وجدت لتبقى. فاذا ما قرأنا المؤلفات التاريخية التى كتبت عن الحروب الصليبية فى العصور الوسطى نجد انفسنا مضطرين الى مشاركتهم هذه الثقة بمستقبل المملكة اللاتينية بفلسطين.

وكان للغزو وللحروب الصليبية أثرها على التدوين التاريخى من حيث تحريره من ربقة الأطر القديمة وايجاد الحافز الى الكتابة. ذلك ان ما تتسم به القصة من جدة، وما تحفل به من اثارة حرر المؤرخين من الاعتماد على النماذج القديمة. وذلك لأنه لم يكن ثمة شىء فى الحروب التى شهدتها العصور الوسطى الباكرة يمكن مقارنته بالحروب الصليبية. وكان على مؤرخ الحروب الصليبية أن يكتب بطريقته الخاصة. كما صارت الكتابة التاريخية أقل نمطية، واكثر تلقائية. كذلك وجد الحافز الى الكتابة بفضل اتساع مجال هذه الكتابة وآفاقها. فقد اكتسب المؤرخون الذين كانوا يعيشون فى المناطق العسكرية خبرات جديدة، ذلك انهم كانوا يتعرفون على حضارتين. ولأن الحروب كانت متداخلة وطويلة الأمد، فقد قامت بين المستوطنين وأعدائهم اتصالات سلمية، وهو الأمر الذى يعنى أن عيونهم قد تفتحت على حقيقة أن أولئك الأعداء بشر وليسوا من الشياطين.

= بحربه ضد حنا (جون) ملك انجلترا. وتطورت الاحداث بالشكل الذى ادى إلى اعلان البابوية قرار الحرمان على ريموند السادس امير تولوز واباحة اراضى واملاك الهراطقة. فتحمس كثيرون من امراء شمال فرنسا لتلبية دعوة البابا التى اتخذت شكل حملة صليبية سنة ١٢٠٩، وانتهت بتدمير الالبيجنسيين والقضاء على الأمراء الاقطاعيين فى جنوب فرنسا.

انظر: سعيد عاشور، اوربا العصور الوسطى ٣ج ١، ص ٢٥٢ – ص ٢٥٧.و Cantor, Med. Hist., pp. 417-20 (المترجم)

(٢) تقصد المؤلفة هنا المملكة اللاتينية فى فلسطين، والسبب فى ذلك ان غالبية قوات الحملة الأولى كانت من الفرنسيين الذين حرص البابا اوربان الثانى على ان يكونوا عصب الحملة الذاهبة نحو الشرق. (المترجم)

وكانت الهزيمة منبع حافز اكبر من ذلك الذى ينبثق من النصر. لأن الهزيمة تؤدى الى مراجعة الذات. فالتوغل الاسلامى فى فلسطين، والمعدل البطىء للغزو وتنصير الشعوب القاطنة على الحدورد الالمانية، وتوقف المغامرة الأنجلو - نورمانية فى ايرلندا؛ كل هذا فرض السؤال عن السبب فى تخلى الرب عمن يخدمونه أثناء قتالهم فى سبيله، ولماذا يؤجل انتصار المؤمنين أو يحرمهم من النجاح؟ كما أن انتشار الهرطقات فى العالم المسيحى - ولا سيما فى جنوب فرنسا Midi -- جعل بعض المؤرخين يتساءلون عمن يمكن أن يكون مسئولا عن هذا. لقد كان الكتاب السابقون يتحرجون من انتقاد الأباطرة خوفا من أن يسيئوا اليهم، اما مؤرخو الحروب الصليبية فكانوا اكثر جرأة ربما لأن السلطة كانت اكثر ضعفا فى مناطق الحدود التى عاشوا بها.

لقد أنتجت الحروب الصليبية كتابا علمانيين ومؤلفات تاريخية وطنية. كما تطور الأدب العلمانى بفضلها. وكان النمط الجديد من التدوين التاريخى مناقضا للتدوين التاريخى اللاتينى الكنسى التقليدى من عدة وجوه. وفى الوقت نفسه كان هذا النمط الجديد أبعد ما يكون عن الملحمة الوطنية أو ما يعرف باسم Chanson de geste، لأن هذه الملاحم كانت تعالج القصص الخيالية والخرافات، بينما كان على تاريخ الحروب الصليبية أن يبدأ بتناول الحقائق.

حقيقة ان قصص «مؤرخى الغزوات» أقل اثارة وطرافة من كتابات مؤرخى الحروب الصليبية، ولكن هذه القصص سوف تساعدنا على تفهم العقلية الصليبية. وسوف يكون الغزو الألمانى للسلاف نقطة البداية التى ننطلق منها فى المجال. فقد كتب الاستاذ **أدم البريمينى** Master Adam of Bremen كتابا أسماه «اعمال اساقفة بريمن» فى اواخر القرن الحادى عشر. واستخدم الأسلوب التقليدى الذى يتخذ من تاريخ أسقفية بعينها اطارا لقصة أكثر شمولا. فقد كانت هذه المدينة (بريمين) الواقعة على الحدود مركزا للحملات التى انطلقت عبر الحدود لغزو الوثنيين وتحويلهم الى المسيحية. واهتم أدم بالتفاصيل الجغرافية عن **«كل بلاد السلاف»** التى قال إنها **«ولاية كبيرة جدا من ولايات المانيا»**. وعادة ما كانت كتابات مؤرخى العصور الوسطى عن الاراضى المجهولة حافلة بأخبار الاساطير والمعجزات، ولم يشذ أدم عن هذه القاعدة، اذ ترد فى ثانيا قصته أخبار **«معجزات الشرق»**. بيد انه كان علميا الى حد معقول فيما أورده من ملاحظات عن الشعوب وبلادها، واستحوذت ألهة السلاف -- او اوثانهم -- على اهتمامه. ولم يكن ذلك مجرد الفضول وحب الاستطلاع الذى يثيره كل غريب وغير مألوف. اذ كان باستطاعته ان يرى وجهة نظر السلاف الذين كانوا ضحية التوسع الالمانى. وهو يروى فى صدق قصص الفظائع والمذابح التى راح ضحيتها القساوسة المسيحيون، ولكنه لا يحجم عن توضيح أخطاء المسيحيين، فقد

لجأ أعضاء كنيسة حديثة التأسيس الى السطو، وكان طبيعيا أن يستفزوا بعملهم مشاعر الثأر فى نفوس السلاف كما يخبرنا آدم فى روايته.

وكان لوجوده فى مدينة على الحدود أثره فى شحذ رؤيته السياسية : فهو يصف الصراع الثلاثى الأركان بين السلاف، والأمراء، والأساقفة. وكان لكل فريق دوافعه الخاصة. فقد قاوم السلاف الالمان ، بينما كان الاساقفة يريدون تحويلهم الى المسيحية؛ لأن اعتناقهم لها سوف يزيد من قوة الكنيسة وثروتها. اما الأمراء فكان همهم موجها الى قهر السلاف. واذا ما تحول السلاف الى المسيحية، فان الأمراء والأساقفة سيتقاسمون ثمار الغزو، اذ كان من حق الأساقفة ان يأخذوا من المسيحيين ضريبة العشور. وكان آدم يشعر انه يجب ان يوجه اللوم الى الأمراء والكرادلة على حد سواء فى بطء عملية تنصير السلاف. فهو يقول على لسان أحد ملوك الدانيمرك انه كان من الممكن أن يعتنق السلاف جميعا المسيحية منذ زمن طويل، ولكن طمع السكسون فى ان يدفع السلاف لهم جزية الخضوع هو الذى أخر اعتناقهم للدين المسيحى.

إن تاريخ أية أسقفية يتيح لكاتبه فرصة رسم شخصيات الأساقفة. وكانت سلطة كبير أساقفة بريمين تمتد على مساحة شاسعة بمنطقة الحدود، وكان بالاقليم من المشاهد الخلابة والمناظر الساحرة ما يثير شهية أسقف طموح مثله. إذ كان بمقدوره أن يوسع من حدود ممتلكاته، وأن يجعل من نفسه حليفا لا غنى عنه للألمان. وكان أمام آدم شخص آخر ينافس هذه الشخصية هو أدالبرت Adabert (ت ١٠٧١) كبير الأساقفة، وقد أفاد آدم من هذه الشخصية إلى أبعد الحدود، كما أنه بعث روحا جديدة فى تراث وصف الشخصية. وها نحن أخيرا أمام صورة متحركة بدلا من الصورة «الساكنة». فقد تحول طموح أدالبرت إلى جنون العظمة. ويبدو آدم وهو يكتب عن هذه الشخصية كما لو كان طبيبا يرقب بداية ظهور أعراض المرض. فهو يوضح لنا كيف تفاعلت الشخصية مع الظروف المحيطة بها. إذ أن مختلف خيوط شخصية كبير الأساقفة ترتبط بما أحرزه من انتصارات أو تعرض له من نكسات. وتتجلى وحدة الشخصية الداخلية كما تتجلى أعراض جنون العظمة واضحة. وهكذا تتبع آدم خيوط قصة شخصية لا تنسى. وربما كان من السهل عليه أن يلجأ إلى النظرة الأخلاقية ويستخدم نغمة عجلة الحظ لتفسير القصة التى يرويها، ولكنه آثر أن يبتكر ويجدد. وربما كان للبيئة غير العادية التى عاش فى رحابها تأثيرها عليه من حيث عرضه ـ كرجل يتمتع بقوة الملاحظة ـ لما مر به من تجارب.

وكان آدم مصدر الهام كبير لكاتب آخر عاش بعده بحوالى قرن هو **هلمولد** Helmold قسيس بوسو Bosau الذى وصف أحداث الغزو فى فترة لاحقة. فقد قرأ

الأخير كتاب آدم، الذى كان بمثابة سابقة ومصدر عن تاريخ السلاف الباكر. ويعرف كتاب هلمولد باسم «مدونة السلاف»، ولكن هذا العنوان وضع للكتاب بعد تأليفه بزمان. والكتاب فى الحقيقة تمجيد لأعمال البعثات التبشيرية المسيحية بين الوثنيين. ووجد المؤلف نفسه وهو يمتدح أعضاء البعثات التبشيرية فى خضم تاريخ الحملات العسكرية، ونمو المدن فى الأراضى المقهورة. وكرس هلمولد كتابه لقساوسة لييبك Lübeck، التى كانت الكنيسة الأم بالنسبة له. وكان حاميه الأسقف جيرولد Gerold قد أشار عليه بأن هذه هى الوسيلة المثلى لتكريم «ليبيك». وانتهى القسم الأول من المدونة سنة ١١٦٨/٦٧ وفرغ من القسم الثانى سنة ١١٧٢. وعلى حين تبين لنا القصة التى رواها آدم عن ادالبرت كبير الأساقفة ملامح شخصية متغيرة. يكشف لنا الكتاب الذى ألفه هلمولد عن مؤرخ متطور. وذلك أن موقفه المتغير من مادته يعد واحدا من أهم ملامح مدونته التاريخية وأكثرها آثارة وتشويقا. فهو، مثل آدم، قد كتب عن تجربته الشخصية، لأنه كان يعمل فى مجال التبشير، إلا أن قدرته على الملاحظة قادته إلى أن يرى القصة رؤية مختلفة أثناء روايته لها.

وفى البداية استخدم آدم «الأعمال»، وقدم من الملاحظات البديلة لما جاء بهذا الكتاب ما يكشف عن نظرة أكثر نقدية وعلمانية من نظرة آدم، فقد تغاضى عن أخبار المعجزات، وحد من تحيز آدم فارجع للأمراء فضلا أكبر مما كان للأساقفة فى أعمال الغزو والتنصير. كما أنه حسن مصادره باستخدام الدليل الأثرى فى المراحل التاريخية الباكرة. إذ كانت الكنائس المدمرة والقنوات المطمورة فى الأراضى السلافية بمثابة شهادة على الاحتلال السكسونى لها فى القرن العاشر، قبل أن يتمكن السلاف فى صحوتهم من طردهم مرة أخرى. وهو يذكرنا باستخدام بيديه للآثار الرومانية كدليل على الاحتلال الرومانى لبريطانيا.

واستمر صراع المصالح الثلاثى الأركان الذى وصفه آدم قائما فى عصر هيلمولد الذى كان مدركا لأبعاد هذا الصراع مثل آدم تماما. فلم يكون الأمراء مهتمين بتحويل السلاف إلى المسيحية، كما أنهم لم يحبذوا فكرة شن حملة صليبية ضد السلاف كما نادى سان برنار سنة ١١٤٦ أثناء دعوته للحملة الصليبية الثانية فى الأرض المقدسة. فقد كان سان برنار يرى أنه يتعين على السلاف أن يعتنقوا المسيحية أو «يتعرضوا للتدمير الشامل». وإذا **«ما تعرضوا للتدمير الشامل فلن يكون بوسعهم أن يؤدوا الضرائب إلى قاهرهم»**. أما بطل قصة هيلمولد، فهو حاميه الأسقف فيسلين Vicelin الذى كان مبشرا مخلصا لعمله، وكان هيلمولد معجبا به. ثم حدث بعد موت فيسلين أن شغل «هنرى الأسد» دوق ساكسونى مكانه كقائد لعمليات التوسع صوب الشرق. وبتغيير القيادة تغيرت رؤية هيلمولد، إذ بدأت فكرته عن القوة

المسلحة فى التحسن. فقد كان الدوق هنرى شخصية بطولية وطامعة فى آن واحد. ففى البداية **«لم تكن المسيحية تهمه فى شىء»** على تعبير هيلمولد **«وإنما كان همه منحصرا فى المال»**. وفيما بعد استطاع هنرى تدعيم ومساندة العمل التبشيرى، إلا أنه كان يشدد قبضته على المبشرين. فقد كان غنيا كما كان ناجحا كفاتح بالقدر الذى يمكنه من مشاركة الكنيسة فى استغلال الشعوب المهزومة. كذلك كان هنرى يعامل الاكليروس فى امارته باعتبارهم خدما له. ويرى هيلمولد أن الخضوع لمشيئة الدوق كان ثمنا معقولا لحرية العمل التبشيرى، كما يوافق رجال الكنيسة الذين أسلموا زمام الطاعة للدوق حتى ولو كان ذلك يعنى التنازل عن الحريات الكنسية.

وتشابه هيلمولد مع آدم فى فصوله حول السلاف. إلا أن مدونته اتخذت مجالا أرحب مما اتخذه كتاب آدم «الأعمال». ذلك أن المدونة كانت تروى قصة شعوب ثلاثة هى شعوب السكسون، والدانمرك الذين قاموا بالغزو، والسلاف الذين كانوا يعيشون فى المنطقة. وهو يرسم لنا صورة تتضح فيها فضائل كل شعب ونقائصه على حدة، دون أن يمالىء السكسون أو الدانمرك. وفى وصفة للسلاف تستوقفه عاداتهم وقيمهم الطيبة، فقد أثر فيه ما تميزوا به من حسن ضيافة للأصدقاء والغرباء على حد سواء رغم أنه يضيف قائلا إنهم يسرقون فى سبيل الحصول على النقود اللازمة لاطعام ضيوفهم. وهو يسجل مختلف الطقوس الدينية التى تمارسها قبائلهم، وهو يفتقر بطبيعة الحال إلى فهم علماء الانثروبولوجى لمدلولات هذه العقائد التى كانت بدائية بمقاييسه، بيد أنه كان مدركا لأن العادات القبلية لم تكن على نسق واحد فى القبائل. وإذا ما سلمنا بتحيز المستعمر ضد «الأهالى»، فإن ما يدهشنا للغاية هو أن هيلمولد كان موضوعيا للغاية فى وصفه للسلاف. فالحقيقة أنه كان متعاطفا معهم فى المشكلة التى واجهتهم حين اشتدت قبضة الغزاة عليهم، إذ لم يكن بوسع السلاف أن يهربوا عن طريق البر أو عن طريق البحر. وأحاط بهم الأعداء من كل جانب على حين كانت مواردهم قد استنفدت.

وتضاءل تعاطف هيلمولد مع السلاف حين بدأ يبتهج بنتائج الغزو، فقد جلب هنرى الأسد الرفاهية والرخاء إلى أسقفية عن طريق اجتذاب المستوطنين من الخارج وتأسيس المدن، كما صار ميناء ليبيك الحصين مركزا تجاريا غنيا. وكان ذلك منظرا جميلا فى عينى هيلمولد الذى شرح الرخاء صدره. وعندما يصل الكتاب إلى هذه النقطة يطل علينا العهد القديم برأسه من ثنايا سطوره، فقد تشابه الغزاة مع بنى إسرائيل وهم يقومون بطرد الأمميين من أرض الميعاد. وإذا لم تكن أرض السلاف الواقعة بين الألب والأودر تفيض باللبن والعسل حتى ذلك الحين، فإن ذلك كان ممكنا. فقد قام المستوطنون باصلاح الأراضى البور وحولوها إلى أراضى زراعية. ولم يعد

هيلمولد يهتم بمصير السلاف. فمن الناحية الاقتصادية، حل المستوطنون محلهم، وكاد الوطنيون (السلاف) أن يطردوا خارج البلاد، أما أولئك الذين نجوا من الفناء، فقد خضعوا لنظام صارم. وكان المتشردون من السلاف عرضة للقبض عليهم ثم اعدامهم شنقا. وهكذا ينتهى الكتاب بهذه الملاحظة الاستعمارية النغمة، والتى تختلف عما أبداه هيلمولد فى بداية الكتاب من حماسة للعمل التبشيرى.

«والمدونة» تصور الأفراد كما تصور الشعوب، إذ كان هيلمولد دارسا للشخصية. ولم يكن لديه شخص عملاق مثل أدالبرت كبير الأساقفة يبسط عليه نفوذه وسلطانه، بيد أنه بذل ما فى وسعه لتصوير الشخصيات التى فى متناوله. إذ يصور الأسقف جيرولد والأسقف فيسلين فى إطار النموذج التقليدى «للكرادلة الطيبين»، وربما كانا كذلك بالفعل. أما الأسقف الذى خلف جيرولد فلم يكن مناسبا لأى نمط، ويصوره هيلمولد كخليط انسانى من الصفات الطيبة والسيئة. لقد فرضه هنرى الأسد على أسقفية ليبيك رغم إرادة الأساقفة، ثم جاءت المتاعب عقب ذلك، إذ أن صنيعة هنرى أخذ يعانى من عداء الأساقفة له. ويصوره هيلمولد وهو يتغير فى الاتجاه المضاد لأدالبرت، ذلك أنه تعلم من النفى والندم كيف يعطف على رفاقه. ومرة أخرى نستطيع أن نستمتع بصورة متحركة بدلا من مجرد «كتالوج» للخصائص الشخصية. وتظهر صور الأمراء العلمانيين فى سياق القصة بما تميزوا به من شهامة أو خسة على درجات متفاوتة. ويقتبس هيلمولد «الكليشيه» القائل بأنه إذا انتهكت الحقيقة، فإن النتائج ستكون مخزية، فيقول «**يجب أن تلوم نفسك ولا تلوم المرآة إذا كان ما تراه فيها لا يروقك**». ولابد أن مرآته قد اظهرت بعض الوجوه التى احمرت خجلا مما اقترفته. إلا أنه لم يعد يبالى بالأهالى، ولكنه كان عديم الرحمة أيضا فى وصفه للغزاة الذين قهروهم، أى أنه لم يحجب شيئا من الحقيقة.

وقد وجد الغزو الانجلو - نورمانى لأيرلندا مؤرخه فى شخص جرالدوس كامبرينسيس Girald Cambrensis الذى يعرف أيضا باسم جيرالد الويلزى (ت ١٢٢٠). ولم يكن جيرالد رجلا محليا مثل آدم أو هيلمولد، وإنما كان عالما ذا شهرة عالمية، وعلى معرفة والمام طيب بالبلاغة والقانون واللاهوت. إلا أن ارتباطاته كانت محلية، فهو ينتمى من جهة أمه إلى البيت الملكى فى ويلز، بينما كان أبوه من أسرة نورمانية نبيلة مستقرة فى جنوب ويلز، كما كان اقاربه يمتلكون عدة ضياع فى ايرلندا. وقد حباه الله بقدرة فائقة على الملاحظة، كما أنه كان كاتبا مسليا، وهجاء ساخرا. وزاد من حدة سخريته أنه فشل فى تحقيق طموحه، إذ كان يريد أن يصير اسقفا لكنيسة سان داود، ثم يرتقى من كرسى الأسقفية إلى كرسى كبير الأساقفة. ورغم الضغوط التى مارسها على الملوك الانجويين، والزيارات المتكررة التى قام بها للبلاط

البابورى، فإنه لم يرق إلى منصب أعلى من منصب كبير شمامسة كنيسة سان داود.

وقام بزيارتين لأيرلندا استمرت كل منهما حوالى سنة، وقد ساعدته هاتان الزيارتان على جمع المادة اللازمة لكتابه «عن طبوغرافية ايـرلندا» وكتـابه الآخـر «عن غزو ايرلندا». والكتاب الأول وصفى، أما الثانى فيضفى صفة المعاصرة على الكتاب الأول من خلال ما يرويه عن محاولات غزو أيرلندا، وهو ينتهى بعد حملة الأمير حنا (جون) سنة ١١٨٥. وقد رافق جيرالد الأمير حنا تلبية لرغبة والده هنرى الثانى. وأهدى كتاب «الغزو» إلى ريتشار الأول الذى سيتوج ملكا فيما بعد. والكتاب يقف على خط الحدود بين نمطين من أنماط الكتابة التاريخيـة، فهو عبـارة عن رسالـة تاريخيـة مكتوبـة باللاتينية، ولكن ثمة جمهور أوسع من جمهور الرسائل كان يشد جيرالد ناحيته، وكان يأمل فى أن أحدا سوف يترجم الكتاب إلى الفرنسية. ولذا فانه كتب بأسلوب حديث واضح ذلك أن ربة إلهامه كانت تجفل من اللغة اللاتينية القديمة الصعبة.

وكتاب «الغزو» هذا يشبه سوق الكريسماس من حيث إنه يقدم شيئا لكل شخص، فهو يحتوى على المعلومات القيمة إلى جانب اللغو الفارغ. فإذا مـا كنت تبحث عن الاثارة فإنك واجد فيه الرؤى، والأحلام، والنبوءات، والمعجزات؛ فالغزاة يرتعدون أمام جيوش الأشباح، التى تنتشر فى شتى أرجاء أيرلندا. وقد استغـل جيرالـد الخطب البلاغية الكلاسيكية التى بدت غير ذات معنى وهو ينسبها إلى البارونات الانجلو - نورمان والزعماء الايرلنديين. ولكنه أيضا نسخ الوثائق وسجلات المجامع الكنسية، كما أنه يقدم لنا معرضا رائعا للصور. والصورة التى رسمها قلمـه لهنرى الثـانى صورة فريدة فى روعتها بحيث تفرض نفسها على جميع كتبنا.

ومن الممتع أن نقارن جيرالد بكل من آدم وهيلمولد «كمؤرخ للغزو». وهـم يشتركون فى أمور كثيرة، إذ أنهم يتميزون بنفس التناقض فى موقفهم تجاه الشعب المقهور. كان هناك من الأسباب ما يدفع جيرالد إلى أن يتخذ موقف الغزاة، فقد كان يأمل فى أن يؤدى فرض الحماية الانجليزية على الكنيسة الايرلندية إلى تحبيذ الاصلاح وإلى وجود نظام أفضل يخضع له الاكليروس الايرلندى. كما أن مـواطنيه الـذين استقروا فى ايرلندا كمستعمرين سوف يجدون دعما عسكريا أكثر ثباتا يقوى من وضعهم. فضلا عن أنه كان يرى فى الأيرلنديين قوما برابرة غير أكفاء لا يعرفون كيف يديرون شئونهم. وفى الوقت نفسه، فإنه استطاع - مثل آدم وهيلمولد - أن يتعـاطف مع المهـزومين والمضطهدين. فهو يكتب عن الفظائع والأعمال الوحشية التى اقترفها كل من الجانبين. والفرق بين جيرالد من ناحية، وآدم وهيلمولد من ناحية أخرى ينبع من طبيعة القصة التى يرويها كل منهم. إذ كان الألمان يروون قصة النجاح، وحقيقة أنه بطىء لكنـه نجاح حاسم ونهائى. أما جيرالد فقد تعين عليه أن يسجل نقطة التوقف واستحالة

الحركة التى تورط عندها الغزاة. إذ اخفقت حملة الأمير حنا على أيرلندا، وظل الحكم الانجليزى هناك جزئيا وناقصا. وهكذا وجد جيرالد ـ الذى رافق الغزاة فى عملياتهم العسكرية ـ نفسه مضطرا إلى أن يفسر سبب فشلهم أمام الأهالى.

ولكى يفعل هذا كان عليه أن يحلل الأسباب. فهو أولا ينحنى إلى المذبح[٣]. فنحن نعلم من العهد القديم وما تبعه من تاريخ أن الرب لا يسمح لشعب بأن يدمر شعبا آخر تدميرا كليا الا كعقاب على خطاياه. ويخلص جيرالد من هذا إلى أن الايرلنديين لم يكونوا أشرارا بالدرجة التى تجعلهم يستحقون الهلاك، كما أن الغزاة لم يكونوا طيبين بالقدر الذى يجعلهم يستحقون النصر النهائى. اذ كانت للرب أسبابه فى عقابه لكلا الطرفين. وعلى أيه حال، فان النبوءات الاربع الشهيرات فى التراث الأيرلندى تنبأت بأن الانجليز لن يقهروا الجزيرة كلها ابدا وحتى إقتراب يوم القيامة. ثم ينتقل جيرالد إلى الاسباب الانسانية (البشرية). فقد اضطر هنرى الثانى إلى عدم استكمال الغزو الذى قام به. لانه عاد إلى وطنه بسبب تمرد ابنه. ولم يرجع إلى أيرلندا ثانية. وعندما ينتقل جيرالد إلى الأمير حنا، يلجأ ثانية إلى تفسير ما حدث فى ضوء عدم رضاء الرب، ذلك أن حنا أغضب الرب لأنه لم يساعد الكنيسة كما أنه حنث بقسمه بأن يشارك فى الحملة الصليبية. ويمضى جيرالد فى تشريح أخطاء حنا السياسية. فقد جلب الامير على نفسه عداوة حلفائه الأيرلنديين، وأغضبهم بعدم مصانعته إياهم. كما أغضب حنا المستعمرين الانجلو ـ نورمان والويلزيين أيضا. فقد كان يسخر من ملابسهم وعاداتهم الاستعمارية العتيقة، كما أنه تجاهل مشورتهم. وابعدهم واستخدم رجالا جدداً، وكان هؤلاء لا يريدون سوى تكوين الثروات لأنفسهم، وانهمكوا فى الدفاع عن مناصبهم، كذلك استخدم الامير الجنود المرتزقة الذين يفضلون السلب والنهب على الحرب والقتال.

وينتقل جيرالد إلى وصف أساليب القتال. إذ كانت البلاد الموحشة التى تموج بالفوضى تتطلب قوات مدربة مجربة. فلم يكن المرتزقة ليصلحون فى مثل هذه البلاد. وقد استسلم الايرلنديون للصدمة الأولى للغزو، ثم تعلموا فيما بعد أساليب المقاومة حين اضطروا للقتال على أرضهم. ولا حظ جيرالد أن نمط الحرب المطلوب فى الغابات والجبال الأيرلندية يختلف عن النمط القتالى الذى يناسب الأرض الفرنسية السهلة المنبسطة، وهو النمط الذى تعود عليه الانجلو ـ نورمان. فقد كانت الخيالة الثابتة تحوز

---

(٣) تريد المؤلفه ان تقول إنه يلجأ إلى الدين فى محاولة لتفسير ما حدث.

(المترجم)

أفضل نجاح لها فى القتال فى السهول المفتوحة، ولكن الحرب فى أيرلندا كانت تتطلب فرقا خفيفة التسليح ومدربة على تحمل المشاق. كذلك اختلف أسلوب القتال، ذلك أن الأيرلنديين كانوا يحاربون بغية قتل أعدائهم، بينما كان هدف الطرفين فى فرنسا الحصول على الاسرى سعيا وراء الفوز بالفدية المالية. ويرى جيرالد أن نتيجة ذلك تمثلت فى أنه تعين تجنيد القوات التى ترسل إلى ايرلندا فى غابات ويلز وأدغالها. فهناك، وهناك فقط، يوجد الرجال المعتادون على العيش والقتال فى الظروف التى ستواجههم فى أيرلندا. وفى هذا الجزء من كتاب جيرالد يعلو صوت أقارب الجنود فوق العناية الالهية فيما يتعلق بالمسائل العسكرية، اذ نجد النصائح المشددة بما يجب اتباعه فى التكتيك العسكرى، والحياة العسكرية، قد حلت محل الاعتبارات الاخلاقية.

وينتهى كتاب «الغزو» بمخطط تفصيلى لامتداد الحكم الانجليزى فى ايرلندا وكيفية حكم الشعب الخاضع. وأوصى جيرالد بعدة تدابير معقولة، مثل بناء الطرق لتسهيل الوصول إلى مناطق التمرد. لقد حدد لنا الملامح العامة لنظام وصاية صارم. اذ كانت الحكومة الاستعمارية تمول من خلال الضرائب التى تجبى من الأهالى. وقد قدم ذلك المخطط التفصيلى الذى أمدنا جيرالد به (وصفة) صحيحة للنجاح، إلا أن المقترحات التى قدمها كانت ستكلف الحكومة الكثير اذا ما أخذت بها. والخطة التى طرحها هذا العالم جديرة بان تحفظ فى ملفات الحكومة الاستعمارية، ولكن أحدا لم يعمل بمقتضاها.

رأينا أن الغزو كان بمثابة دفعة وحافز للتدوين التاريخى، وجاءت الحروب الصليبية لتزيد من حرارة الميدان. ومن بين العديد من مؤرخى الحروب الصليبية العديدين، اخترت ثلاثة مؤرخين هم، **الكاتب المجهول صاحب «أعمال الفرنجة»** **«ووليم الصورى»** William of Tyre **وجيوفرى الفيلهاردوينى** Ceoffrey of Villeharouin. ويعد الثلاثة من بين أحسن الاسماء المعروفة، كما يتمتعون بانهم محل اهتمام لأسباب متناقضة، فمنهم من يمثل طرازا جديدا من المؤرخين، ومنهم من يقدم معالجة أصلية لنمط قديم من الكتابة التاريخية.

كان **الكاتب المجهول** أحد شهود العيان للحملة الصليبية الأولى. ويبدو أنه كان ينتمى إلى عائلة نورمانية استقرت فى جزيرة صقلية بعد غزو النورمان لها، وانضم إلى الفرقة الصقلية فى الحملة تحت قيادة بوهيموند Bohemond الذى كان ابنا غير شرعى صقلى ـ نورمانى آخر. أى أن بوهيموند كان «سيده». وتبدأ «أعمال الفرنجة» بتقرير مختصر عن مجمع كليرمونت Clermont حيث دعا البابا أوربان الثانى إلى الحملة الصليبية. ثم يعقب ذلك تلخيص موجز لمختلف الحملات التى انطلقت من أوربا صوب فلسطين. وبعد ذلك يروى الكاتب تجربته الشخصية كواحد من الصليبيين وتمتد

قصته حتى الاستيلاء على بيت المقدس وانتخاب ملك وبطريرك لحكم المملكة الفرنجية الجديدة، ثم يتحدث عن انتصار الصليبيين قرب عسقلان سنة ١٠٩٩، وربما يكون قد مات عقب ذلك مباشرة لأن الكتاب يتوقف عند هذه الحادثة.

ومن المحتمل أن يكون قد بدأ فى كتابه «أعمال الفرنجة» خلال اقامة الصليبيين فى انطاكية بعد أن استولوا عليهم. وقد استقر بوهيموند الذى كان يهدف إلى تاسيس امارة لنفسه فى انطاكية، ورفض أن ينضم إلى الجيوش الزاحفة على بيت المقدس(٤)

---

(٤) بعد أن استولى الصليبيون على انطاكية سنة ٤٩١ هجرية (١٠٩٨) وجدوا انهم فى حال ليس افضل كثيرا مما كانوا عليه قبل سيطرتهم على المدينة، وثارت مشكلة كبيرة تمثلت فى السؤال القائل: لمن تمنح المدينة؟ وبسبب ظروف الصليبيين السيئة وحصارهم داخل انطاكية وانعدام الأقوات عندهم، وحصار جيوش الأتراك المسلمين. بقيادة كربوغا (انظر: ابن الأثير، الكامل فى التاريخ جـ١٠ ص١٠٢؛ ابن العديم، زبدة الحلب، جـ٢ ص١٣٦ ـ ص١٣٨، وكذلك سعيد عاشور، الحركة الصليبية جـ١، ص٢٠٩ ـ ص٢١١، Runciman, A hist. of the Gusades, I, p. 238. وفى هذه الأثناء حضر فلاح زرى المظهر اسمه بطرس بارتليميو Peter Barthelomew وزعم أنه رأى فى منامه أحد القديسين يحدد له مكانة الحربة التى اخترقت جنب السيد المسيح، وانها مدفونة فى مكان ما بانطاكية، وأن اكتشافها سيؤدى إلى انتصار الصليبيين، ويقول ابن الأثير (جـ١٠ ص١٣٠) إن الراهب هو الذى دفن الحربة بنفسه، ويميل رنسمان إلى الأخذ بهذا الرأى (I,p. 245) وعلى اية حال فان هذه الحادثة أدت إلى ارتفاع معنويات الصليبيين الذين كانوا قد ساءت أحوالهم وتدهورت معنوياتهم. واذ كان ريموند الصنجيلى مريضا تولى بوهيموند قيادة الجيوش الصليبية فى المدينة ثم خرج من بوابة المدينة فى يوم ٢٨ يونيو سنة ١٠٩٨ ومعه الحربة المقدسة يحملها أحد القساوسة المرافقين للجيش، والحقوا بالجيوش الأسلامية التى مزقها الخلاف هزيمة لم تكن فى الحسبان ولكنها كانت حاسمة فى نتائجها فقد حددت مصير انطاكية النهائى فى تلك الفترة، وهنا ثار السؤال من جديد: لمن تكون انطاكية؟ لقد كان القسم الذى قطعه قادة الصليبيين على انفسهم للامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين يحتم عليهم أن يعيدوا المدينة إليه، ولكن بوهيموند النورمانى ـ الذى كان قد شارك فى هذه الحملة منذ البداية بدافع عدائه هو والنورمان للبيزنطيين (Cantor, Med. Hist., p. 323) قرر أن يحتفظ بالمدينة لنفسه. وكان رفاقه ـ باستثناء ريموند الصنجيلى امير تولوز ـ على استعداد للموافقة على ذلك، لأنه كان صاحب خطة الاستيلاء على المدينة، كما انه هو الذى استولى على قلعتها، ثم تولى قيادة الجيوش الصليبية التى هزمت جيوش قربوغا. وهكذا لم يهتم الصليبيون اهتماما كبيرا بالامبراطور القابع بعيدا على ضفاف البسفور، ولكن تصدى ريموند لمطامع بوهيموند حال دون تنفيذ الأخير لخطة بتكوين إمارة لنفسه فى انطاكية، وكان أن أرسل الصليبيون إلى الامبراطور الكسيوس كومنينوس رسالة يخبرونه فيها أنهم قرروا الزحف على بيت المقدس ويطلبون مساعدته لهم فى ذلك، ولكن تخاذل الامبراطور، وعدم وصول رده بسرعة، جعل المقاتلين وعامة الصليبيين يثورون على زعمائهم بانطاكية مهددين إياهم بالزحف على بيت المقدس وفاء بقسمهم الصليبى الذى قطعوه على انفسهم تاركين هؤلاء الزعماء المتناحرين أمام مصيرهم. وهنا تولى ريموند قيادة الجيوش الصليبية فى زحفها على بيت المقدس، وحلت مشكلة الخلاف حول حكم انطاكية، فقد آثر بوهيموند البقاء =

وحينذاك حول الكاتب المجهول ولاءه إلى كونت ريموند أميرتـولوز، وينتهى الكتـاب بدخول الصليبيين إلى بيت المقدس.

ويبدو من ثنايا الكتاب أن المؤلف كان فارسا من المرتبة الدنيا، وأن بوهيمند كان يثق به، ولكنه لم يكن من زمرة القادة. والواقع، أن ما يميزه هو عدم ثقته فى دبلوماسية ما وراء الابواب المغلقة كما هو حال جميع من يقفون خارج هذه الأبواب. ومن المدهش أن رجلا علمانيا يتمتع بمثل هذه المهارة فى الكتابة باللغة اللاتينية. إذا أن اللغة التى كتبت بها «أعمال الفرنجة» لغة نحوية فصيحة، رغم أنها غير رسمية ولم تكن لدى المؤلف اية أدوات يستعين بها سوى ما يذكره نقلا عن الكتاب المقدس. وربما يكون قد ألحق بالكنيسة وهو بعد صبى لكى يشق طريقه فى السلك الكنسى تاركا ضيعة العائلة لأخوته الأكبر سنا، وهو الأمر الذى كان يحدث للابن الاصغر فى غالب الأحوال. وربما يكون موت إخوته هو الذى مكنه من أن يتخذ لنفسه طريقا علمانيا. وإلا فإن ثمـة احتمال بأن أحد القساوسة قد ساعده فيما كتب. وفى أى من الحالتين، يتحدث الينا فى بساطة ومباشرة، كما أن ذاكرته متوقدة، وهذه جميعا صفات خاصة به.

إن «أعمال الفرنجة» هو أول مؤلف تاريخى يكتبه رجـل علمانى منـذ اينهارد، ونيتهارد Nithard فى القرن التاسع، والمؤلف المجهول فريد فى أسلوبه، مثل جالبرت البروجى. واكتسب كتابه شهرة ذائعة باعتبـاره مصدرا أوليـا من مصادر الحملـة الصليبية الأولى، بيد أن الكتاب الكنسيين وجدوا أن أسلوبه فى العرض فظ للغـاية فأعادوا صياغته بأسلوب أكثر تأدبا. وأول ما يبدو واضحا فى هذا الكتاب هو تعارضه مع المؤلفات التاريخية التقليدية. إذ أن المؤلف المجهول يبدأ كتابه بفاتحة، ثم يخوض مباشرة فى تفاصيل قصته. ولم يكن يعرف ـ وربما يكون قد شاء أن يتجاهل ـ أنه من المفروض أن يعتذر الكاتب عن الكتابة عموما، وعن تقصيره فى الكتابة، وعن أن صدقه سوف يصدم المشاعر.

وربما يكون الغرض الدينى للكتاب قد جعل سبب تأليفه واضحا فى حد ذاته. إذ كانت استعادة الضريح المقدس أمرا نابعا من موت المسيح ثم بعثه، كما كانت مرتبطة بما لقيه القديسون من آلام. كما أن الحملة الصليبية قد رفعت من قدر الشهداء. وقد

= فى انطاكية حيث كون لنفسه امارة مستقلة :

انظر التفاصيل فى :

Runciman, A hist., of the Crusaders, (Harper Torchbooks, New York, 1964), Vol.I pp. 236–62.

الدكتور سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ٣ج١، ص٢٠١ ـ ص٢٢٤. (الطبعة الثانيـة، مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٥١). (المترجم)

أدخل المؤلف المجهول جميع الجنود ـ الحجاج الذين سقطوا فى الحرب المقدسة فى عداد الشهداء، فهو يكتب عن حصار انطاكية قائلا :

«استشهد أكثر من ألف من فرساننا ومشاتنا فى يوم واحد. لقد صعدوا إلى السماء، حيث تنالهم الغبطة والبهجة، ويتألقون فى ثياب الشهداء البيضاء، ويمجدون ربنا ويعظمونه، وهو الواحد الثالوث الذى انتصروا باسمه، وفى السماء يصيحون فى صوت واحد : لماذا لم تقم بحماية دمائنا التى اريقت فى سبيل تمجيد اسمك».

وهو هنا يلمح إلى نص من سفر الرؤيا فى العهد الجديد، حيث يسمح للشهداء الجدد أن يستريحوا برهة «**حتى يكمل العبيد رفقاؤهم واخوتهم ايضا العتيدون أن يقتلوا مثلهم**» (٦ : ١١). أما الأتراك الذين قتلوا بأيدى الصليبيين فقد «**ذاقوا الموت الأبدى، وأسلموا أرواحهم الملعونة إلى الشر ورفاق الشيطان**» وفى السماء يتجلى الشهداء المحليون فى فلسطين لكى يخففوا عن جنود المسيح ما يعانون من جراء ضغط الأتراك عليهم.

ويرسى المؤلف المجهول للنموذج الذى تبعه من جاء بعده فى حديثه عن مجمع كليرمونت بقوله : «**وإذ حان الوقت الذى كان إلهنا يسوع المسيح يبينه للمؤمنين فى كل يوم، لاسيما فى الانجيل بقوله «إن اراد احد أن ياتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى» (متى، ١٦ : ٢٤)، وعندها دبت فى جميع ارجاء بلاد الغال حركة عظيمة**».

وقد خلد أعداء المسيح وقديسيه، ولم يكن ممكنا أن نخطئهم. ذلك أن المقياس الزمنى الذى يستخدمه المؤلف المجهول، والقيم التى يعتنقها هى مقياس وقيم ذلك الطفل الذى يقول : «إن الأشرار قتلوا يسوع، كما قتلوا عمى فى الحرب». ويتضح من بناء كتاب «أعمال الفرنجة» نفسه انه قصد به أن يقرأ بصوت عال باعتباره مؤلفا دينيا. إذ أن كل فصل فيه يختتم بترنيمة دينية توضح النقطة التى توقفت عندها القراءة فى يوم معين.

ويلتقى الغرض الدينى بالوصف الحى، فقد كان المؤلف المجهول يفهم الأساليب العسكرية على نحو لا يمكن أن يتيسر للكاتب الكنسى العادى. إذ اننا نتسلق معه أسوار أنطاكية ليلا، فقد تمكن بوهيموند من الاستيلاء على ثلاثة ابراج بسبب خيانة حراسها. وينكسر السلم أثناء صعودنا، ثم ندلف من خلال بوابة ضيقة فى الحائط نتحسس طريقنا إليها فى الظلام. ونحن نزحف فوق جبال لا ماء فيها. ونشم عفن الجثث المكومة فى الطرقات، كما نسمع صيحة الحرب التى يطلقها الأتراك «وهم

يصرخون فجأة ويهللون بكلمات شيطانية من لغتهم». وينحرف بنا المؤلف ـ حين يصيبنا التعب من المعارك ـ ويصحبنا إلى الجانب التركى لنسمع ما يقوله القادة الأتراك عن الفرنجة. وهو ما يذكرنا بأحد مشاهد مسرحية «هنرى الخامس» التى ينطق شكسبير فيها النبلاء الفرنسيين بعبارات وقحة عن الغزاة الانجليز. وتلعب أم الأمير التركى الدور التقليدى للزوجة التى تتنبأ بعواقب ما يديره زوجها من خطط، وتحذره دون جدوى. والسيدة المسلمة التى تظهر فى «أعمال الفرنجة» على معرفة بنبوءات الكتاب المقدس بشكل لافت للنظر، كما أنها تتميز بجهل غريب بالقرآن، ومن الواضح أن هذه التفاصيل الفرعية ليست إلا تعبيرا عن أمر يتمناه المؤلف، ويعتقد بصحته، بيد أنها تقدم لنا تسلية لا بأس بها.

وتأتى الانطباعات الشخصية للمؤلف المجهول فى سياق وصفه للأجانب الذين قدر له أن يلتقى بهم، ولم يحظ البيزنطيون بتعاطفه، لأنهم كانوا هراطقة معادين لنورمان صقلية. أما المسيحيون الفلسطينيون ـ ومعظمهم من السوريان والأرمن ـ فقد كانوا أقلية، وكانوا يخرجون من مكامنهم طالما أمكنهم ذلك، لكى يبيعوا المؤن للصليبيين بأعلى سعر ممكن دون أن يعرضوا أنفسهم للخطر. ولم يكونوا محاربين بعكس الأتراك الذين كانوا خصوما شديدى المراس إذا ما تقابل الشعبان المقاتلان ـ الأتراك والفرنجة. ويجعل المؤلف المجهول من شخصياته عوامل مساعدة لمستمعيه، كما يحدث فى الملاحم الشعبية القومية. ذلك أنه كان من الضرورى تذكير المستمع بالدور الذى تلعبه الشخصية إذا ما أعيدت رواية القصة مرة أخرى. والشخصيات كلها شخصيات نمطية بطبيعة الحال. فالامبراطور البيزنطى هو «**الشرير**»، أما بوهيموند فهو «**الثاقب النظر**» أو «**الحكيم**» حتى يقرر أن يختلف بانطاكية، وعندها يصير «بوهيموند» على حقيقته. أما الأتراك، الذين يمكن التعرف عليهم بسهولة، فانه يسميهم «**الأشرار**» أو «**الكفار**» كلما جاءت المناسبة لهذه التسمية فقط. وينبغى أن نضيف إلى ما سبق أن المؤلف المجهول يذكر أحيانا حالات الجبن أو عدم النظام بين الفرنجة، وكان انحيازه راسخا فى وجدانه بحيث إنه لم يجد ضرورة إلى تدعيمه باخفاء الحقائق. وقد أثبت بعض الباحثين أن موقفه قد تغير قرب نهاية الكتاب. إذ بدأ يفكر أكثر فى المادة كشىء متميز عن الثواب سيناله جزاء قيامه بالحج، فهو يخبرنا فى غبطة كيف أن الصليبيين وجدوا كميات وافرة من المؤن والأغذية. وهذه رؤية أشبه ما تكون برؤية شخص يجلس مستريحا فى مقعد وثير ويقيم الأمور تقييما ماديا، فأمامنا جيش تحركه بطون أفراده، أى أن الحرب الصليبية كانت كأى حرب أخرى. لقد خاض الرجال غمار الصعاب والأهوال، وحق لهم أن ينالوا نصيبهم من الراحة حين جاء أوانها.

هل كان المؤلف المجهول محاربا صليبيا «نمطيا» من الدرجة الثانية ؟ هل يمكننا أن نأخذ بالتعميمات التى أوردها فى كتابه انطلاقا من رؤيته الخاصة ؟. هذا ما أشك فيه. فان مجرد حقيقة أنه كتب تاريخا تجعله مختلفا عن رفاقه. وربما يكون هو الذى يعكس انطباعاتهم الساذجة عن الحملة الصليبية. فقد كان أكثر منهم موهبة، وربما أكثر عقلانية، أو أشد تدينا. فهو، على الأقل، يصف لنا كيف كان شعور من يشارك فى الحملة الصليبية فى غمار حميتها ويساهم فى تحقيق أولى انتصاراتها.

والانتقال من المؤلف المجهول إلى **وليم الصورى** يشبه قراءة حنا السالزبورى بعد جالبرت أو كافارو. فانه يعود بنا ثانية إلى رحاب الدراسة والبلاط. فقد مر ما يقرب من ثمانين عاما ولم تستطع الحملات الصليبية التالية أن تفعل شيئا لتدعيم المملكة اللاتينية ببيت المقدس. إن قصة اللاتين فى فلسطين تموج بمشاعر الحزن أكثر مما تحمل من علامات النصر. وليس كتاب وليم الصورى «تاريخ الأعمال التى تمت فيما وراء البحار» عملا أصيلا فى صياغته مثل كتاب «أعمال الفرنجة» الفذ الفريد. فهو كتاب تاريخ أدبى كتبه أحد كبار الأساقفة بلغة المثقفين. وهو لافت للنظر من حيث إنه حقق أقصى ما يمكن لهذا النمط من الكتابة أن يحققه. ويبرز وليم الصورى كأكثر مؤرخى العصور الوسطى عذوبة ورقة ورحمة.

كان وليم سليل أسرة من المستعمرين الذين استقروا فى فلسطين. وقد جاء أولئك المستعمرون الذين ضمتهم الدولة الصليبية من عائلات الملاك، كما كانوا شبكة عالمية من الأقارب الأصدقاء. ويقدم لنا وليم أوراق اعتماده كمؤرخ فى تقرير عن رحلته إلى الغرب للتعليم. وقد أمضى ما يقرب من عشرين عاما طالبا فى فرنسا، وإيطاليا (١١٤٥ـ١١٦٥) حيث درس على أيدى أفضل أساتذة الفنون الحرة، والفلسفة، واللاهوت، والقانون الكنسى والمدنى. وعند عودته إلى المملكة اللاتينية بفلسطين حصل على أول ترقية له، إذ أصبح قسيسا بكاتدرائية صور وأعجب به أماليك Amalric ملك بيت المقدس الذى أراد أن يمنحه مزيدا من العطايا، ولكن حال دون ذلك بعض الصعوبات. وترقى وليم فى البلاط حتى صار قاضى قضاة المملكة وكبير أساقفة صور (١١٧٤ـ١١٧٥)، واستخدمه أماليك كمستشار له وكان محل ثقته كما عهد إليه بتربية ابنه، وذهب وليم فى بعثات دبلوماسية إلى روما وبيزنطة. وبعد موت أماليك فقد وليم حظوته فى البلاط ومن ثم لم يرق إلى منصب بطريرك بيت المقدس، وهى الوظيفة التى كان يتحرق شوقا اليها منذ وقت طويل. فانسحب إلى صور بخفى حنين سنة ١١٨٠، ثم سنحت له فرص أفضل فى البلاط حين صارت لأصدقائه اليد العليا فى تصريف شئون البلاط، ولكنه مات سنة ١١٨٥ تقريبا، وحرمه موته المبكر من الفوز بالترقية التى كان يتوق اليها. وكان من حسن حظه أن مات قبل أن يشهد استيلاء

صلاح الدين على بيت المقدس، إذ أنه كان قد تنبأ بهذا وقد غلب عليه الرعب.

وقد تدرج الكتاب الذى ألفه وليم الصورى وأخذ ينمو من خلال حواره مع أماليك. إذ كان الملك شغوفا بالاستماع إلى قصص أعمال الحكام والروايات البطولية. واقترح على وليم أن يسجل أعماله هو كملك لبيت المقدس. وقد برهن تاريخ حكم أماليك على أنه يصلح بؤرة لاطار أكثر شمولا. فقد قرر وليم أن يدرج أعمال أماليك ضمن التاريخ العام لملكة الفرنجة وراء البحار. كانت هناك مؤلفات تاريخية عديدة عن الحروب الصليبية، ولكنها كانت جميعا تواريخ منفصلة وليس بينها ما يضم التاريخ العام للملكة اللاتينية فى بيت المقدس. وتطلب الأمر القيام ببحث واسع النطاق، فبدأ وليم بالفتح الاسلامى لسوريا وانتزاعها من البيزنطيين (٦٣٤ - ٦٤٠)، ثم استمر فى كتابته متتبعا الأحداث التاريخية. وقد سمحت له الفترة التى قضاها فى صور بعد خروجه من البلاط بالوقت الكافى للكتابة. وفرغ من كتابة اثنين وعشرين كراسة ثم توقف اشمئزازا من الحال التى ترددت إليها الأمور: ذلك أن الورطة التى وقع فيها الصليبيون ملأت نفسه غما وكآبة. وعلى أية حال فإن أصدقاءه أقنعوه بأن يستمر فى الكتابة. وشرع فى تأليف الكراسة الثالثة والعشرين ولكنه لم يكملها لوفاته. وكان له مؤلف تاريخى آخر هو «تاريخ أمراء الشرق» الذى كتبه بناء على تكليف من أماليك، وهو مفقود. ولذا فاننا لا نعرف على الاطلاق الكيفية التى صاغ بها هذا المفكر ا٣ل١لاتينى تاريخ الشرق. وتمثلت مؤهلاته فيما تلقاه بمدارس الغرب من التعليم الكلاسيكى، وفى إلمامه باللغتين العربية واليونانية، ومعرفته البسيطة بالعبرية التى ربما يكون قد تعلمها لكى يستخدمها فى أغراضه العملية. فضلا عن تجربته كدبلوماسى ورجل دولة. لقد شارك فى الأحداث التى دونها بعد عودته من الغرب سنة ١١٦٥، كما أنه كان منتميا إلى دوائر السلطة فى غالب الأحيان.

ويتميز وليم بخلفيته الثقافية عن الغربيين. فقد كان المستعمرون ا٣ل١لاتين مضطرين للتعايش مع جيرانهم، كما كانوا على نزاع مع بيزنطة، وعلى الرغم من ذلك كان هناك تبادل دبلوماسى وزيجات بينهم وبين البيزنطيين. وقد برهن البيزنطيون على أن التحالف معهم أجدى من تجاهلهم ودفعهم إلى تخريب جهود الصليبيين. وبالمثل كانت هناك هدنة بين الحين والآخر مع المسلمين كما كان المرور المتبادل يتم عبر أراضى كل من المسلمين والصليبيين. وظل كثير من المسلمين يقيمون فى الأراضى التى استولى عليها الصليبيون. وفى فلسطين احتك اللاتين بقوم ذوى مستوى حضارى أعلى من مستواهم البدائى[٥]. وحظى التعليم والمهارات العربية بتقديرهم، إذ كان بوسع

(٥) أشار أسامة بن منقذ فى كتاب «الاعتبار» إلى هذه الحقيقة بقوله «... وكل من هو =

الأطباء العرب أن يقدموا علاجا أفضل من ذلك الذى كان يقدمه الأطباء اللاتين، لاسيما فيما يتعلق بالأمراض الشرقية، وكانت السيدات تعتمدن على «اليهود، والسامرة[٦]، والسوريان، والعرب» فى العناية بصحتهن، وتبعهن الرجال فى ذلك. وكان موقفهم المعبر عن المبدأ القائل «**عش ودع الآخرين يعيشون**» يعتبر فضيحة فى نظر القادمين الجدد من أوربا إلى المملكة اللاتينية. وكان المستعمرون بدورهم يشعرون بعداوة طبيعية تجاه الحجاج والمستوطنين الجدد: لأنهم لم يكونوا يتفقهون مشاكلهم. لقد كانت بيت المقدس ملكا لهم، إذ أنهم قضوا حياتهم يدافعون عنها، وحياتهم أطول من الشهور أو السنوات القلائل التى تستغرقها احدى الحملات الصليبية. فقد صارت فلسطين وطنهم. إذ أنهم تعودوا على الألوان الرمادية ـ الشاحبة الحمرة التى تتميز بها صحراء الشام، وعلى الوديان القاتمة الخضرة التى يرونها من مدنهم ومن قلاعهم الحصينة. وقد استطاعوا ربط أنفسهم بتاريخ البلاد القديم، بعكس كثير من المستعمرين. فقد كان لكل اسم أو مكان صدى فى نفوسهم: فجبل سيناء، وبيت لحم، والناصرة أماكن تتضوع بأريج الذكريات التى تفوح من صفحات الكتاب المقدس، والتاريخ الوثنى والتاريخ المسيحى الباكر. وأدى الاهتمام بفلسطين إلى قيام المزيد من

قريب العهد بالبلاد الأفرنجية أجفى اخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين..»، ويقصد بكلمة «تبلدوا» انهم تعودوا على نمط الحياة المتحضرة فى فلسطين، وهنا نشير إلى أن الحرب لم تمنع الصلات الحضارية والانسانية بين المتحاربين (انظر: أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، ص ١٣٤). وانظر عن مدى تأثير الصليبيين بالأسلوب الاسلامى فى الحياة اليومية فى بلاد الشام:

Joshua Prawer, The World of the Crusaders, (Quadrangle Books, New York, 1972), pp. 83–99.

(المترجم)

(٦) السامرة فرقة يهودية قليلة العدد نشأت فى فلسطين بعد تدمير مملكة إسرائيل المنشقة على عرش سليمان بعد وفاته على يد «تغلث فلاسر» ملك اشور سنة ٧٢٨ق.م الذى أجلى اليهود عن فلسطين إلى نواحى شمال إيران الحالية واحل محلهم بعض القبائل فى سكنى عاصمة المملكة وهى مدينة السامرة القديمة التى بنيت على انقاضها مدينة نابلس العربية فيما بعد. وهذا التحديد لتاريخ السامرة يعتمد على نص الكتاب المقدس (الملوك الثانى/اصحاح ١٧) بشأن هذه الفرقة وهو يوضح أن السامرة حثالة من الاجانب المتعاونين مع أعداء اليهود. والسامرة لا يعترفون سوى بأسفار موسى الخمسة، كما انهم ينكرون نبوة كل من جاء بعده باستثناء هارون ويوشع، ويتخذون من جبل الجرزيم بالقرب من نابلس قبلة لهم يحجون إليها ويقدمون عليه الأضاحى بدلا من صخرة بيت المقدس زاعمين أن الله تعالى كلم موسى على هذا الجبل ويعتمدون على رؤية الأهلة. كذلك فانهم شديدو الحرص على حرمة السبت. ولا تزال أعداد قليلة منهم تعيش قرب نابلس حتى اليوم ـ انظر: قاسم عبده قاسم، اهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (دار المعارف ١٩٧٧) ص ٢١٣ ـ ص ٢١٧، وكذلك: حسن ظاظا، الفكر الدينى الاسرائيلى (معهد الدراسات العربية ١٩٧١)، ص ٢٤٧ ـ ص ٢٤٨. (المترجم)

العلاقات والاتصالات مع الأهالى. وكان على المسيحيين أن يجمعوا المعلومات المحلية لكى يعرفوا المزيد عن الأماكن المقدسة والأساطير التى نسجت حولها. وهكذا كانت الدولة اللاتينية أكثر من مجرد مملكة يستقر بها المستعمرون، فانهم ارتبطوا باعتبارها وطنا Patria لهم. وكان السفر إلى الغرب يعتبر سفرا إلى الخارج، كما كانت العودة، مثلما فعل وليم بعد انتهاء دراسته، عودة إلى الوطن.

كانت الفكرة التى صاغها وليم عن الوطن Patria هى حافزه إلى الكتابة وتأليف تاريخه الكبير. حقيقة أن حب الوطن قد حرك الكثيرين من المؤرخين، بيد أنه كان شيئا جديدا فى القرن الثانى عشر. **إذ كان الوطن فى العصور الوسطى يحمل معنى دينيا فى غالب الأحوال**: فما نحن سوى عابرى سبيل فى هذه الحياة، مسافرين إلى وطننا الحقيقى فى السماء. وحين كانت كلمة الوطن Patria تستخدم بغير هذا القصد فانها كانت تدل على «الاقليم» أو «محل الميلاد» على نحو ما يكتب اليوم فى جوازات السفر. وقد فهم الرومان الوطنية، فقد كان الرجال يموتون فى سبيل بلادهم، وحفظت لنا الدراسات الكلاسيكية المفهوم القديم لكلمة الوطن حيا، ولكن لم تكن هناك بؤرة يرتكز هذا المفهوم عليها. كذلك كتب المؤرخون عن أعمال الشعوب، والاسرات الحاكمة ولكنهم لم يكتبوا عن الأرض التى يعيشون عليها. ويبدو غريبا أنه تعين أن تتبلور الوطنية فى المملكة اللاتينية بفلسطين، بسكانها المختلطين، وحكومتها المترهلة، ومستقبلها غير المأمون. وربما تكون ظروفها القاسية هى التى أذكت حاسة الامتلاك لدى المستعمرين. وحب الوطن فى كتاب وليم الصورى ليس مجرد ذكرى كلاسيكية، وإنما هو شعور ينبض بالحياة والقلق. ويتجلى هذا الشعور فى الفاتحة التى يستهل بها كتابه، حيث يقدم الأسباب المعتادة للتأليف. وهو لا يستطيع أن يسقط السنوات المائة الأخيرة من الذاكرة الانسانية، لأن حبه لبلاده يدفعه إلى مواصلة الكتابة. وكان لابد أن تغطى «حلاوة أرض وطننا» على ما يشوبه من نقائص كمؤرخ.

أما الاستهلال الثانى لكراسته التى لم يكملها(٧) فيشرح الأسباب التى دعته إلى تناول هذا الموضوع، لقد كان هناك الكثير مما أقنعه بالعدول عن الكتابة، وهو يقول إن أحدا لا يرغب أن يخوض فى أعراض مرض بلاده وما أصابها من فشل، ذلك أنه من الطبيعى أن يمتدح المؤرخ بلاده ويثنى عليها بكل ما أوتى من وسائل. إلا أنه فى ذلك الوقت لم يكن هناك ما يستحق أن يرويه. وعاد وليم ليردد مزاعم ليفى بأنه وصف ما كان الرومان القدماء عليه من نقاء وشجاعة ليكون ذلك عبرة لاسلافهم المستضعفين

---

(٧) تقصد المؤلفة الكراسة الثالثة والعشرين التى شرع فى كتابتها بعد فترة الانقطاع والتى لم يستطع أن يتمها لوفاته. (المترجم)

المتخاذلين. لقد شجعه أصدقاؤه حين أوضحوا لـه أن ليفى ويوسيفـوس تكلما عن المصائب بقدر ما تكلما عن الانتصارات، وذلك حين روى ليفى قصة الرومان وحين روى يوسيفوس قصة اليهود. فضلا عن أنه ينبغى على المؤرخ المتمسك بفضيلة مهنته أن يثبت ما حدث بالفعل، وليس ما كان يأمل فى حدوثه. وهكذا شرع وليم فى رواية قصة الكارثة. والواقع أنه لابد للكاتب الذى يتصدى للكتابة عن الأخطار المحدقـة بالبلد الذى يحبه أن يتميز بفضائل غير عادية.

وأهم ما يتميز به وليم كمتخصص فى الدراسات الكلاسيكية قدرته على السيطرة والتحكم فى مصادره القديمة. فقد عدل من الصورة التى رسمها سويتونيوس للحاكم بحيث تلائم البناء الذى اقام عليه كتابه، فهو فى البداية يروى قصة تأسيس المملكة اللاتينية فى بيئة اسلامية، ثم يحكى قصة الحملة الصليبية الأولى، ثم يثنى برسم صورة لشخصية كل ملك يتبعها بتقرير كرونولوجى (زمنى) عن عهده. ثم ينسج هذه الخيوط ببعضها البعض بحيث تبدو شخصية الحاكم وهى تعكس ردود الفعل تجاه الاحداث الجارية. وفى هذا الكتاب تدب الحياة ثانية فى أوصال ملوك بيت المقدس، اننا لا يمكن ان نلوم وليم لأنه لم يكن بينهم من يصلح مادة لصورة رائعة مثل تلك التى رسمت لهنرى الثانى. وتضمن الكتاب شخصيات وأماكن أخرى أيضا. ويقدم لنا وليم تقريرا جغرافيا عن كل مكان يذكره، كما يتتبع تاريخ هذا المكان منذ الماضى البعيد، ويرسم لنا كتابه صورة للأرض والفرنجة الذين قهروها. لقد بذل جهدا مضنيا فى سبيل جمع المعلومات عن الحوادث التى لم يكن من شهودها. وكان هذا افضل ما يمكنه عمله. وقد حاول ان يكتب بموضوعية حتى ولو أغضبته التصرفات غير المسئولة. ولم يحاول اخفاء مشاعره الشخصية. ولا بد ان وليم كابد الكثير لكى يحكى كيف ان الملك اماليك سأله فجأة ان يقدم من الاسباب مـا يعلل عقيـدة التجسد. وكـانت حجة اماليك انه يؤمن بهذه العقيدة ولكنه يود أن يعرف ما هى أساليب الجدل التى يمكن للمرء أن يبرهن بها على صدق المذهب لشخص لا يقبله على أساس الايمان فحسب. لقد أحزن وليم وأغرق روحه فى الأسى أن أميرا مسيحيا، من أبوين مسيحيين، يسأل فى امر يسلم به جميع المسيحيين. ورغم ذلك فانه يروى لنا هذه المحادثة، لكى يبين عادة الملك فى الكلام حين تصيبه الحمى ويحتاج لمن يرافقه وهو على سرير المرض. ويلتزم وليم العدالة الكاملة تجاه ما تحفل به قصته من اثارة وآلام كابدها الوجود الصليبى فى فلسطين. وثمة ضوء من سحر الشرق يتألق فى ثنايا وصفه لقصر أحد الخلفاء نقلا عن بعض من رآه. كما انه يقدم تقريرا مثيرا لمشاعر الشفقة عن كيفية اكتشافه أن تلميذه -- الوريث الشاب للمملكة – قد أصيب بالبرص.

ويتميز وليم بما يتميز به أى رجل من رجال الكنيسة من عيوب وتحيز. اذ انه كان

يكره ان يشارك فى الحملات بنفسه، كما لم يكن يوافق على الأساقفة العسكريين، ولذا فانه يبلغ اقصى درجات الضعف اذا ما تناول التاريخ العسكرى. وهو يحط من قدر الأمراء الذين يقللون من الامتيازات الكنسية. وكان طبيعيا ان يمتعض كبير الاساقفة من الحريات التى يتمتع بها رجال الدين، لا سيما تلك التى يتمتع بها فرسان المعبد، لأن اعفاءهم من الخضوع للسيطرة الادارية قد خلق بعض الصعوبات. ومنعته غيرته من الداوية Templars من ان يوفيهم حقهم لما قاموا به من عبء الدفاع عن المملكة. ومن المدهش انه يتسم بالموضوعية فى احكامه على ما عدا ذلك.

وقد تجلت افضل مؤهلات وليم كمؤرخ من خلال معالجته لمشكلة السببية. اذ ان دعوة البابا اوربان الثانى الى شن حملة صليبية قد بددت الظلام الذى كان مخيما على تلك الفترة المثقلة بالمتاعب، كما بعث آمالا جديدة فى أنحاء العالم المسيحى. ولكن وليم فند رواية المؤلف المجهول عما أسماه «**بالحركة العظيمة**» التى بدأت الحملة الصليبية الأولى. فلم يكن كل صليبى يتصرف بوازع دينى. اذ ان البعض قد شارك فى الحملة وحمل راية الصليب مجاراة لأصدقائهم، حتى لا يظهروا بمظهر الجبناء، كما حمل البعض الآخر راية الصليب لمجرد ما فى ذلك من متعة، وفريق غيرهم فعل ذلك هربا من مطاردة دائنيهم، على حين كان فريق آخر مجرمين هاربين من العدالة. ورغم هذا الخليط من الدوافع المتضاربة فان الحملة الصليبية الأولى قد نجحت. وحين وصل وليم الى سنة ١١٤٧ التفت الى الوراء مسائلا نفسه : لماذا لم يستمر النجاح؟ ولماذا يفشل الجيل الحالى فى مواصلة الغزوات التى بدأها اسلافهم فى فلسطين؟ وكانت الاجابة الواضحة عن هذا السؤال هى «**التدهور الأخلاقى**». وربما تكون هذه اجابة خاطئة : ذلك أن الفرنجة فى فلسطين قد نشأوا على الدعة وحب الراحة – وغالبا ما يربط الأخلاقيون بين الراحة وارتكاب الخطايا ولم يعقب ذلك ان انحط المستعمرون أو تدهورت أخلاقهم. بيد أن هذا التفسير الجاهز لم يقنع حتى وليم نفسه. ومن ثم فانه أخذ يفتش بنفسه عن أسباب أخرى فى تاريخ المسلمين. لقد كان الصليبيون الأوائل جنودا مجربين، يهاجمون بلادا كان أهلها قد تعودوا على حياة السلم ونسوا كيف يدافعون عن انفسهم، كما أن أعداء الصليبيين لم يكونوا متحدين سياسيا إذ حارب الأمراء المسلمون بعضهم بعضا دون ان يسلموا زمامهم لسلطة عليا. وكادت كل مدينة أن يكون لها حاكمها الخاص بها، ولذا فان هذه الحصون سقطت بسهولة فى أيدى الصليبيين. اما الآن فقد انعكس الحال، اذ توحد المسلمون تحت زعامة حاكم واحد (صلاح الدين الأيوبى) كما كان لدى هذا السلطان الأموال الوفيرة بفضل فتوحاته مما يسر له سبيل الانفاق على جيوشه. كذلك كان هناك العدد الوفير من الرجال الذين يمكن ضمهم للجيش. لقد واجه جيل الفرنجة الذى عاصره وليم بفلسطين من المتاعب أكثر مما واجه اسلافهم.

وتحقق وليم أن الوحدة السياسية والخزانة العامرة سوف تحسم الصراع بين القوتين. ولا يزال المؤرخون المحدثون الذين يتناولون تاريخ المملكة اللاتينية يأخذون بتحليل وليم لأسباب سقوطها. كما أنهم ينقحون روايته بالاشارة الى مظاهر الضعف الكامنة فى بنيان الحكومة اللاتينية فى بيت المقدس. فقد كان الملك يفتقر الى الموارد المالية، كما ان سيطرته على باروناته قد انهارت ابان القرن الثانى عشر. إن موافقتنا بشكل عام على تحليل وليم للسببية هو المديح الذى يستحقه كمؤرخ.

أما **جيوفرى الفيلهاردوينى** فانه يتشابه مع المؤلف المجهول من حيث كونه جنديا وعلمانيا. وكتابه «غزو القسطنطينية» رواية شاهد عيان وقصة نجاح مثل كتاب «اعمال الفرنجة». إذ أن كلا من الكاتبين قد خطط لكتابه بالطريقة نفسها، فقد بدأ كل منهما بالكتابة عن الدعوة الى الحملة الصليبية، ثم استمر فى روايته ليصف احداث الحملة وحصادها الظافر، وبعد ذلك يخلص الاثنان الى وصف ماترتب على الحملة من نتائج وآثار. وعند هذا الحد ينتهى التشابه بينهما. فلم يكن فيلهاردوين قائد شمبانى Champagne فارسا بسيطا، بل كان قائدا وواحدا ممن يضعون الخطط وينظمون الجيوش.وكان له نصيبه فى مفاسد الحملة الصليبية الرابعة. وبعد سقوط القسطنطينية تولى منصب «مارشال» فى المملكة اللاتينية الجديدة، كما صارت امارة أكايا Acaia فى بلاد اليونان له ولورثته من بعده.

وقد ألف جيوفرى كتابه بالفرنسية. ويعد «غزو القسطنطينية» من أقدم ما وصلنا من الروايات التاريخية النثرية المكتوبة بالفرنسية. وغياب السوابق التى يمكن المقارنة بها يعنى أن الكتاب حافل بالمشكلات بالنسبة للمؤرخين المحدثين. اذ اننا لا نعرف ما قرأة المؤلف من كتب. لقد كان على معرفة جيدة بالخطوط العريضة للمؤلفات التاريخية الصليبية الأولى، ولا بد أنه استمع الى الملاحم العامية والقصص الخيالية. لانه يستعير تراثها الأدبى، ويطلب من مستمعيه «**ان ينصتوا باهتمام**» ويكرر عبارة «**كما يقول الكتاب**» لكى يثبت أصالة روايته وصدقها. الا انه لم يكن من مؤلفى الروايات الخيالية. فقد روى الأحداث الحقيقية والمدهشة فى قصة غزو جيش صغير لمدينة كانت آنذاك قوية بحصونها، غنية بكنوزها. ولو أنه أستخدم المحسنات اللفظية وقصص المعجزات لكانت أفسدت تأثيره. كان جيوفرى ذا نظرة ثاقبة فيما يتعلق بالتفاصيل العسكرية، كما أنه يتميز بالقدرة على نقل انطباعه الى القارئ مباشرة. وكانت صياغة الخطب مصدر ازعاج بالنسبة له. ورغم انه كان يشارك فى اجتماعات القادة؛ إلا أنه كان يقنع بملخص موجز لما قيل فى هذه الاجتماعات دون أن يزينه بالزخارف البلاغية.

أما هدفه من الكتابة فهو أيضا مثار نقاش. فقد صنف مؤرخو الأدب الفرنسى

الوسيط كتاب «غزو القسطنطينية» على أنه «ملحمة فاشلة». واذا ما اخذنا بهذا الرأى يكون جيوفرى قد وضع خطته على أساس أن يكتب ملحمة عن انتصار الصليبيين ولكنه انتهى الى خيبة امل لعينة حين فشل فى ذلك. فقد اخفق الغزاة فى مواجهة المقاومة البيزنطية فى الريف والمدن الصغرى فى شتى انحاء الامبراطورية. ويبدو مشهد الغزو الذى رسمه بقلمه غير مقنع. فاذا ما كان جيوفرى قد أراد أن يكتب ملحمة نثرية، فقد كان بمقدوره أن يتوقف والأمور مازالت على ما يرام. كما كان يمكنه أن يجعل من الاستيلاء على القسطنطينية النهاية السعيدة لملحمته. فضلا عن انه لابد للملحمة من أبطال، وليس هناك أبطال فيما كتبه جيوفرى. والحقيقة أن دوج البندقية لعب دورا مشرفا فى الغزو، بيد أن هذا الرجل المسن الضرير - رغم حكمته وشجاعته التى اشاد بها جيوفرى - لا يمكن أن يلعب دور البطل. وربما يمكن ان نجعل البطولة فى هذه الرواية لجيوفرى نفسه، لولا انه لم يكتب بقصد تمجيد ذاته وتضخم مآثره على حساب الآخرين. فهو يذكر أسمه وما ساهم به فى الأعمال الحربية والدبلوماسية دون أن يجرد رفاقه من امجادهم.

اما رأى المؤرخ فى «غزو القسطنطينية» فهو انه كتاب دعاية. اذ ان جيوفرى أراد أن يغطى المؤامرة التى ادت إلى انحراف الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها لكى تحاصر عاصمة مسيحية وتستولى عليها. وهذا الرأى يلقى قبولا اكثر من غيره من الآراء. فلم يحدث أن أجمع كل معاصرى جيوفرى على إعتبار الحملة الصليبية الرابعة نصرا مجيدا. بل إن البعض كان يعتبرها عملا قذرا منذ البداية. إذ كان البابا قد منع مهاجمة المسيحيين، ولكن البنادقة كانوا فى وضع يسمح لهم بالسيطرة على مقاليد الأمور فلم يمتثلوا للحظر الذى فرضه. وتعهدوا بأن يقدموا للحملة ما تحتاجه من السفن التى كانت قد اقلعت فعلا من البندقية. ولم يكن باستطاعة الصليبيين أن يدفعوا الثمن المتفق عليه، ومن ثم كان عليهم ان يوافقوا على خطط البنادقة اذا ما ارادوا استخدام الأسطول البندقى. ولما كانت القسطنطينية هى العقبة الرئيسية فى سبيل سياسة التوسع التجارية التى انتهجها البنادقة، فقد استغل الدوج ومواطنوه جشع الصليبيين وطمعهم فى الأرض والغنائم لكى ينتهزوا فرصة الشجار الذى نشب بين افراد الأسرة الحاكمة فى المدينة. وتحولت الحملة الصليبية عن خط سيرها وتم الاستيلاء على القسطنطينية التى اقيمت بها امبراطورية لاتينية. والحقيقة أن البنادقة جلبوا على أنفسهم عقوبة الحرمان الكنسى قبل أن تطأ أقدامهم تربة بيزنطة، لأنهم ارغموا الصليبيين على مساعدتهم فى الاستيلاء على مدينة زارا Zara المسيحية فى دلماشيا وهم فى طريقهم صوب الادرياتيك، ولم يصر البابا على الحظر خوفا من أن يفقد ما كان له من سيطرة ضئيلة على الصليبيين.

ومن المؤكد أن جيوفرى يشوه قصته باخفاء بعض الحقائق المعروفة. فهو يحاول التمويه والتغطية على دور البنادقة فى غزو القسطنطينية وصدور قرار الحرمان ضدهم، وهو يقدم لنا تقريرا غير عادل عن الانشقاق الذى حدث فى صفوف القيادة الصليبية. فالحقيقة أن أحدا من اولئك القادة لم يكن ينوى الذهاب بقواته الى الأراضى المقدسة، لأنه لو فعل ذلك سيكون هراء لا معنى له، كما أنه لن يستطيع مساعدة مملكة عكا. لقد كان الهدف هو ضرب القوى الاسلامية فى أقوى نقاطها، أى القواعد البحرية فى مصر. كما أن الصليبيين من ناحية أخرى، كانوا يريدون الذهاب فى رحلة حج مسلحة من الطراز القديم الى الأراضى المقدسة. لقد ضلل القادة جنودهم حين أعلنوا انهم ذاهبين الى «**ما وراء البحار**»، لأن هدف الحملة لم يكن محددا. ويلتزم جيوفرى الامانة وهو يخبرنا بذلك. وقد حدث الانقسام حين اقترح تغيير وجهة الحملة الى القسطنطينية. فقد عارض بعض القادة ذلك الأمر فى عناد، ورفضوا ان يرافقوا البنادقة والصليبيين الآخرين. وبما أنهم كانوا من القلة بحيث لا يمكنهم ان يهاجموا مصر، فقد ابحر هؤلاء المعارضون الى فلسطين حيث يمكنهم ان يبذلوا ما فى وسعهم. ويصورهم جيوفرى على أنهم مخربون يعرقلون مسيرة الحملة الصليبية، وهم «**اولئك الذين أرادوا أن يبثوا الفرقة فى صفوف الجيش**». أما «**الصليبيون الحقيقيون**»، فهم جيوفرى وأصدقاؤه. وهو يتجاهل الدوافع الدينية التى منعت هؤلاء من شن الحرب على اخوتهم المسيحيين. ويجب الاعتراف بانه كان محقا فى قوله إنهم لم يحققوا إلا القليل فى فلسطين.

على أية حال، فإن من الخطأ أن نستبعد هذا الكتاب على أساس أنه دعاية مجردة. فالبحث فى القصة المتشابكة الخيوط للمؤامرة التى أدت إلى اقتراح تغيير مسار الحملة، يوحى بأنه لم تكن هناك مؤامرة ينبغى تغطيتها، فلم يكن بوسع البنادقة أن يحيكوا مؤامرة تغيير مسار الحملة لأنهم لم يكونوا فى وضع يسمح لهم بالتنبؤ بما سوف يحدث. كذلك كانت ثمة اخطار عديدة ماثلة. ومن الافضل أن نفسر سلوك صليبيى الحملة الرابعة فى ضوء تعنتهم فى المساومة وما وصموا به من انتهازية ماكرة لافى ضوء التآمر المدبر سلفا. وعلى أية حال، فان الامبراطورية اللاتينية كانت أمرا واقعا حين كتب جيوفرى كتابه سنة ١٢٠٧، كما كان البابا قد اعترف بهذه الامبراطورية ولم يكن هناك سبب يدفع جيوفرى الى تبرير مسلك البنادقة وحلفائهم الصليبيين، رغم أنه حاول ان يسدل ستارا من الغموض على الوجه المسىء من قصة انحراف الحملة الصليبية الرابعة(٨) الى القسطنطينية.

---

(٨) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة انظر: الدكتور سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ٩٢٩ ـ ص ٩٤٠، وانظر أيضا: ج.م.هسى، العالم البيزنطى، (ترجمة الدكتور رأفت =

والرأى الأكثر حداثة ورواجا عن «غزو القسطنطينية» يتميز بأنه أكثر بساطة أيضا : إذ يعتبر أن الكتاب «**مذكرات عسكرية لقائد ناجح**». وما يقدمه جيوفرى فى كتابه يعد تحيزا أكثر منه تزويرا، وهو الأمر الذى يمكن للمرء أن يتوقعه من كتاب من هذا النوع. وهذا الرأى يجهز على نظرية «**الملحمة الفاشلة**». إذ يبدو من الطبيعى أن يسجل أحد القادة تفاصيل العمليات التى جرت لتصفية جيوب المقاومة بعد المعركة، على نحو مافعل جيوفرى. وليست هذه انتكاسة بالنسبة له كجندى؛ إذ أنه من الممكن لأى قائد أن يهون من قوة حركات المقاومة كما هون جيوفرى من شأن المقاومة البيزنطية ضد اللاتين.

ومذكراته قيمة وثمينة كموضوع جديد، والأهم من ذلك أن كاتبها رجل علمانى. إذ أنها تكشف لنا عن عقلية ورؤية أكثر علمانية من عقلية ورؤية المؤلف المجهول. ويبدو اهتمام جيوفرى بالدين ضئيلا بالقدر الذى لا يجعله يجشم نفسه عناء مجرد انتقاد رجال الدين. وكان تدخل البابوية فى الشئون العسكرية يضايقه؛ كما كانت المنازعات الكنسية مصدر تسلية بالنسبة له. فقد كان المندوبان البابويان اللذان رافقا الصليبيين من رؤساء الأديرة السسترشية. وانحاز أحدهما إلى جانب «**الصليبيين الحقيقيين**»، كما يسميهم جيوفرى، بينما وقف الآخر معارضا تحويل الحملة. وقد بدا الفرق فى موقف الاثنين أمرا مضحكا فى عينى جيوفرى.

ولجيوفرى نظريته الخاصة فى السببية، فهى القدرية بكل بساطة. فكل ما يحدث بمشيئة الرب. وقد صادر هذا الموقف على أى تحليل جاد للأسباب. والواقع أن رؤيته العلمانية لم تقده إلى التفكير العميق.

ولنتحول الآن إلى الحملة الصليبية الألبيجنسية التى وجهت ضد الهراطقة فى جنوب فرنسا. ولم يخلف أولئك الهراطقة أية مؤلفات أو مدونات تاريخية، وهو أمر لايدهشنا. إذ كان الكاتاريون (المتطهرون) يؤمنون بالثنائية أى أنهم كانوا يؤمنون بأن الشيطان هو الذى خلق العالم المرئى. ومن ثم فإن كتابة تاريخ هذا العالم ستكون مجرد تشهير بفضائحه ومخازيه. وثمة جماعة أخرى من الهراطقة هم الوالدنسيون Waldenses (نسبة إلى قائدهم فالديس Valdés) أو «رجال ليون الفقراء»، كانوا أكثر قربا من البروتستانت فى معتقداتهم. وربما يكونوا قد كتبوا تاريخ طائفتهم، ولكنه لم يصلنا، ومن المحتمل أنهم انشغلوا بالصراع ضد الكاتاريين والكاثوليك بحيث لم

= عبد الحميد، القاهرة ١٩٧٧)، ص ٢٠٧ - ٢١٣. انظر أيضا المقدمة التى كتبها M.R.B. Shaw لكتاب جيوفرى تحت عنوان :

Joinville and Villehardouin, chronicles of the Crusades, Penguin Classics, 1973.
(المترجم)

يتجهوا إلى كتابة التاريخ. ولذا فإننا نعتمد على المؤرخين الكاثوليك فى التعرف على قصة الحرب الصليبية ضد الهراطقة فى أراضى جنوب فرنسا. ومن حسن الحظ أنهم تناولوها من وجهات نظر مختلفة أشد الاختلاف.

ومؤلفنا الأول راهب سسترشى هو **بطرس راهب دير فودى سيرناى** Vaux de Cernai وكان عمه هو مقدم الدير، وقد أخذه معه حين ذهب برفقة الحملة الصليبية الرابعة كمندوب بابوى. وهو المندوب الذى وصمه جيوفرى الفيلهاردوينى بأنه مخرب لأنه عارض تغيير مسار الحملة وأصر على مواصلة السير إلى الأراضى المقدسة. وفى سنة ١٢١٢، حين عاد العم وابن أخيه، عين البابا انوسنت الثالث العم مندوبا بابويا فى رفقة الحملة الصليبية الألبيجنسية (ومن حسن الطالع أن البابوات استخدموا الرهبان السسترشيين كمندوبين ومبعوثين إلى الهراطقة). وهكذا صحب بطرس عمه ثانية. وبذا توفرت له تجربتان فى الحروب الصليبية وقد ساهم فيها رغم أنه لم يحارب فعلا لكونه راهبا.

لقد حققت الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين نجاحا باهرا. إذ اخترق بارونات شمال فرنسا قوات الجنوب الغير مدربة والغير منظمة كما تشق السكين طريقها فى قطعة من الزبد. وتم تجريد نبلاء الجنوب من أملاكهم، وانتزع قائد الحملة الصليبية سيمون دى مونتفور Simon do Montfort (وهو والد الايرل سيمون الذى خر صريعا فى معركة ايفيسهام Evesham) امارة لنفسه فى الجنوب. وصار عم بطرس أسقفا لمدينة كاراكسون Carracassonne سنة ١٢١٤. وربما يكون ابن أخيه قد مكث معه كسكرتير يدير شئونه. وعلى أية حال، قضى بطرس معظم وقته فى جنوب فرنسا بعد ١٢١٢. وهناك كتب باللاتينية «تاريخ الحروب الصليبية الالبيجنسية» وتوقف كتابه عند سنة ١٢١٨. وربما يكون بطرس قد مات أو توقف عن الكتابة لأن سيمون دى مونتفور قتل فى هذه السنة. فقد كان سيمون هو بطل بطرس الذى كان يكن له الاعجاب منذ الحملة الصليبية الرابعة حين تولى سيمون قيادة القوات التى واصلت السير إلى فلسطين.

وكتاب «تاريخ الحروب الصليبية الالبيجنسية» عبارة عن رواية كاملة متصلة ومدونة وفقا للتسلسل الزمنى. وكان بطرس موهوبا من حيث قوة ملاحظته وقدرته على الوصف. وقد عرف بأنه «**مصور عظيم للاطلال**» إذ كان هناك الكثير مما يستحق التصوير فى المنطقة المخربة التى كان يسكنها الالبيجنسيون terra Albigensium. وكان يبتهج كما يبتهج الجندى بالتحصينات القوية. ولذا فإن مدينة كاراكسون قد حازت رضاه كقلعة، حتى وهى ماتزال بيد الأعداء. ويمكننا من خلال تعليقاته التى تنبض بالحيوية أن نعرف كيف كانت مناظر الجنوب وطرقه تبدو غير مألوفة فى عيون

سكـان الشمال. وإذا مـا قارنـاه بمؤرخى الحملات الصليبيـة التى اتجهت صوب فلسطين، يبدو لنا بطرس أقرب شبها بالمؤرخ المجهول صاحب « أعمال الفرنجة ». لقد كان ينظر إلى الهراطقة بنفس نظرة المؤلف المجهول إلى المسلمين. فقد كان الهراطقة فى رأيه أتباعا للشيطان، ولذا فإنهم جديرون بما حل بهم من نوائب.

وغرض بطرس المعلن من الكتابة مبين فى مقدمة الجزء الأول من كتابه، الذى يتوجه به إلى البابا انوسنت الثالث. فهو يقول إن الكتاب سوف يحفظ أعمال الرب المدهشة : ذلك أن الصليبيين قد انقذوا سفينة المسيحية التى كانت على وشك الغرق فى جنوب فرنسا، أما غرض بطرس غير المعلن، والذى يحتمل أن يكون رؤساؤه قد اقترحوه، فهو أن يكسب تأييد البابا لسيمون وحلفائه. لم يكن أنوسنت الثالث قد تصور امكانية تجريد نبلاء الجنوب تماما من أملاكهم لصالح الصليبيين. ولجأ كونت تولوز إلى روما حيث بدا وكأن أنوسنت الثالث سوف ينصفه. لقد كان بطرس يأمل فى التأثير على البابا بحيث يقف إلى جانب سيمون ضد كونت تولوز. وقد بنى دعايته على أســاس ادانة الهراطقة ووصم الكونت وغيره من نبلاء الجنوب بأنهم هراطقة، وقد كشف بطرس عن الحقيقة حين قال إنهم تسامحوا مع الهراطقة فى مقاطعاتهم، إلا أنه كانت لدى هؤلاء النبلاء أسباب أكثر تعقيدا مما جاء فى كتاب بطرس لتبرير هذا التصرف من جانبهم. حقيقة أن البعض قد تغزل بالهرطقة. وأن نساءهم فعلن ما هو أكثر من مجرد التغزل بها، ولكن تعميم هذا الاتهام فيه ظلم كبير.

واستخدم بطرس تاريخ الجنوب السابق على هذه الفترة بشكل يخدم قضيته؛ فقد تتبع تاريخ الهراطقة منذ غزو القوط الغربيين لجنوب فرنسا واستقرارهم فيها حينا من الدهر. فقد صارت تولوز (عاصمة القوط الغربيين) مركزا للهراطقة منذ ذلك الحين. ولم يزعجه حقيقة أن القوط الغربيين كانوا أريوسيين ولم يكونوا مانويين أو أن الاريوسية لم تكن عقيدة ثنائية المضمون. وتبدو مقولته بأن نبلاء تولوز كانوا دائما من الهراطقة غريبة فى ضوء ماقاموا به من أعمال سجلت لهم كمحاربين فى الحملات الصليبية إلى الأرض المقدسة، فقد لعب الكونت ريموند دورا قياديا فى الحملة الصليبية الأولى، كما أن ورثته أهملوا شئون دوقيتهم فى سبيل السير على دربه. وعلى أية حال، فإن بطرس وهو يروج لدعايته، كان يصدقها بالفعل. ولم يكن يفهم عقلية الجنوب، كما أنه افتقد إلى الحس الانسانى. وبدا له انه يستحيل أن يستطيع أحد الكاثوليك تجاهل واجبه فى القضاء على الهراطقة فى مقاطعته. وهكذا، كان أمراء تولوز هراطقة فى نظر بطرس الذى بالغ فى تبسيط الأمور. هذا الموقف التقليدى الجامد نفسه يبرز فى مدونة تاريخية لاتينيـة قصيرة كتبهـا محقق دومنيكـانى اسمـه **وليم البيلهيسـونى** Wiliam of Pelhisson (ت ١٢٦٧)، وهو من أهل الجنوب أصلا، ولكن وظيفته كمحقق دفعته إلى

عدم مساندة الهراطقة. ومن ناحية أخرى، فإنه يعرض لنا صورة مختلفة عن تلك التى يعرضها بطرس. فقد وفد الراهب ـ الجندى إلى الجنوب فى ركب جيش الغزاة حيث كان على الراهب الدومنيكانى أن يعمل بين الهراطقة وغير المؤمنين مغامرا بحياته، وهو يسجل تجاربه كعضو فى جماعة ديرية فى مصطلحات بسيطة. فقد قام عدد قليل من الكاثوليك المخلصين الاتقياء بمساعدتهم حين هددتهم الجموع المعادية بالقتل جوعا. وفى سنة ١٢٢٩ أسس البابا جامعة فى تولوز لدحض تعاليم الهراطقة. وكان المذهب الكاثوليكى يبدو غريبا بالنسبة للطلبة لدرجة أن الضحكات كانت تدوى عالية فى قاعة المحاضرات أثناء شرح أصول هذا المذهب. وينبغى على السائح الذى يزور «كنائس الحصون» فى لانجدونك Languedoc أن يقرأ مدونة وليم. لأنها ستوضح له السبب فى أن الكاثوليك قد اضطروا لبناء معاقل لأنفسهم تكون بمثابة ملاجىء تستطيع مقاومة الحصار. وكان اهتمام هذا الراهب الدومنيكانى بأسباب انتشار الهراطقة أقل من اهتمام بطرس السرنايى: ذلك أن الشيطان كان سببا كافيا فى رأيه.

ويبزغ ضوء السببية الهادىء فى ثنايا المدونة التاريخية اللاتينية التالية. وكاتبها هو **وليم البيلورونسى** William of Puyalurens، وقد كتبها فى وقت كان من الممكن فيه إعادة النظر فى الحوادث بهدوء أكثر. وكان من أهل الجنوب مثل بيلهيسون، ولكنه لم يكن محققا مثله، وانما كان يحمل لقب أستاذ، بيد أننا لانعرف المكان الذى تلقى فيه دراسته، فقد كان قسا علمانيا استخدمه اسقف تولوز كموثق عقود. وربما يكون قد عمل فى وقت سابق مع الأسقف فولك Fulk اسقف تولوز الذى مات سنة ١٢٣١. ثم عمل قسيسا خاصا لدى كونت تولوز. وقد فرغ من كتابة الجزء الأول من كتابه بعد سنة ١٢٩٤، وهو يغطى حوالى خمسين عاما من تاريخ اقليم الجنوب الفرنسى منذ ظهور الهرطقة حتى مرور خمسين عاما أما الجزء الثانى الذى يستمر حتى سنة ١٢٧٤/٧٣ فهو عبارة عن سجل مشوش لا يخصنا فى شىء. وقد اسمى بيلورنس كتابه مدونة تاريخية، وهو عبارة عن رواية حقيقية بغض النظر عن النمط المزعوم. وقد كتبه لجمهور عريض، وليس لصفوة من الباحثين والعلماء والنبلاء. كان هدفه كما حددته كلماته هو:

«أن اثبت بعض مارايته او سمعته من جيرانى حتى يفهم ابنـاء الطبقات العليا والوسطى والدنيا حكمة الرب وعدله الذى جعله يصب جام غضبه على هذه البلاد جزاء على ما ارتكبه أهلها من خطايا».

وبينما نتوقع أن نسمع رعد التهديد والوعيد الذى يميز كلام المبشرين، إذا ببيلورنس يعكف على تحليل أسباب الهرطقة. فإن اعتياده على أساليب الحياة فى الجنوب جعلته يتميز على بطرس السرنايى. وبطل مدونته ليس سيمون دى مونتفور

المتهور، بل فولك اسقف تولوز الذى كان راهبا وواحدا من دعائم الاتجاه المحافظ، بيد أنه كان حكيما متزنا. وبيلورنس مولع باقتباس ردوده الدالة على سرعة البديهة وذلاقة اللسان. ففى ذات يوم. بينما هو جالس على أسوار تولوز سمع بعض الهراطقة يصيحون بأنه «أسقف الشيطان» **فأجابهم بقوله «هذا صحيح تماما، أنتم الشياطين وأنا أسقفكم»** . كما كان بيلورنس قادرا على تقدير الدوافع وراء أية جريمة سياسية. فقد شنق ريموند أمير تولوز شقيقه الكونت بلدوين، ويلتمس مؤرخنا العذر لريموند فى خيانة بلدوين لشقيقه ـ إذ أنه كان قد انضم إلى الشماليين لأن ريموند لم يفعل شيئا من أجله ـ ولكن، من ناحية أخرى، كان لريموند مبرره السياسى فى قتل أخيه. ولأن بيلورنس درس السياسة فإنه كان ينقض على الهفوات السياسية والدبلوماسية، فقد كان باستطاعته أن يميز بين الدعاية والحقيقة. وكان تعاطفه موجها إلى الملكية الفرنسية على المدى الطويل، كان الكابيون غرباء على الجنوب الفرنسى، ولكن غزوهم لهذه البلاد المضطربة أرسى دعائم القانون والنظام، والحقيقة أن بيلورنس كان واقعيا فى تناوله لهذا الموضوع.

وقد شخص الهرطقة على أنها مرض أخلاقى أصاب مجتمع جنوب فرنسا بأسره. وكان سبب المرض هو التقصير، أى أن رجال الكنيسة قصروا فى أداء واجباتهم فى تعليم الشعب لأصول المذهب الكاثوليكى. كما أنهم لم يكونوا قدوة حسنة للناس. وكان للهراطقة مظهر طيب. وبذلك تمكنوا من كسب العديد من الاتباع. أى أن الهرطقة كانت تعبيرا عن عدم رضاء الناس عن الكنيسة. وعاش هذا التشخيص طويلا. بحيث أصبح «**فساد الكنيسة**» هو أكثر الاجابات شيوعا على السؤال القائل «**لماذا ازدهرت الهرطقة فى جنوب فرنسا أكثر من أى مكان آخر؟**». ولم يحدث سوى منذ زمن قريب أن بدأ المؤرخون يشكون فيما إذا كانت كنيسة جنوب فرنسا بالذات هى التى تستحق النقد، وبدأوا يفتشون عن أسباب أخرى. لقد تولت أجابة بيلورنس الرد على السؤال المطروح على مدى عدة قرون. وقد تكون إجابة بسيطة للغاية، ولكنها تصور الموقف كما كان يبدو لأحد المراقبين العقلانيين.

ويمضى بيلورنس قدما فيناقش انتشار الهرطقة. لقد كانت مرضا داهما. كان أبناء هذه الطائفة يعملون خفية فى بادئ الأمر، ثم شجعهم نجاحهم على التبشير لمذهبهم علانية. وهو يشرح ما كان يثير حيرة القادمين حديثا إلى جنوب فرنسا، ابتداء من بطرس السرنايى، وهو: لماذا عاش الكاثوليك جنبا إلى جنب مع الهراطقة دون أن يحاولوا أن يجعلوهم يعتنقون الكاثوليكية أو حتى يضطهدوهم؟. لقد اعتبرهم بطرس جميعا هراطقة. إلا أن بيلورنس يجيب عن هذا السؤال المحير بأن نجاح الهراطقة قد خلق دائرة شريرة آثمة. فرجال الكنيسة، الذين لم يحاولوا كسب احترام الناس،

انحطوا إلى درك سافل لدرجة جعلت الفرسان يحجمون عن الحاق أبنائهم بسلك الاكليروس. ومن ثم تناقص عدد القساوسة. ولم يكن بوسع الأساقفة إقصاء القساوسة الفاسدين، أى أنهم «**كانوا يقبلون القساوسة بعيوبهم**». وازداد تدهور مستويات التعليم والتوجيه الكنسى. ولم يكن باستطاعة كنيسة تعانى مثل هذا القصور فى أعداد القساوسة العاملين أن تقوم بتنظيم العلمانيين. كما أن فرسان الجنوب الفرنسى قد انحازوا إلى الطائفة التى حازت إعجابهم. وكان الهراطقة يعقدون اجتماعاتهم علنا ويكسبون ولاء أتباعهم. ورواية بيلورنس التحليلية عن طريقة انتشار الهرطقة تجعل من السهل علينا أن نفهم السبب فى تخوف نبلاء الجنوب من استخدام القوة. فقد كانت مهاجمة الهراطقة تعنى تدهور الموقف بأسره، كما أنها ستغضب جميع رعاياهم سواء كانوا من الكاثوليك أم من الهراطقة. وقد استطاع بيلورنس أن يصور لنا الموقف بطريقته الوصفية البارعة.

وثمة شاعران كتبا باللغة البروفنسالية نختتم بهما دراستنا عن المؤرخين فى هذا الفصل. بدأ أحدهما «أنشودة الحملة الصليبية ضد الألبيجنسيين» واكملها الأخر. ويخبرنا الشاعر الأول أنه كان استاذا للآداب وقسيسا، واسمه **وليم الطليطلى** William of Tudela. وكان يتكسب من عمله كممثل محترف ومنشد للشعر فى مجالس النبلاء. وبدأ قصيدته بحوادث سنة ١٢١٠ وتوقف بها عند سنة ١٢١٣، ربما لأن حاميه الكونت بلدوين كان قد لقى مصرعه على يد أخيه اسقف تولوز فى تلك السنة. وكانت هناك أشعار أخرى كتبت بالعامية فى موضوعات تاريخية لأن وليم الطليطلى يقول إنه صاغ قصيدته على غرار قصيدة صليبية هى «أنشودة انطاكية» التى لم تصل الينا. ومن سوء حظ المنشدين أن سوقهم كانت محدودة، وكان لزاما عليهم أن يتنافسوا مع المهرجين والممثلين الصامتين الذين لم يكونوا يقدمون سوى المشاهد الهزلية الرخيصة. وكان على الواحد منهم أن يقوم بالدعاية لنفسه، وقد كتب الناشر على سبيل التعريف بوليم ما نصه:

«بمجرد ان بدأ وليم قرض أنشودته، فإنه لم ينم تقريبا حتى فرغ منها. إنها جيدة الصياغة وحافلة بالأشعار الرقيقة. تجشموا عناء السماع وسوف تعرفون جميعا، الكبير والصغير، عدة أمور معقولة ومتناولة بشكل طيب، لأن بطن المؤلف تغص بالأقوال الجيدة. إن ذلك الذى لم يعرف القصيدة ولم يحس بقوتها إنما يجهل حجم ما فاته».

ويصف وليم نفسه بأنه «**رجل حاذق**»، ويزعم أنه تنبأ بالكوارث التى كانت تحلق فى سموات جنوب فرنسا عن طريق نوع من أنواع السحر الأبيض، فيقول:

«لقد كان يعرف من خلال دراسته لعلم الجيومانسى geomancy أن الأرض

سوف تحترق وتخرب بسبب المعتقدات المجنونة التى سمح بتسربها إليها، وان سكان المدن الاغنياء سوف يجردون من بضائعهم، وان الفرسان سيرحلون منفيين إلى بلاد بعيدة غريبة».

بيد أن رواية القصة تكشف عن أن «**نسيجها جيد**»، ذلك أن الجانب المأساوى منها فقط هو الذى يجعلها اكثر اقناعا. ولا يحاول الراوى إرضاء نفسه، فقد تصرف الصليبيون فى وحشية، إلا انه كان جنونا من الجنوبيين أن يسمحوا للهرطقة بالانتشار. أما الأشرار الحقيقيون فى رأيه – ولابد أنهم كانوا كذلك فى رأى مستمعيه – فهم الريفيون الذين يجهزون على الجرحى بالعصى والحجارة لسرقة ما تحمله الجثث. لم يكن لهم أدنى حق فى التدخل فى الحرب الدائرة بين السادة. وتذكرنا نظرية وليم عن السببية بكتاب «غزو فلسطين» فعنده أن ما يجب أن يكون سوف يكون «**لأن الناس لا يستطيعون ان يغيروا امرا اراده الله**». وهذا النوع من التاريخ هو الذى كان يكتب بقصد التسلية.

واستكمل الأغنية شاعر آخر أفضل منه استمر بها من سنة ١٢١٣ حتى سنة ١٢١٩/١٢١٨. وتوقفت الاغنية عند حادثة استعداد أهل تولوز الدفاع عن مدينتهم ضد الأمير لويس الفرنسى. وهو يقدم لنا عينة من «**تاريخ الحنين إلى الماضى**»، على حد التقسيم الذى وضعه كروتشه لأنماط الكتابة التاريخية. وكل معلوماتنا عن الشاعر مستنبطة من أشعاره، ويدخل فى دائرة الترجيح وليس التأكيد. فقد كان أستاذا للآداب وقسا مثل وليم الطليطلى، وكان مرتبطا ببلاط الكونت ريموند السابع أمير تولوز الذى ذهب بصحبته إلى اللاتيران سنة ١٢١٥ حيث ذهب ريموند لمقابلة البابا فى محاولة لاستعادة أملاكه وحقوقه المصادرة. وبدأ الشاعر فى كتابة قصيدته عقب سنة ١٢١٨. ولو أنه استطاع أن ينهى القصيدة، لكان من المحتمل أن يضع اسمه عليها لكنه لم يفعل. وليس ثمة شك فى صدق أحاسيسه. إذ كان يدافع عن الجنوبيين ضد الصليبيين، ولم يكن الشاعر المجهول متهرطقا أو معاديا للبابوية، ذلك أنه كان يكتب باعتباره كاثوليكيا مؤمنا، كما كان يؤمن بأن الرب يقف إلى جانب أولئك الذين يدافعون عن أراضيهم ضد الأجانب. وقد استخدم الشماليون الحملة الصليبية ضد الهراطقة كمبرر لهجماتهم الطامعة على أراضى الجنوب، إذ انهم تظاهروا بأن كل الجنوبيين هراطقة، وهو أمر غير صحيح على الاطلاق، ويظهر فولك – اسقف تولوز بطل وليم بيلورنس – كمنافق معسول الكلام لأنه يتعاون مع الصليبيين. أما سيمون دى مونتفور الذى جعله بطرس السرنايى بطلا لقصته وخلع عليه أكاليل الشرف وأثنى على طهارته، «**فقد اكتسب شهرته لأنه ذبح من النساء والأطفال أكثر مما ذبح من الرجال**» على حد تعبير الشاعر المجهول.

وفضلا عن الهزيمة، تعرض الجنوبيون للمذابح ونزعت منهم أملاكهم. فقد قلب الشماليون القيم رأسا على عقب وأنتهت أساليب الجنوبيين فى الحياة. ويجسد الشاعر قيمه التى يسميها Prix et parage فكلمة Prix تعنى الشهامة أو فضيلة الفرسان. بينما تعنى كلمة Parage طبقة البلاط فى الجنوب التى كانت تغدق المكافأة القيمة على من يتمتع بفضيلة الشهامة والبطولة. إذ كان فرسان الجنوب ميالين إلى التجمع فى بلاط سيدهم الاقطاعى بدلا من العيش فى ضياعهم، لأن ذلك كان يجعلهم مشترذمين بشكل لا يمكنهم من تقديم المساندة للأسرة الحاكمة. وقد كانت سيدات البلاط مصدر الهام للقصائد التى اشتهرت باسم «غراميات البلاط». كذلك كانت البلاطات الجنوبية تحبذ نمطا من الثقافة أقل طرافة وتألقا. وقضى دعاة المساواة الاجتماعية الشماليون ذوى القلوب القاسية على قيم الـPrix et Parage. وحين مات سيمون لمعت فى الأفق بارقة أمل، فقد عادت الفضيلتان تتألقان ثانية، بيد أن تألقهما لم يستمر طويلا. لأن الموجة التالية من الغزاة أجهزت عليها تماما.

لقد كانت للهزيمة انتصاراتها فى ميدان التدوين التاريخى. وكشف مؤرخو الغزوات والحروب الصليبية فى وضوح عن أن الهزيمة معلم أفضل من النجاح. فقد وجد الكتاب الذين اضطروا الى الكتابة عن الهزيمة أو الجمود، أو فشل الكنيسة فى التصدى للهراطقة – نقول إن هؤلاء الكتاب وجدوا أنفسهم مدفوعين بموضوع بحثهم إلى التفكير فى السبب. وتخلى التعصب عن مكانه للتقييم الهادئ. ولم يعد التدهور الأخلاقى والعقاب الالهى كافيين لتفسير أسباب الفشل والاخفاق. فكثير من مؤرخينا غاصوا إلى اعماق أبعد من ذلك. فآدم البريمينى،وهيلمولد، وجيرالد الويلزى، ووليم الصورى، ووليم البيلورنسى جميعا يبحثون عن الأسباب البشرية والعوامل الانسانية وراء ما يسجلون أحداثه من كوارث ونكسات.

وكما يتميز هذا الفريق من المؤرخين باهتمامهم بالسببية، فانهم يتميزون أيضا بحرارة العاطفة. وقد تطلب الأمر أن تحدث الهزيمة القاسية لكى تخرج هذه المرارة التى نحسها فى الجزء الثانى من «أنشودة الحرب الصليبية الألبيجنسية». إذ يتحدث الينا المهزوم فى مؤلفه التاريخى على نحو ما فعل بندكت السوراكتى عندما غزا السكسون روما، ومثلما تفعل المدونة الأنجلو – سكسونية وهى تتحدث عن الغزوات الدانمركية والغزو النورمانى لانجلترا. إلا أن أحدا لا يمكن أن ينافس شاعر «أنشودة الحرب الصليبية» فى فن إثارة الشفقة.

الفصل العاشر

القرن الثالث عشر: نهاية المطاف

رغم أن القرن الثالث عشر لم يكن فترة خبرة وتجربة فى مجال التدوين التاريخى، فإن الموضوعات التقليدية تطورت وعادت الحياة تدب فى أوصال بعضها إبان هذا القرن. وتقف المدونة التاريخية الديرية مثالا فريدا فى نوعه. إذ أنها ازدهرت وبلغت أوجها فى انجلترا القرن الثالث عشر بدرجة تركت تأثيرها على الرؤية الانجليزية للتدوين التاريخى الوسيط بشكل عام. والطالب الانجليزى الذى يدرس التاريخ الوسيط ينشأ على دراسة **جوسلين البراكلوندى** Jocelin of Brakelonde، **وماتيو باريس** Mathew Paris إذ أن أحدهما يقدم التاريخ المحلى بينما يقدم الآخر تاريخا «عالميا».

وكتاب جوسلين المسمى «أعمال سمسون الراهب» - مقدم دير بيورى سان ايدموندز فى سوفولك - معروف جيدا بحيث لا نجد ضرورة لوصفه هنا. وليس هناك كاتب واحد، أيا كان عصره، يستطيع أن يتفوق على جوسلين فى تصويره للشخصيات؛ إذ أننا نتعرف على سمسون مقدم الدير بشكل أفضل مما تعرفنا به على أى مقدم دير انجليزى آخر فى القرن الثالث عشر. فنحن نجرب ردود أفعال الرهبان فى دير بيورى إزاء حكمه المسيطر. كما نعايشهم ونشاركهم آمالهم ومخاوفهم تجاه صالح جماعتهم. ويقدم الكتاب مجالا كاملا للدارسين الذين يريدون فهم أعمال كل من الحكومة المحلية والحكومة المركزية فى مطلع القرن الثالث عشر، لأن جوسلين يقدم التفاصيل القيمة عن العلاقات بين الملك والدير من ناحية، وبين الدير والمقيمين به من ناحية أخرى.

وثمة كاتب مجهول من بيورى فعل ما يكاد يتطابق مع ما فعله جوسلين، فى كتابه المسمى «انتخاب هوف». وهو عبارة عن تقرير عن انتخاب كان محل نزاع لاختيار مقدم دير بيورى قرب نهاية حكم الملك حنا (١١٩٩ - ١٢١٦). ويقدم كل من الكاتبين نفس الجماعة المشاغبة المعتدة بنفسها، كما يصف كل منهما ما كان ينتاب الرهبان من عصبية حين كانت تهب عليهم رياح الغضب الملكى الباردة. ولم يقم مؤلف كتاب «انتخاب هوف» بتصوير الشخصيات على نحو ما فعل جوسلين، بل إنه يرسم شخصياته بطريقة أقل دقة ولكنها مقنعة. ويثير الكاتبان شغفا بما يرويانه عن تكوين الأحزاب بين الاخوان الرهبان، فقد أتاح الانتخاب محل النزاع الفرصة للرهبان الأصغر سنا والأكثر جرأة للحفاظ على حريات الدير والمطالبة بانتخابات حرة.

اما الرهبان الأكبر سنا، والأكثر تهيبا وترددا وخوفا، فقد عارضوهم خوفا من الملك. وكان رئيس الرهبان - وهو شخصية مألوفة في مثل هذه الجماعة المترابطة في كل العصور - ينتقل من فريق إلى فريق وكلما تحدث معه احد الطرفين انحاز إلى جانبه، ويتنهد قارئ الكتاب تعبيرا عن راحته حين يخرج الدير من محنته سليما.

وكانت هناك اديرة أخرى لها مؤرخوها. ولكننا نذكر منهم واحدا فقط هو الأستاذ توماس Master Thomas الذى كان راهبا بدير مارلبوروف Marlborough بويلتشاير Wiltshire والذى كان راهبا بدير مارلبوروف ايفيسهام في مطلع القرن الثالث عشر ايضا. ويتكون موضوعه في أساسه من تقرير عن قضية قانونية، وهنا أيضا نجد الايجابيين والانهزاميين بين الرهبان. ورغم طول الاجراءات القضائية ورتابتها فإن توماس ينجح في شد انتباهنا: هل سيكسب الدير القضية؟ وأخيرا تنتهى الدعوى لصالح دير ايفيسهام. وسقط توماس - الذى كان قد حضر ليترافع عن الدير - مغشيا عليه عند قدمى البابا بسبب الارهاق والفرح.

وتتجلى الحرفية على حقيقتها في هذه التواريخ المحلية. وعلى القارئ الذى يريد تقدير مالها من قيمة أن يجرب يده في كتابة وتسجيل تجاربه الخاصة في أحد المواقف التى واجهته في حياته. ذلك أن بعث الحياة في هذه التجارب وإضفاء الأهمية عليها أمر اصعب مما يبدو للوهلة الأولى.

وقد كتب ماتيو باريس للتاريخ العالمى كما كتب التاريخ المحلى. وفاق إنتاجه الضخم اى إنتاج آخر في الأديرة البندكتية. وسوف اركز على مدونته الكبرى المسماة Greater Chronicle لانها اشهر مؤلفاته التاريخية. وهى مدهشة سواء في مجالها أو في حجمها. كما أن الباحثين يستخدمونها كمصدر أصلى من مصادر التاريخ الانجليزى والأوربى على حد سواء. وقد نشأ المؤلف في دير سان البان St. Alban. ويصف ماتيو رفاقه البندكتيين بأنهم «**إخوة طيبون طبعت قلوبهم على الصلاة وكرم الضيافة**». وأدى قيامهم بواجب الضيافة إلى جمعهم للأخبار. وذلك لأن دير سان البان يقع على الطريق الرئيسى شمال لندن؛ أى انه كان مركزا مثاليا لتجميع المعلومات من كل نوع. وقد أحسن ماتيو استغلال معظم الفرص التى سنحت له. إذ كان تعطشه للأخبار والقيل والقال لا يروى، وارتبط هذا بما اتصف به من عشق لجمع السجلات. فقد نسخ الوثائق التى تتعلق بالموضوعات التى سجلها. ودون عددا كبيرا من الوثائق بلغ من كثرته انه اضطر لأن يفرد له حيزا خاصا في كتابه المسمى «كتاب الاضافات» الملحق بالمدونة. أما مواهبه الأخرى فقد تمثلت في ملكة الكتابة والمهارة الفنية التى حباه الله بها. ولأن ماتيو كان فنانا أيضا، فإنه رصع كتابه برسوم توضيحية معبرة وجسورة، لقد كان ماتيو شخصية نادرة بمواهبه المتعددة. فقد كان

الكتاب الذين يضعون الرسوم التوضيحية لكتبهم بأنفسهم قلائل للغاية.

أما أبرز إنجاز أحرزه ماتيو باريس فهو وجهة النظر التى كونها لنفسه. إذ كان من الممكن لذلك الكم الهائل من المعلومات والمواد التى جمعها لمدونته أن تصبح بمثابة واد ملىء بالعظام الجافة، لو لم تمر هذه الحقائق من خلال عقليته الحيوية الخلاقة. فنحن نرى الحقائق وفقا لرؤيته هو. وكان له من رباطة الجأش ما جعله يطلق لنفسه العنان، يختار ويشوه ويبتكر ويعلق على مادته التى يكتبها. وتعرض مدونته مجموعة من الآراء والتحيزات التى تشاركها فيها مدونات تاريخية انجليزية أخرى. فقد سبق أن عبر روجر الوندوفرى Roger of Wendover الذى عاش قبله فى دير سان ألبان عن هذه الآراء والتحيزات بطريقة أقل تماسكا. إذ أن الأديرة الانجليزية الكبرى قدمت من قبل رواية غير متناسقة عن «**حزب البلاد**» فى مواجهة «**حزب البلاط**» أو «**الخارجيين**» ضد «**الداخليين**». فقد كانت الوظيفة فى البلاط ـ بما فى ذلك وظائف الحكومة ـ تجلب لصاحبها القوة والنفوذ والثروة، ولم يكن للرهبان السود (البندكتيين) مكان فى البلاط. ولم يرق منهم إلى منصب الأسقفية سوى عدد قليل فى القرن الثالث عشر مما جعل مركزهم فى البلاط البابوى ضعيفا. وأخذت الأديرة تتململ تحت وطأة الضرائب التى فرضت عليها من قبل الملكية والبابوية على حد سواء. كذلك كان البابوات يأملون فى توطيد النظام وتدعيم الرقابة على الأديرة المعفاة من هذه الضرائب بتعيين الزوار ـ الذين غالبا ما كانوا من كبار الأساقفة ـ لكى يفتشوا على طريقة أداء الدير، ويصححوا ما يحدث من انحرافات.

وكان الرهبان يعتبرون هذا استغلالا لهم وتدخلا فى شئونهم. كما أنهم وجدوا أنفسهم فى قاع النظام البيروقراطى. وليس هناك من يحب جباة الضرائب، أو الفضوليين، أو المرابين لا سيما إذا كانوا من «الأجانب»، وكان هنرى الثالث يستخدم الأجانب فى حكومته. ولذا فإن المدونات التاريخية الديرية تحمل اتجاها واضحا نحو كراهية الأجانب، وتناصر حركات المعارضة التى يقوم بها الأهالى. فضلا عن أن جماعات «الرهبان الشحاذين» الجديدة قد وضعت الرهبان عموما فى موقف حرج، كما أن ظهور الجامعات أدى إلى تدهور مكانتهم فى الحياة الثقافية. وتعكس كتابات ماتيو رد فعله إزاء الحركات الرهبانية الجديدة على وجه العموم. ويبدو موقفه المنحاز كرجل فى موقف الدفاع عن النفس واضحا للغاية، إلا أن تحيزاته تتناقض مع بعضها البعض. إذ أنه كان يشعر بالغيرة من الرهبان، وهو ما يتضح من أنه تضايق من حماسة روبرت جرستست Robert Grosseteste أسقف لنكولن وغيرته على الاصلاح. إلا أنه من ناحية أخرى، كان يتباهى بجامعة أوكسفورد باعتباره مواطنا انجليزيا. كان الأساقفة والرهبان المشتغلون بالبحث العلمى يحظون برضاه طالما بقوا بعيدا عن

دير سان ألبان. إلا أن ما يعيبه هو أنه لم يكن دقيقا أو حريصا فيما يدونه فى كتابه، كما أن انحيازه جعل بصماته واضحة على القصة التى يرويها وهى قصة تدخل الأحكام الجزافية فى لحمتها وسداها. بيد أنه يجب علينا أن نتقبل أى عبقرى على ما هو عليه.

وليس فى أوربا بأسرها ما يمكن أن ينافس مدونة Greater Chronicle التى كتبها ماتيو. ولكن رهبان دير سان دينيس كانوا يمتلكون شيئا آخر. إذ أنهم صاروا المؤرخين الرسميين للملكية الفرنسية. وآتت محاولة سوجير لربط ديره بالبيت الملكى ثمارها، إذ بدأت كتابة مدونة تاريخية ملكية منذ بداية القرن الثالث عشر. وربما قبل ذلك، ثم أضيف إليها، وقام راهب من سان دينيس يدعى بريمات Primat بترجمة المجموعة إلى اللغة الفرنسية سنة ١٢٧٤. وعرفت النسخ الفرنسية التى تزينها الرسوم التوضيحية العديدة - باسم «مدونات فرنسا الكبيرة». ولم يكن لدى انجلترا ما يمكن مقارنته بهذه المدونات. وفى القرن الثالث عشر كانت لدير وستمنستر Westminster مكانة دير سان دينيس. واتخذت المدونات التاريخية التى كتبت فيه الجانب الملكى بعكس الأديرة الأخرى التى اتخذت موقف المعارضة عادة، ومع هذا فإن ويستمنستر لم ينتج رواية تاريخية يوثق بها عن التاريخ الانجليزى.

وأدلى الرهبان الشحاذون بدلوهم فى بئر التدوين التاريخى، فقد كتبوا الحوليات والمدونات، وكان الفرنسيسكان على وجه الخصوص هم الذين بثوا روحا جديدة فى موضوع سير القديسين. وكانت ذكريات مؤسس الجماعة، وما ثار من منازعات حول تفسير قاعدتهم بمثابة القوة الدافعة التى حفزتهم إلى كتابة التاريخ. وتجلى ذلك فى كتاب «قدوم الرهبان الصغار إلى انجلترا» الذى كتبه توماس الاكلستونى Thomas of Eccleston. وقد تلقى توماس دراسته فى باريس على يد قسيس علمانى ثم انضم إلى الجماعة فى انجلترا حوالى سنة ١٢٣٠ وواصل دراسته فى مدرسة الرهبان الفرنسيسكان باوكسفورد وانتقل بعدها إلى لندن. وحوالى سنة ١٢٥٩/٥٨ فرغ من حوليته التى كانت تضم مادة أنفق فى جمعها حوالى خمس وعشرين سنة.

ومدونه توماس عبارة عن كتاب دينى، إذ أنه قسمها إلى خطب وعظية تقرأ بصوت عال على الرهبان. وكان غرضه أن يعيد البساطة المحببة والفقر - اللذين ميزا الفرنسيسكان الأوائل - رونقهما وما يبعثانه من بهجة فى نفوس المؤمنين. فقد كان الفرنسيسكان الأوائل فى رأيه هم أبناء سان فرنسيس المخلصين. ولأن «**الأمثلة تمس شغاف القلوب أكثر من الكلمات**»، فإنه قدم لنا العديد من الأمثلة التى اقحمها فى تراجم الرجال الذين لعبوا دورا هاما فى الجماعة الفرنسيسكانية بانجلترا فى بواكير أيامها. وتعرض مدونته لصورة مثالية مثيرة للشجن تصور الرواد الأوائل وما واجهوه

من صعاب فى مدارس أوكسفورد وغيرها. وثمة توتر داخلى يبث الروح والبهجة فى قصته، فهو يمتدح فقرهم، ولكنه يحب أن يسجل الهبات التى أغدقت على الرهبان المتسولين، والكتب التى أضيفت إلى مكتباتهم، أو بناء أديرتهم وانتقالهم إلى أديرة أخرى أكبر وفى واقع أفضل من الناحية الصحية. والواقع أن تاريخ أية جماعة دينية لابد وأن يتضمن أيضا تاريخ الأوقاف التى أوقفت عليها.

وكان هناك قطب مقابل لماتيو باريس فى إيطاليا، وهو راهب فرنسيسكانى اسمه فراساليمبينى Fra Salimbene الذى جمع مدونة ضخمة تغطى الفترة من حوالى سنة ١١٦٨ إلى سنة ١٣٠٤. وكان يتميز بقدر من حب الاستطلاع يوازى ما تميز به ماتيو، ذلك أن ظروفه كعضو فى جماعة عالمية متحركة أتاحت له عدة وسائل لرى عطشه إلى الموضوعات الجديدة. إذ أنه استطاع أن يقوم بعدة جولات جمع فيها مادة هذه الموضوعات بنفسه. حين كان رؤساؤه يرسلونه لأداء بعض المهام أو ينقلونه إلى أديرة أخرى، وذلك بدلا من أن يقبع منتظرا أن تأتيه الأخبار. لقد كان ساليمبينى يثرثر كثيرا مع أناس من جميع الأنماط، ابتداء بالبابوات وانتهاء بالشحاذين. وقد اختلفت مواهبه ككاتب عن تلك المواهب التى كان ماتيو يتمتع بها. فقد كان باستطاعة ماتيو أن ينقل المشهد إليك، ولكن ساليمبينى كان يستطيع أن يصفه لك بحيث يجعلك تشعر كما لو كنت قد شاهدته بنفسك. ولم تكن له أية «رسالة» دينية أو سياسية، اللهم إلا إذا كانت رسالته أن الفرنسيسكانى المؤمن يستطيع أن يتمتع بمجرد وجوده فى هذه الحياة. كانت الملاحظة تهمه أكثر من التقوى والتدين، كما أنه كان يعارض الامبراطور فريدريك الثانى لأنه كان يضطهد الكنيسة، ولكن حقيقة رجال الكنيسة لم تكن خافية عنه.

وخرج من الرهبان الدومنيكان بعض كتاب المدونات التاريخية، إلا أنه فى القرن الثالث عشر فقط اتجه أحد علماء أوكسفورد، وهو نيكولاس تريفيت Nicholas Trevet إلى تدوين التاريخ كواحد من بين اهتماماته الأدبية العديدة.

ويقدم ريتشارد السان جومانوى - الذى كتب فى ثلاثينيات القرن الثالث عشر - تاريخ الخدمة المدنية على مستوى الحكومة الملكية. وبلدته سان جومانو مدينة صغيرة على حدود الدويلات البابوية فى وسط إيطاليا وجنوبها وصقلية. وعمل ريتشارد موثقا للعقود فى خدمة دير مونت كاسينو، كما عمل فى خدمة فريدريك الثانى الذى دان له حكم المملكة كجزء من امبراطوريته، وكان اهتمامه المهنى باصلاحات فريدريك الحكومية مماثلا لذلك الاهتمام الذى أولاه رالف الديسى وروجر الهاوديني لاصلاحات ملوك انجو الحكومية، كما كانت له نفس رؤيتهما تقريبا. ويتضح اعجاب ريتشارد بفريدريك وبغضه لخصمه البابا جويجورى التاسع من خلال صفحات مدونته التى

تتسم بالدقة الجافة الصارمة. وكانت البيروقراطية المركزية من أجل اقرار القانون والنظام تثلج صدره، بيد أن مشاعره تجاه الامبرطور تغيرت حين ضحى الأخير برعاياه الصقالبة فى سبيل سياسته الامبرطورية، واستنزفت مواردهم لتمويل حملاته التى كان يجردها. وكما كان رالف الديسى يفضل هنرى الثانى على ابنه الأكثر تألقا، كان ريتشارد يفضل فريدريك الحكيم كملك لصقلية على فريدريك نفسه كإمبراطور تحركه الاطماع الامبراطورية.

ولم يواصل أى كاتب ملكى فى انجلترا كتابة قصة الحكومة بعد النقطة التى توقف عندها روجر الهاوديني فقد كانت البيروقراطية الانجوية قد مرت بعصرها البطولى. وهو ما يردده ناقدوها أساسا. إذ كان كتاب المدونات راضين عن اصلاحات ادوارد الأول، ولكن مستشاريه تركوا الآخرين يستفيدون من هذه الاصلاحات كمادة تاريخية. واصطدمت حقيقة الحكومة بالتدوين التاريخى على شتى المستويات، فقد سجل كتاب مدونات المدن ما طرأ من تغيرات على الشئون المحلية ومعاملات هذه المدن مع بعضها البعض، كما كان كتاب التراجم البابوية يتناولون الادارة والمالية البابوية فى كتاباتهم، وهكذا دخل الصيرفى الذى يتعامل معه التاجر التاريخ كواحد من صانعيه.

كانت مدارس باريس ملهمة لنمط جديد من انماط التدوين التاريخى يمكن أن نعرفه بأنه «التاريخ الوعظى Pulpit history» فقد جمع «بطرس المنشد Peter the Chanter» ـ الذى كان منشدا فى نوتردام ـ حوله مجموعة من التلاميذ والزملاء الذين كرسوا أنفسهم للوعظ، وكان من بينهم الاستاذ ستيفن لانجتون الذى كان يلقى دروسه بباريس ما بين سنة ١١٨٠ وسنة ١٢٠٦ ومات سنة ١٢٢٨ وهو يشغل منصب كبير أساقفة كانتربورى. وكان المنشد ورفاقه يعظون رجال الدين وعامة الناس بأنفسهم، كما كانوا يرددون فى دروسهم التى يلقونها بالمدارس أن الاستاذ الذى يدرس الكتاب المقدس يجب أن يقوم بالوعظ والتبشير إذا ما ترك باريس؛ وذلك لكى يبرىء الأرواح فى أى مكان آخر يذهب إليه. وكان التدريب العملى يسير جنبا إلى جنب مع الدعوة إلى التبشير. وكان هذا التدريب يتم خلال المحاضرات التى تلقى عن الكتاب المقدس. وغالبا ما كانت محاضرات المنشد ورفاقه تقرأ مثل الخطب والمواعظ. فالاستاذ ينتقد المجتمع ساخرا، ذلك انه يمسك بمرآة يمكن أن تبين لمختلف درجات النظام الكنسى، وللكرادلة والامراء ورعاياهم ـ سواء كانوا كنسيين أم علمانيين ـ كيف ينبغى أن يتصرفوا وما هى درجة خروجهم عما ينبغى. وسيكون اداء المحاضر أو المبشر افضل إذا ما حرص على توفير عنصر التسلية، ومن ثم فإنه كان يمزج بين الحزن والفرح عن طريق ما يحكيه من قصص وما يلقيه من نكات أو تلميحات فكاهية.

كانت عقلية المبشر هى التى تتحكم فى عملية كتابة التاريخ. وكان لابد للعالم الذى تدرب فى بيئة المنشد أن يؤكد على قيمة التاريخ كمصدر للعظات والعبر، لا فى مقدمة كتابه فحسب ـ كما جرت العادة آنذاك ـ ولكن فى اختياره وعرضه للأحداث الواردة فى سياق روايته.

وكان جيمس الفيترى James of Vitry تلميذا وفيا لبطرس المنشد، الذى وصفه بأنه «زهرة بين الاشواك». وربما كان جيمس من مدينة ريمس أصلا. وبعد انتهاء دراسته فى باريس صار راهبا بدير سان نيكولاس دوينى St. Nicolas d'Oignies. ولأنه كان واعظا فإنه ساعد على شن الحملة الصليبية الالبيجنسية سنة ١٢١٣، ثم الحملة الصليبية الخامسة. وأمضى سنوات شبابه ورجولتـه فى الشرق، حيث صـار أسقفا لعكا سنة ١٢١٦، وانضم إلى الحملة المصرية سنة ١٢١٨ – ١٢٢٢. وكانت أهداف قادة الحملة الصليبية الخامسة هى أهداف قادة الحملة الرابعة، أى أنهم كانوا يستهدفون القواعد البحرية الاسلامية فى مصر. وتم تدمير دمياط بعد حصار طويل، بيد أن الصليبيين لم يتمكنوا من الاحتفاظ بها. وهكذا فشلت حملة صليبية أخرى. وعاد جيمس من فلسطين سنة ١٢٢٥، ثم استقال من منصبه الاسقفى. ورقاه البابا إلى رتبة الكاردينال سنة ١٢٢٩، وكانت وفاته سنة ١٢٤٠.

وكان لحياته الحافلة بالأحداث أثرها على استعـداده للكتابـة فى مجال التـاريخ المعاصر، إذ أنه كتب مغطيا أحداث الشرق والغرب على حد سواء. وكان أسقف عكا يمتلك وقت الفراغ الكافى للكتابة بعد ضياع دمياط من الصليبيين. وهو يقول فى مقدمته إن «قصص الفشل» الذى حاق بالملوك الشرقيين وبطولاتهم هى التى دفعته لأن يكتب الرد الذى يسكت به خصومهم: والواقع أن المؤرخين اللاتين الذين تصدوا لكتابـة التاريخ المعاصر أو تاريخ الماضى القريب قلائل بالفعل. ومن ثم كان عليه أن يقضى وقت فراغه فى كتابة تاريخ شرقى وغربى. وكانت خطته ـ كما حددها فى المقدمة ـ أن يضم الكتاب الأول تاريخ بيت المقدس ووصفا للأراضى المقدسة، بينما يتناول الكتاب الثانى التاريخ الغربى، مع اهتمام خاص بجماعات الرهبان والاكليروس العلمانى، ثم يختتم الكتاب بفصل عن الحملات الصليبية يشرح قيمتها الدينية وجدواها، أمـا الكتاب الثالث فسيعود إلى الشرق ليحكى قصة الأحداث التى تلت مجمع اللاتيران الذى عقد سنة ١٢١٥، أى الدعوة إلى الحملة الصليبية الخامسة والتخطيط لها. وعلى أية حال، فقد ضاع الكتاب الثالث ولم يصلنا، وربما لا يكون قد كتب سـوى مقدمتـه فقط. وتختلف نهاية الكتاب الثانى كما وصلنا عن النهاية كما أوضحتها المقدمة. وربمـا يكون المؤلف قد غير رأيه، وبالتالى غير فى الكتاب.

كان جيمس الفيترى واعظا يكتب للوعاظ. فقد أضاف إلى كتابـه وصف الأرض

المقدسة «لكي يقدم مادة أوفر للوعظ». ومن المفترض أنه كان يتوقع أن تستخدم هذه المادة فى الخطب الصليبية لكي تلهب مشاعر الوفاء للأرض المقدسة إذ انه يختتم مقدمته بقوله إن ما كتبه سوف يقدم المثل والقدوة لجنود المسيح، ويلقنهم الأخلاق الحميدة، ويدحض حجج الكفار، ويدين الاشرار ويلعنهم، ويمتدح الاخيار ويدفعهم إلى الاقتداء بهذا المثل الذى يقدمه. وسيكون من نافلة القول أن نعرب عن أسفنا لأن الواعظ زج بنفسه فى طريق المؤرخ. وهو قد فعل ذلك حقا، بيد أنه لو لم يستغل جيمس ما ألهمه به واجبه كواعظ، لما كتب التاريخ على الاطلاق. وربما كان يحصر نفسه فى إطار قصة حياة أحد القديسين، والخطب والمواعظ الدينية التى تشكل كل إنتاجه المعروف لنا بخلاف التاريخ.

وكتابه «التاريخ الشرقى» يبدأ بتاريخ مختصر للأرض المقدسة منذ عصر العهد القديم حتى الفتح الاسلامى. ويتناول جيمس فى إسهاب الأمراض التى ابتلى بها بيت المقدس. وتؤدى به قصة الفتح الاسلامى إلى تناول سيرة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وتعاليمه، والقرآن، والفرق الاسلامية المختلفة التى كان المؤلف يعرفها. ويتبع ذلك تاريخ مختصر آخر عن الحملات الصليبية والمملكة اللاتينية وجماعات الرهبان التى استقرت بها. ثم يضيف إلى هذا وصفا جغرافيا، ويخلص من هذا إلى الحديث عن الحملة الصليبية الثالثة وما أعقبها من أحداث حتى سنة ١٢١٠.

ولسنا نعرف ماهية الكتب التى قرأها لكى يؤلف القسم الخاص بالاسلام. أو كيف تسنى له جمع معلوماته وإلى أى حد استقاها من مصادرها الأصلية ابان وجوده فى عكا. فهو يدين الرسول (عليه الصلاة والسلام) فى خطبة وعظية منبرية وضعها بقصد أن يستخدمها الوعاظ الذين سوف يستخدمون كتابه لتنبيه المسيحيين ضد المسلمين[1]. ولكنه جمع بعض المعلومات الصحيحة عن المذاهب الاسلامية، ذلك أن عقلية الباحث فى هذا العالم الباريسى تغلبت على الواعظ بداخله. وقد استخدم جيمس كتاب وليم الصورى كواحد من مصادره فى الحديث عن جغرافية وتاريخ الفترة التى يغطيها كتاب وليم. وكان على جيمس أن ينتقل إلى مصادر أخرى عن الحملة الصليبية الثالثة التى حدثت بعد موت وليم الصورى. وتتضح ضآلته كمؤرخ إلى جانب وليم الصورى من خلال ما كتبه عن هذه الحملة. إذ أنه لم يتعمق فى البحث فى مشكلة السببية. وكل ما فى الأمر أنه رأى فى أسباب الكوارث التى حلت بالمسيحيين فرصة عظيمة لكى يوجه إليهم اللوم جزاء ما ارتكبوه من آثام. وكان يجد متعة فى توبيخ

---

(١) استخدمت المؤلفة عبارة «المؤمنين ضد الكفار» وقد رأيت تغييرها على هذا النحو مراعاة للمشاعر العامة. (المترجم)

المستعمرين اللاتين المتخاذلين على تعودهم على الاستحمام. وهو يعزو فشل الحملة الثالثة فى استعادة بيت المقدس إلى سبب واحد هو النزاع بين الملك الانجليزى ريتشارد، والملك الفرنسى فيليب فيقول:

« إنهم يقولون إن صلاح الدين كان سيسلم إلينا جميع اراضينا لو ان الملوك تظاهروا، فقط، بالتآزر لغزو املاكه ».

وهنا يطرح جيمس هذا الافتراض المشكوك فى صحته دون أن يحاول نقده.

أما « التاريخ الغربى »، فهو خليط من عدة موضوعات، يربط بينها غرض المؤلف كمدرس وواعظ. وتعتمد هذه الوحدة الواهية على ارتباطها بالكنيسة. وجاء نواحه على محنة الكنيسة الغربية، موازيا مع نواحه على أختها الشرقية الذى استهل به كتاب « التاريخ الشرقى »، ففى رأيه أن الشيطان أخذ يواصل تسميم الرأس والأعضاء على حد سواء. فالمسلمون بأسبانيا، والهراطقة فى لمبارديا وبروفانس، والمنشقون فى الدولة البيزنطية، والمسيحيون المنافقون فى كل مكان - هم الداء الذى ابتلى به الغرب منذ ضاعت الأرض المقدسة. ثم تعقب ذلك إدانة منبرية للخطايا والآثام التى ارتكبها الرجال والنساء من كل الطبقات مدعمة بالامثلة Exampla. ويشعر المرء كما لو كان يقرا مجموعة محاضرات باريسية من النوع الذى تعلمه جيمس فى مدرسة بطرس المنشد، أو مجموعة من المواعظ والخطب. فهو يرسم صورة صارخة لمدارس باريس: فالعلماء يعيشون فى مجتمع إباحى فوضوى، ففى بناية واحدة تجد قاعة للدراسة فى أعلى السلم، وماخورا للدعارة فى الطابق الأسفل. ويبرق النور بين جحافل الظلام حين يتحدث جيمس عن احياء الوعظ الشعبى والثقافى الذى تبناه بطرس المنشد، رغم أن مدعى النبوة وبائعى آثار القديسين المزيفة قد أساءوا استغلال هذا الاحياء.

والموضوع الرئيسى فى « التاريخ الغربى » يأتى عقب ذلك، إذ يكتب جيمس عن الاحياء الدينى الذى ميز الفترة الممتدة ما بين القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثالث عشر. وهو يقسم جماعات الرهبان إلى رهبان ونساك متتبعا تاريخ كل جماعة منذ أوائل العصر المسيحى، ثم يقوم بعملية مسح للحركات الدينية الاصلاحية التى ظهرت آنذاك. ونجد أمامنا قائمة طويلة من الجماعات والمؤسسات - مثل المستشفيات ومصحات المجذومين - كتبها رجل قوى الملاحظة ثاقب النظر، وكان جيمس عضوا فى جماعة الرهبان النظاميين. وضمن قائمته جماعة الرهبان الحقراء Humiliati وهى حركة كان أعضاؤها يهدفون إلى أن يعيشوا حياة علمانية مثل تلك التى عاشها الحواريون. وأخيرا يقدم لنا جماعات الرهبان الشحاذين الجديدة. وقد رأى جيمس سان فرنسيس بنفسه خارج دمياط حيث كان هذا القديس ذاهبا فى سفارة المسلمين.

ويقدم « التاريخ الغربى » تاريخا دينيا للفترة التى يغطيها فى صورة أكمل مما قدمه أى مؤلف معاصر آخر.

وواجه جيمس المشكلة نفسها التى واجهت أوتو الفريزى حين وصف حركة الاحياء الدينى فى عصره فى كتاب «تاريخ المدينتين» وتمثلت هذه المشكلة فى السؤال القائل: كيف سيبدو شكل حركة الاحياء فى عشية العصر الأخير من عمر العالم؟ وقد لقى هذا السؤال من جيمس اهتماما اقل مما لقيه من أوتو، لأن جيمس لم يهتم كثيرا بمسألة التقسيم الزمنى الى عصور أو فترات. فقد كان متقبلا لفكرة أنه يعيش فى نهاية العصر الأخير من العالم. واقنعته علامات ذلك الزمان بأن المسيح الدجال على وشك القدوم إلى هذا العالم. وفسر عودة الرهبان المتسولين إلى تعاليم الانجيل على أنها علامة على النعمة الالهية، أى أنه قد أرسل الرهبان المتسولين لكى يدافعوا عن المؤمنين ضد المسيح الدجال.

وربما يكون أسقف عكا قد شعر أنه قال مافيه الكفاية عن الجماعات الرهبانية وأنه ينبغى أن يعطى القسوس العلمانيين حقهم. والجزء الأخير من « التاريخ الغربى » يشبه تلك المقالات التى تحتوى على توجيهات للقساوسة والتى كانت أعدادها فى ازدياد مطرد ابان القرن الثالث عشر.والموضوع يقدم التعاليم الأساسية حول بناء الكنيسة ومؤسساتها وأسرارها المقدسة. فقد كان المؤلفون يهدفون إلى مساعدة القسيس على إدارة شئون رعيته. وتحتوى المحاضرات التى كان رفاق بطرس المنشد يلقونها حول الكتاب المقدس على مادة مماثلة لتلك التى كانت تضمها الكتيبات التى يستخدمها القساوسة، ولم تكن مرتبة وفقا لنظام بعينه لأن المحاضر كان يعتقد أنه من الأنسب أن يتناول فى محاضرته ماقد يثيره النص من موضوعات. واستقى جيمس مادة كتابة « التاريخ الغربى » فى أجزائه الأخيرة عن المعلومات التى تلقاها أثناء دراسته بباريس (مثل النقد الاجتماعى الذى كتبه فى أحد أجزاء الكتاب). وربما يكون قد أضاف إليها فقرات من الخطب التى ألفها.

وعيوب جيمس كمؤرخ واضحة تماما. إذ أنه لم يكن صاحب نظرة تحليلية. فقد كان يعنيه ما يحدث ويوجد فى لحظته أكثر مما يهمه سبب أو كيفية حدوثه. بيد أن عنايته بجمع المعلومات لتكون بمتناول الوعاظ أمر له قيمته. وكتابه « التاريخ الشرقى » يعطى الباحث المحدث فكرة طيبة عما كان الرجل المتعلم ـ الذى كان يستقى معلوماته من مصادرها ـ يعرفه وعن ماهية فكرته عن الاسلام. أما كتابه «التاريخ الغربى» فيوضح لنا كيف أن الكاتب نفسه كان يرقب حركات الاصلاح الدينى عن كثب، كما يكشف لنا عن ردود فعله ازاءها.

ومن بولندا يأتى نموذج من أكثر نماذج «التاريخ الوعظى» زخرفة وخيالية.

ويختلف الأستاذ فنسنت الكراكاوى Master Vincent of Cracow. عن جيمس الفيترى من عدة وجوه، إلا أن كليهما كانا يهدفا. إلى جعل التاريخ مادة للعظات والعبر. وترك فنسنت وطنه سعيا وراء الدراسة فى الخارج. والمرجح أنه درس بمدارس باريس. وعاد إلى بولندا قبل سنة ١١٨٩. وإذا كان قد قرأ اللاهوت فى باريس فربما يكون قد تأثر ببطرس المنشد وستيفن لانجتون. ورغم أن هذا مجرد تخمين، إلا أن مثل هذه الدراسة كانت ستخدم غرض فنسنت الوعظى، كما كانت ستقوى من عزمه على اللعب على أوتار مشاعر سامعيه. والواقع أن أساليب المحاضرة الباريسية واضحة تماما فى مدونته.

ثم صار العالم العائد أسقفا لكراكاو سنة ١٢٠٧ وحضر مجمع اللاتيران سنة ١٢١٥ بوصفه أسقفا. وبعد ذلك بسنوات ثلاث استقال من منصبه الاسقفى لينخرط فى سلك الرهبنة السسترشية فى أحد أديرة بولندا حيث مات سنة ١٢٢٣. وفى السنوات الأخيرة من حياته كتب مدونته عن بولندا. ورغم أنه ألفها داخل أروقة الدير، فإن تجربته كعالم وأسقف تنأى به بعيدا عن المستوى العادى للمؤرخ الديرى.

وقد استهل فنسنت مدونته بقصة خرافية عن أصول البولنديين، ثم يصل ذلك بالتاريخ البولندى حتى سنة ١٢٠٢. وحال موته أن يمضى بمدونته إلى أبعد من هذا التاريخ. ويبدأ الجزء الأول من المدونة بحديث على العشاء بين اثنين من الرجال المسنين الحكماء، يناقشان تاريخ شعبهما. واختار فنسنت شخصياته من بين الشخصيات التاريخية. واحد هاتين الشخصيتين هو أسقف كراكاو السابق، أما الثانى فهو أحد كبار أساقفة جينزنو Gniezno: إلا أن الطبيعة القصصية للحوار بين الاثنين تبدو غاية فى الوضوح (إذ أن الحوار ينتهى سنة ١١٧٣، بعد مرور عدة سنوات على موت الاثنين). وكان لكل منهما دوره؛ فقد كان على الأسقف - بحسب مكانته الادنى - أن يروى القصة، ولا يعلق إلا قليلا. أما كبير الاساقفة، ورئيسه الكنسى، فكان يستمع إلى القصة ثم يعلق على مغزاها الاخلاقى، وذلك باستحضار امثلة مشابهة من تاريخ البلاد الاخرى، ومن الكتاب المقدس. ويوضح المعلق دروسه الاخلاقية بأن يورد المقتبسات من شتى انماط الكتب، إذ أنه يضع الأمثال، والحكم، والقصص الخرافية، والنوادر، وفقرات من الترانيم والأناشيد الدينية. وثمة فقرة فى القصة التى يرويها الأسقف تجعل كبير الأساقفة ينفجر فى ضحكات هادرة.

وحين يتوقف الحوار يختفى الرجلان، ويتولى أحد الخدم الخصوصيين رواية القصة. وعندها تتخذ التعليقات شكلا مسرحيا : إذ تتجسد الحالات العقلية والفضائل كالفرح، والأسف، والحرية، والفطنة، والاعتدال، والتسامح، فى شخوص تناقش معانى مايتطرق إلى سمعها. ففى هذه الافتتاحية اجتمع عدد من الاقتباسات المتنوعة،

والاستعارات غير المنسقة، أكبر مما اجتمع فى أية افتتاحية أخرى لأى مؤلف تاريخى فى العصور الوسطى على حد معرفتى.

وليست للمدونة أية قيمة حقيقية فيما يتعلق بأصول بولندا وتاريخها الباكر. ذلك أن فنسنت قد استعاض عن الأدلة برواية الأساطير التى نسجت حول تاريخ بولندا الباكر، وربما يكون قد اخترعها. ولكنه يصير مصدرا تاريخيا فائق الأهمية للأحداث التى وقعت بعد سنة ١١١٠، إذ أننا ننتقل بعد ذلك من رحاب الأسطورة إلى ميدان التاريخ. رغم أن قلة المصادر المعاصرة الأخرى تجعل التأكد من دقتها أمرا صعب المنال.

لقد كان لكاتب المدونة هدف واضح، إذ كان مدرسا وواعظا مثل جيمس الفيترى، إلا ان جيمس كان يخاطب العالم المسيحى اللاتينى عموما، بينما كان فنسنت يخاطب البولنديين. ومن هذه الناحية فإنه اكثر شبها بوليم الصورى منه بجيمس. إذ كان فنسنت وطنيا محبا لوطنه مثل وليم. وقد الهمه حبه لوطنه أن يكتب تاريخه. وفى كلتى الحالين، كانت البلاد مهددة بالتمزق: فقد كانت المملكة اللاتينية فى فلسطين هدفا سهلا لهجمات المسلمين حين كان وليم الصورى يكتب الجزء الأخير من كتابه. أما بولندا، فإن تاريخها قد مر بأزمات دورية. فقد كان توحيد البلاد تحت حاكم واحد يؤدى إلى التمرد والعصيان؛ لأن النبلاء الحريصين على استقلالهم كانوا يسارعون إلى تمزيق المملكة إلى عدة امارات. ثم تأتى الحروب الأهلية والهزيمة أمام القوى الأجنبية لكى تمهد السبيل بعد التمزق الداخلى لقيام أحد الأمراء الأقوياء الذى يرتقى عرش البلاد التى تتوحد تحت حكمه الملكى مرة ثانية. وكان فنسنت يأمل فى دوام هذه الوحدة الهشة. كما كان يناشد قراءه حبهم لوطنهم بقوله «**إن مايفعله المرء فى سبيل وطنه يعد حبا وليس جنونا**». وهو يوصى بالتآزر والتكافل الذى يعتبره أما للأخوة والزمالة. ويقول إن التاريخ يحكى ان بولندا كانت قوية وسعيدة فى تلك الأيام الخوالى حين كانت بلادنا متحدة، كما كانت الأراضى البولندية تمتد إلى حدود أبعد من حدودها الحالية. كما يدعو امراء عصره إلى النظر فى مدونته كما ينظرون فى المرآة لكى يروا صورة اسلافهم الأماجد، ويسعون إلى تقليدهم. وهو كواحد من رجال الكنيسة، كان يشعر انه يجب أن يضيف أن الحكام سوف يحرزون افضل درجات النجاح إذا ما احترموا الحريات الكنسية.

وقد أحرزت مدونة فنسنت نجاحا واسع المدى. إذ أنها ترجمت إلى البولندية وصارت كتابا مدرسيا متداولا فى المدارس البولندية. كما أنها اجتذبت الكثير من الملاحظات والتعليقات الهامشية على طريقة الكتب المدرسية. وكانت طريقة عرض فنسنت فى مدونته مناسبة للتدريس فى المدارس وبفضل ماحوته المدونة من اشارات

كلاسيكية، اتخذت شكل الموسوعة التى يحتاجها المدرسون فى تدريس النصوص المقررة. إذ كان بوسع المدرس أن يحيل تلاميذه إلى التاريخ القديم وإلى الأساطير والشعراء الكلاسيكيين أثناء شرحه لأحد النصوص. أما القصة نفسها فتفتقر إلى عنصر الدراما. ولم يستطع فنسنت أن يفعل الكثير من خلال الحوليات المختصرة التى كانت تمثل كل المصادر المتاحة له. إلا أن أسلوب العرض المزخرف ساعده على الخروج من المأزق. ويدين مؤرخو بولندا بالكثير للتاريخ الوعظى الذى تعلمه فنسنت فى المدارس الغربية. ذلك أن البولنديين أخذوا الأدب التعليمى الوعظى عن الغرب، وعدله فنسنت بحيث يوائم حاجات شعبه.

ولنتجه الآن - بعيدا عن المحافل التى يتحدث الواعظ اليها - إلى طراز من المستمعين أقل تخصصا، فقد أدى ازدياد عدد المتعلمين من عامة الناس إلى ازدياد الاهتمام بالتاريخ. وقدم الشعراء العاميون المحليون مايرضى أذواق الناس حين ألفوا التواريخ والروايات التاريخية. وكتاب «تاريخ وليم المارشال» نموذج راق ومعروف جيدا للقصيدة العامية الوطنية. ويدور هذا الكتاب حول أعمال بارون انجليزى كبير، وهذه القصيدة تخدم المؤرخين المحدثين كمصدر من المصادر الأولية. كانت التواريخ المكتوبة باللاتينية تترجم إلى اللغات القومية. وكان هذا سببا فى ظهور موضوع جديد هو «التاريخ فى صور».

فقد كانت المؤلفات التاريخية المحلاة بالصور التوضيحية نادرة قبل القرن الثالث عشر. حقيقة أن نسخ الكتاب المقدس كانت تزين بالصور، بيد أن منتجى المؤلفات التاريخية اللاتينية عادة ماكانت يكتفون بصورة للمؤلف فى صدر الكتاب بمواجهة العنوان الداخلى؛ إذا ماكانت لديهم الرغبة فى تزيين الكتاب بالصور. ويمثل ماتيو باريس استثناء فى أنه زود كتابه بالصور. وليست هناك صور توضيحية لكتاب وليم الصورى سوى فى ترجمته الفرنسية. كذلك كانت التواريخ اللاتينية تختلف من حيث طريقة العرض عن تلك التى كتبت بإحدى اللغات القومية. ويرجع أحد أسباب التناقض بينهما إلى أن العلماء كانوا يطلقون على الصور اسم «كتاب العلمانية» فقد كانت معظم الكتب تكتب باللاتينية، التى لم يكن الرجل العلمانى يفهمها مالم يكن على قدر طيب من التعليم. ولذا فإنه كان يحتاج إلى مساعدات مرئية تعينه على الفهم. وترتب على ذلك أن القارىء للتاريخ أو المستمع إليه فى اللغة القومية كان يرغب فى رؤية هذا التاريخ مصورا. وكانت الحاجة إلى الصور التوضيحية سمة من سمات العقلية العلمانية آنذاك. والتواريخ المكتوبة باللغات القومية التى وصلتنا هى فى الغالب نسخ قدمها مؤلفوها على سبيل الهدية إلى أصدقائهم. وكان الرجل العلمانى الثرى يطلب كتابة نسخة لحسابه ويتحمل النفقات الباهظة لاعداد الرسوم والصور التوضيحية.

وكانت مثل هذه النسخ الفاخرة تلقى العناية والاهتمام باعتبارها كنوزا، ومن ثم كانت فرصتها فى البقاء اكبر من فرص النسخ الأرخص ثمنا.

وأدى شيوع استخدام الصور إلى عكس وظيفة كل من النص والرسوم التوضيحية. فقد كان دير سانت مارى فى يورك يمتلك لفافة كبيرة من الرق دونت أنساب ملوك انجلترا حتى ادوارد الأول. وتبدأ هذه اللفافة بقصة أسطورية عن بروتس الطروادى وغزوه لبريطانيا. وهذا الجزء من قائمة الأنساب مزين برسوم توضيحية جميلةرسمها أحد الفنانين حوالى سنة ١٣٠٠. وتقلص النص إلى عدة سطور قليلة أسفل الصور لشرح معناها. وفى الجزء التالى من اللفافة نجد صفوفا من صور ملوك انجلترا واسمائهم.

وأدت الصور إلى ظهور مؤلفات تاريخية أكثر بهجة وإشراقا: ولكنها أعادت تأكيد فكرة أن الماضى والحاضر يبدوان متشابهين تماما. فالفنانون الذين زينوا برسومهم «حوليات فرنسا الكبرى» لم يفرقوا اطلاقا بين الميروفنجيين الذين عاشوا فى القرنين الخامس والسادس، وبين الكابيين الذين عاشوا فى القرن الثالث عشر، حين رسموا الملابس ومناظر البلاط ومشاهد المعارك. أما الفنان الذى زين برسومه لفافة الأنساب التى اكتشفت فى يورك، فإنه يصور قصة طروادة بأسلوب معاصر. فالملوك الأنجليز الذين رسمهم لايختلفون عن بعضهم سوى فى جلسة كل منهم على العرش. وكانوا جميعا يرتدون نفس الملابس التى يلبسها ادوارد الأول. آخر ملك وضع فى القائمة التى ضمتها اللفافة.

وقد شجع الاهتمام المتزايد بالتاريخ إلى ظهور طراز آخر من العلماء، هم كتاب الموسوعات. كانت مهمة الموسوعى أن يقدم معلومات تاريخية مختصرة عن جميع الفترات التاريخية التى يعرفها. وثمة عالم دومينيكانى يدعى **فنسنت البوفيزى** Vincent of Beauvais جمع اشمل موسوعة ضمت صنوف المعارف العالمية حوالى سنة ١٢٥٠. وكان تاريخ فنسنت البوفيزى تاريخا عالميا، بقدر ما كان العالم معروفا للغربيين فى القرن الثالث عشر. ورفض أن يحصر نفسه فى إطار التاريخ الكنسى والسياسى الذى كان يشكل مادة القراءة الأساسية فى العصور الوسطى. ويحتل تاريخ التعليم والديانة والأساطير مكانه فى هذا الكتاب. وهناك فصل بأكمله خصص للكتابة عن المؤرخين منذ أقدم العصور حتى عصر المؤلف، ويذكرنا اهتمامه بالديانة والأساطير بجيمس الفيترى وكتابيه «التاريخ الشرقى» و «التاريخ الغربى». لقد كان فنسنت واحدا من الرهبان الدومينيكان، وكانت عقليته هى عقلية الواعظ الذى يبحث عن الأمثلة. واختلف عن جيمس من حيث إنه أراد أن يسجل كل شىء كان باستطاعته الوصول إليه والكشف عنه. ذلك أن الماضى كان يستهويه مثل الحاضر تماما.

وموسوعته المسماة Specuulm historiale أثر باق يخلد العمل العلمى الجماعى. اذ أن الرهبان قد ساعدوا فنسنت على جمع مادته وترتيبها، وحاول رؤساؤه فى الجماعة ايقافه بحجة أن مشروعه العملاق يتكلف أموالا جمة، كما يستغرق وقتا طويلا، ويتطلب جهدا كبيرا. الا أن فنسنت ثابر فى هدوء على مواصلة مشروعه رغم التعليمات التى وجهت اليه بالاقتصاد. وتمثلت النتيجة فى انجاز اكبر مرجع تاريخى فى العصور الوسطى. وهو كتاب ألف بطريقة «القص واللصق» فى أعلى مستوياتها.

وتبرهن الشعبية التى نالتها هذه الموسوعة على أنها لبت حاجة المعاصرين إلى هذا النمط من الكتب. إذ كان من الممكن للقارئ المحدود الثقافة أن يخوض بين صفحات هذه الموسوعة بشىء من الصعوبة. إلا أن الكثيرين ـ إذا ما حكمنا بما اقتبسوه من صفحاتها ـ كانوا يتصفحون الموسوعة فى سرعة أو يبحثون فيها عما يهمهم فى لحظة بعينها. لقد وضع فنسنت قدرا هائلا من المعلومات التاريخية فى متناول كل من يستطيع قراءة اللاتينية البسيطة، وكل من كان بمقدوره اقتناء مكتبة جديدة. وثمة قصور يعيب التاريخ المعلب، هو انه كان باعثا على الكسل كشأنه دائما. ذلك أن الطالب كان يجد الأبحاث كلها جاهزة من أجله، ولذلك يتضاءل الحافز الذى يحثه على الرجوع للمصادر الأصلية والخوض فيها بنفسه. ومن الناحية المثالية، يجب أن تقوم الموسوعة بدور المرشد إلى المادة الأصلية، بيد أن ذلك لا يحدث غالبا. فقد برهنت التواريخ المصورة والتاريخ المعبأ على كونها تجمع بين الحسنات والسيئات، رغم أنها نشرت المعرفة التاريخية على نطاق أعم وأوسع من ذى قبل.

وهنا نلاحظ فجوة فى مجال التدوين التاريخى فى القرن الثالث عشر. إذ أننا نقتبس دون جدوى ذلك القدر الوفير من المدونات «والقصاصات التاريخية» عن ذلك الطراز القديم من التاريخ الأدبى. لأن هذا النمط من الكتابة التاريخية لم يعمر إلى ما بعد العقود الأولى من القرن الثالث عشر. وثمة أسباب تطرح نفسها لتفسير اختفائه. إذ كان الجمع بين الموهبة والفرصة يتم بالصدفة. وبفضل الاحباطات التى نالت ذوى الطموح توفرت لدينا مؤلفات تاريخية كثيرة. فلو أن وليم الصورى كان قد حقق رغبته فى أن يتولى أسقفية بيت المقدس، أو أن جيرالد الويلزى كان قد حقق طموح حياته وصار كبيرا لأساقفة كنيسة سان دافيد لكان ما خلفاه لنا من الكتابة التاريخية أقل مما وصلنا بالفعل. ولو لم يكن حنا السالزبورى قد تعرض للنفى فربما لم يكن ليكتب أبدا «مذكرات البلاط البابوى».

بيد أن الصدفة والشخصيات لا تقدم لنا تفسيرا كافيا لاختفاء التاريخ الأدبى. إذ كانت التطورات الأكاديمية هى الأخرى من عوامل تعثر التاريخ الأدبى. ذلك أن موضوع «التاريخ الأدبى» كان فرخا من افراخ البلاغة كما كانت تدرس فى مناهج

الآداب. وقد تدهورت دراسة البلاغة فى أواخر القرن الثانى عشر، وتدهورت معها وسائل التعليم الكلاسيكى الصحيح. وانصرف الطلاب عن النحو والبلاغة إلى دراسة المنطق والجدل، مارين بسرعة على النحو اللاتينى حيث يقرأون عددا أقل من النصوص فى غمار لهفتهم على تعلم المنطق والعلوم الطبيعية والفلسفية. كما كانت الترجمات الجديدة لكتابات ارسطو قد صارت فى متناول الطلاب الذين كانت تستهويهم قراءتها.

وتمثلت النتيجة فى أن مؤرخى القرن الثالث عشر لم يحفلوا بكتابة اللغة اللاتينية الراقية. ولا يعنى هذا فى حد ذاته ـ بالضرورة ـ أن نقلل من قيمة اجتهادهم وتنافسهم كمؤرخين. وعلى العكس فإنهم أفادوا من الاسلوب غير الكلاسيكى فى أنهم تحرروا من قيود الأسلوب القديم وعبروا عن افكارهم بمزيد من التلقائية. إلا أن الأسلوب والمضمون سارا فى خط واحد. إذ كان المؤرخون يتمرسون على الكتابة من خلال قراءتهم للتواريخ الكلاسيكية فى المنتخبات أو الملخصات، بدلا من أن يقرأوا المصادر الاصلية. لقد قدم المؤرخون القدامى نماذج بناء المؤلفات التاريخية، كما قدموا القواعد التى ينبغى أن يسير الأسلوب عليها. فضلا عن أنهم علموا مقلديهم أن يفكروا فى العلاقة السببية بين الأحداث التاريخية. والحقيقة أن التاريخ الأدبى كان يبعث على التأمل والتفكير أكثر من المدونة.

وينبغى لنا أن نمعن النظر فى الاتجاهات الثقافية فى القرن الثالث عشر بحثا عن سبب أعمق يفسر اختفاء التاريخ الأدبى، فلم يكن رجال المدارس يمارسون الكتابة التاريخية حتى فى أوقات فراغهم. لأن أرسطو ـ الفيلسوف الذى استولى على ألبابهم ـ لم يقدم لهم الدليل الذى يرشدهم فى هذا المجال. إن اعماله تتضمن الكثير من الاشارات والتلميحات التاريخية، ورغم أنه استخدم التاريخ لعلاج المشكلات التى اثارت اهتمامه، فإنه لم يكتب أى مؤلف تاريخى. كما استمر اللاهوتيون ـ الذين تولوا التعليم فى المدارس آنذاك ـ يفكرون فى التاريخ باعتباره تاريخ الخلاص، إذ كانت هذه هى الكيفية التى يشكل بها التاريخ الخلفية التى تقوم عليها دراستهم للاهوت. ومن ناحية أخرى، استخدم التاريخ لخدمة الأغراض العملية؛ إذ كانت للتاريخ قيمته كمادة للتسلية والترويح عن النفس؛ كما كان يقدم للوعاظ ما يريدونه من العظات والعبر؛ فضلا عن انه كان مصدرا للسوابق التى يستطيع أطراف أى نزاع أن يستشهدوا بها للحصول على الامتيازات وغيرها. وقد كرس رجال المدارس فى القرن الثالث عشر جهودهم الخلاقة لمناقشة المشكلات المتعلقة بالانسان فى وضعه الراهن، متسائلين: «ماذا يشبه الانسان فى نفسه؟ ما هى علاقته بغيره من البشر؟ وما هى علاقته بربه؟». ولم تكن اجابات هذه الأسئلة متوقفة على فعال الناس فى الماضى بقدر ما كانت تعتمد

على فعالهم فى حاضرهم، وعلى ما كان رجال المدارس يعتقدون أنه ينبغى فعله. والخلاصة أن كليو (ربة التاريخ) قد فقدت جاذبيتها.

وقد علق الفيلسوف بطرس الأبانوى Peter of Abano، على هذا منددا بربة الفن Muse فى كتابه «عرض مشكلات أرسطو» الذى نشر فى بادوا سنة ١٣١٠. وباعتباره عالما، فقد استبعد بطرس التاريخ من مجال المعرفة العلمية، وكانت حجته فى ذلك أن المؤرخ، بعكس العالم، لا يستطيع أن يمضى من السبب إلى النتيجة، أو من النتيجة إلى السبب مستخدما الاستدلال الاستقرائى أو الاستنباطى. ومن ثم بدت المؤلفات التاريخية فى ناظرى بطرس «**مجرد تجميع شاق، لا طائل وراءه، للأمثلة**». وليس بوسعنا أن نعرف ما الذى كان يدور بخلد طبيب مثله عاش فى القرن الثالث عشر، وهو يسخر من التاريخ على هذا النحو؛ ويبدو من المحتمل أنه كان يعتبر كتاب المدونات التاريخية أقل منه شأنا فى الناحية الثقافية. إلا أن وليم البيلورنسى ـ فى وصفه للحملة الصليبية الألبيجنسية ـ يضرب لنا المثل على ما كان بوسع الرجل المتعلم ـ الذى لم ينزلق فى تيار الوعظ ـ أن يحققه فى مجال الكتابة التاريخية. ولكن وليم هو المثال الوحيد على هذا.

لقد واجه التدوين التاريخى تحديا فائقا بعد رحيل أوتو الفريزى مباشرة. ذلك أن يواقيم فيورى Joachim of Fiore (ت ١٢٠٢)، الذى كان مقدما لأحد الأديرة، قدم نظاما جديدا للزمن ونموذجا جديدا للكتابة التاريخية. ولم يكن يواقيم مؤرخا، بل كان شارحا للكتاب المقدس. ومصلحا دينيا، ومبشرا. ومهما يكن من أمر، فإن فكرته كانت ذات مغزى عميق لكل من عكف على التفكير فى تقسيم الزمن إلى عصور تاريخية. إذ طور هذا الراهب الكالابرى الرؤية المسيحية التقليدية التى سبق أن صورها العهد القديم وأثرت بدورها على العهد الجديد. كان ثمة تقسيمين لتاريخ الخلاص الانسانى؛ وكان هذا هو منطلق يواقيم الذى انطلق منه ليتنبأ بعصر ثالث فى التاريخ الدينى، ويتضمن التقسيم الثانى فى طياته عصرا ثالثا. إذ كان العهد القديم يعرض تاريخ الاله الأب، والعهد الجديد يعرض عصر الاله الابن، وسيكون العصر الثالث هو عصر الروح القدس. وكان يواقيم يعتقد أن البشر يقفون على أعتاب هذا العصر الثالث؛ إذ كان يرى علامات هذا العصر تلوح فى الأفق.

وتوصل إلى أن هناك تماثلا بين العصور؛ بل إنه سمح بالتطابق بينها. فقد كان العهد القديم متطابقا مع نظام الزوجية لأن شيوخ بنى إسرائيل تزوجوا بناء على خطة الرب فى تعمير الأرض بالبشر. أما العهد الجديد. فكان مماثلا لنظام الاكليروس، وسيكون العصر الثالث هو عصر الرهبان. لقد مهد زهاد العهد القديم والقديس يوحنا المعمدان السبيل لقدوم العصر الثانى، كما أن القديس بندكت ـ مؤسس الديرية

الغربية ـ قد مهد السبيل أمام الرهبان الذين سيشكلون ملامح العصر الثالث فى عمر العالم. ذلك أن النظام الجديد يولد دائما من رحم النظام القديم. وسيكون رهبان العصر الثالث أكثر قدسية وروحانية من أسلافهم. وسوف يبدأ عصر الروح القدس بقدوم إلياس جديد، ثم يظهر اثنى عشر رجلا مقدسا يماثلون الحواريين الاثنى عشر الذين تحدث عنهم الانجيل. لقد غير يواقيم النظام التقليدى بأن جعل مجىء المسيح الدجال الأول ـ الذى سيجلب على المؤمنين الكوارث والمحن ـ قبل العصر الأخير من عمر العالم. وسوف يأتى المسيح الدجال الأول لتلحق به الهزيمة قبل بداية عصر الروح القدس. والعصر الثالث الذى سيحكم فيه الروح القدس سوف يستمر حتى مجىء المسيح الدجال الثانى وقيام القيامة. وسيتم الدين فى العصر الثالث، كما سيكون على رأس الكنيسة بابا ملائكى.

وفى أعقاب نبوءات يواقيم ظهرت حركات الرهبان المتسولين، وكان سان فرنسيس ورفاقه من الرهبان الفرنسيسكان مناسبين لصورة إلياس الجديد وقديسيه الاثنى عشر كما صورتهم هذه النبوءات. وسقط الامبراطور فريدريك الثانى فى شباك دور المسيح الدجال الأول. وبما أن نبوءات يواقيم كانت على وشك التحقق، فلابد وأن فجر العصر الثالث كان على وشك البزوغ. وقد مضى تلاميذ يواقيم بنتائج توقعاته إلى مدى أبعد مما كان هو نفسه يحلم به، فقد شاعت الأعمال التى نسبت إليه زورا وتداولتها الأيدى كما ظهر الاهتمام بها واضحا فى «كتب الأشكال» التى توضح الخطوط العريضة للتاريخ وحركته المستقبلية كما يراها يواقيم على شكل أشجار ذات فروع ومعها تعليقات لشرح ما تعنيه. وتعود بعض الأشكال إلى الأيام الأولى لليواقيمية؛ بينما طور البعض أفكاره على نحو عجيب. وانتشرت اليواقيمية كما تسرى النار فى الهشيم. وأدت أكثر أشكالها تطرفا إلى الهرطقة، ولكن إدانة البابوية لها لم تفلح فى إخماد لهيبها، إذ أن تأثيرها على التنبؤ الدينى ظل قائما حتى القرن السابع عشر.

كانت رؤية يواقيم للتغير التاريخى ـ والتى كانت متناقضة مع الرؤية التقليدية الموروثة عن سان أوغسطين وأوروسيوس ـ تتسم بالحركة والديناميكية أكثر منها بالثبات والجمود. فقد احتفظ يواقيم بفكرة أوغسطين وأوروسيوس القائلة بأن أحد العصور يؤدى إلى العصر التالى؛ إلا أنه فتح منظورا مستقبليا لعصر جديد أفضل جعله بين المجىء الأول والمجىء الثانى للمسيح الدجال. وما يخفيه قدوم المسيح الدجال الأول من متاعب يجب أن ينتهى قبل عصر الروح القدس فى هذا العالم.

وقدم النموذج الجديد الذى اقترحه يواقيم فرصة للمؤرخين لكى يراجعوا آراءهم فى الأطر والتقسيمات الزمنية. لقد تحداهم أن يبحثوا عن علامات التقدم بدلا من أن يظلوا قابعين فى أوحال الماضى. حقيقة أن يواقيم قد قصر همه على التقدم الدينى فقط،

ولكن التاريخ الدينى والتاريخ العلمانى كانا مرتبطين ببعضهما البعض. ولابد أنه كان من الممكن أن نمسك بخيوط التفاؤل الموجودة فى أعمال هوف السان فيكتورى وغيره من كتاب القرن الثانى عشر. إلا أن المؤرخين لم يستجيبوا لذلك التفاؤل. إذ أن قصة يواقيم وحوارييه ونبوءاته بدت لمؤلفى المدونات التاريخية على أنها موضوعات جديدة. فقد كتبوا عن النبوءات بدرجات متفاوتة من السذاجة وسرعة التصديق، والشك والارتياب. وعاش ساليمبينى فى مرحلة يواقيمية، ثم زالت الغشاوة عن عينيه حين لم يقم فريدريك الثانى بما يجعله جديرا بدور المسيح الدجال؛ ذلك أن موت فريدريك سنة ١٢٥٠ لم يحدث سوى تغيير طفيف فى شئون العالم. ولم يكن ساليمبينى يفكر فى تخطيط حوليته وفقا للاطار الزمنى الذى وضعه يواقيم، وتقسيمه للزمن إلى عصور ثلاثة. ولم يحاول مؤلفو المدونات التاريخية فى القرن الثالث عشر أن يجربوا التقسيم الزمنى الجديد لكى يقرروا ما إذا كان ملائما لمادتهم. وإذا كان أى منهم قد جربه وعارضه كأداة نافعة للمؤرخ، فإنه فعل ذلك فى صمت.

والتناقض بين المؤرخين من جهة، واللاهوتيين والمتنبئين من جهة أخرى، أمر يصعب شرحه. فهل كان المؤرخون خائفين من الوقوع فى شراك الهرطقة؟ لقد كان للخوف من الهرطقة تأثير طفيف على الفكر فى الجامعات. فلماذا تميز كتاب المدونات التاريخية بالتوتر العصبى على نحو خاص؟ ربما كانوا يحجمون عن التفكير فى مجرى التاريخ العالمى خارج نطاق الادراك العام، وربما كان اهتمامهم بالأفكار غاية فى الضآلة. كما يحتمل أن صمتهم كان انعكاسا لصغر حجمهم الثقافى فى مواجهة رجال المدارس. وأيا كان السبب، فإنهم تحاشوا اليواقيمية تاركين للآخرين عناء مناقشتها، أو دحضها وتفنيدها وفقا لما تقتضيه الحال.

وقد يحبذ المؤرخ الحديث هذا الموقف الذى اتخذه مؤرخو القرن الثالث عشر متجاهلين تلك الطنطنة الفارغة. ونحن نميل إلى اعتبار «**التاريخ النبوءة**» منزلقا خطرا، أو زقاقا مسدودا على أحسن الفروض. إلا أن اليواقيمية تحدت المؤرخين أن يعيدوا النظر فى الأطر والتقسيمات الزمنية التقليدية. وعلى أية حال، فإن المؤرخين قد فضلوا التزام جانب الحذر بدلا من المشاركة، حقا أن القرن الثالث عشر كان يفتقر إلى المؤرخ المفكر.

خاتمة

فى وسعنا الآن أن نتدبر السؤال القائل: لماذا كان أى شخص يكتب التاريخ فى العصور الوسطى حين لم يكن ذلك يدر عليه مكسبا ماليا أو وظيفيا لقاء ما تجشمه من عناء؟ ويبدو أن الممثل الهزلى الذى عرفه بلاط العصور الوسطى هو الأقرب شبهـا بـالمؤرخ المحترف فى العصـور الحديثـة. إذ كان هـذا الممثل الهـزلى يؤلف ويردد «الأغنيات» التى تدور حول الموضوعات، وكانت هذه هى وسيلته لكسب العيش. بيد أن «أغانيه» لا تدخل فى نطاق التدوين التاريخى الجاد. وسيكـون من المفيد ـ لكى نحصل على إجابة السؤال المطروح ـ أن نبدأ بالسؤال، لا عن سبب كتابة التاريخ، وإنما عن نشوء الحاجة إلى التاريخ.

لقد قال ايسيدور فى كتابه عن اشتقاق الكلمات إن حفظ السجلات أمر «مفيد». وهذا حق، لأن الحكام، والهيئات الجماعية مثل مجالس المدن، والمؤسسات الدينية، كانت تحتاج إلى حفظ السجلات بقصد الرجوع إليها تدعيما لدعاواها القـانونيـة. وقامت المدونات التاريخية بدور السجلات. وإلى جانب الرغبة فى تسجيل الأحداث وجد عامل السرور بالماضى والفخر به. فإن أفراد أية عائلة أو مؤسسة يهتمون بالقصة التى تحكى عن أصولهم وعن أسلافهم. ولما كان المؤرخ ينتمى إلى عائلة أو أسقفية، أو دير أو مدينة أو شعب، فإنه كان يتوقع أن يجد جمهورا من القراء أو المستمعين الذين يهمهم ما يقوله أو ما يكتبه. ولأنه كان ينتمى بشخصه إلى أى من هذه الجماعات، فإنه كان يربط نفسه بموضوعه وبجمهوره على حد سواء. فقد كان شرفا له، وواجبا عليه، أن يلبى مطالب الجماعة التى هو عضو من أعضائها. وربما كانت الجماعة كبيرة فى عددها أو صغيرة. إذ كان من الممكن أن تضم بلدا بأسره، فقد كان وليم الصورى وفنسنت الكركاوى يكتبان تعبيران عن الدوافع الوطنية لكى يعلموا مواطنيهما. وفى حالة ما إذا كانت القصة التى يرويها المؤرخ قصة حزينة، كان باستطاعة المؤرخ أن ينفس عن مشاعر الحزن التى تجيش بنفوس أبناء شعبه. فكتاب «حياة هنرى الرابع» عبارة عن ترنيمة جنائزية يرددها المؤلف المجهول حزنا على اضمحلال الامبراطورية، كما أن الجزء المجهـول المؤلف من أنشودة الحملـة الصليبية الألبيجنسيـة» ليس إلامرثية تندب خراب جنوب فرنسا.

كذلك كانت للتاريخ وظيفة ترفيهية، رغم أن كتـاب ايسيدور لم ينص عـلى هذا. إذ كان الصيد هو رياضـة الملوك. كمـا كان سمـاع القصص هو تسليتهم فى وقت

فراغهم. وقد تواجد الممثلون الهزليون فى جميع العصور. إذ أننا نسمع منذ القرن العاشر عن مؤرخى الصالونات الذين ظلوا موجودين حتى عصر وليم الصورى الذى قام بتسلية الملك أماليك، ووليم الطليطلى الذى عاش فى بلاط بلدوين. وكان بمقدور رجل الكنيسة أن يريح ضميره بالاشارة إلى قيمة التاريخ كمصدر للعظات والأمثلة، إذ كان من مهام وظيفته أن يرشد العلمانيين ويوجههم، وكان التاريخ هو وسيلته السعيدة إلى غايته الطيبة.

والواقع أن التاريخ كان يمكنه أن ينبههم إلى المحاذير الأليمة. فقد كتب وليم البيلورنسى مدونته ليوضح كيف أدت خطايا شعبه إلى الكارثة التى حلت بهم. وثمة عنصر من الفضول المتوقد يدخل فى إطار البحث عن المادة الاخبارية، كما يدخل هذا العنصر - ولكن بدرجة أقل - فى الأبحاث العلمية التى تبحث فى شئون الماضى

كان اختيار « **التاريخ** » دون « **المدونة التاريخية** » أمر يتطلب التفكير والعمل. فقد كان على المؤرخ أن يلاحظ اسلوبه، كما كان يتجنب الاطار الحولى، وترتيب الأحداث وفقا لتتابع السنين. وهو ما كان يعنى أن يخطط لطريقة العرض بمزيد من العناية. ومع ذلك فقد تجشم مؤلفون عديدون عناء كتابة التاريخ. وكان الاختيار فى حد ذاته يميز المؤرخ كمتخصص فى الكلاسيكيات. ذلك أن الرغبة فى التشبه بالقدماء كانت حافزا لبعض افضل كتاب العصور الوسطى من القرن التاسع حتى القرن الثانى عشر. كان الولوع بالادب هو الذى يميز الرجال المتحضرين عن الأراذل. وتبوأ التاريخ مكانة سامية بالمقاييس القديمة باعتباره فرعا من فروع الأدب. ومن الأفضل أن نستخدم مصطلح « **التشبه بالقدماء** » بدلا من « **تقليد القدماء** » فى استعراضنا لموقف مؤرخ العصور الوسطى. فقد كانت القصة التى يرويها هذا المؤرخ جديرة بتلك الطريقة الروائية الرشيقة التى ميزت كتابات كل من يوليوس قيصر وسالست، ذلك أنه اتجه لمعالجة موضوعه مستخدما ما استخدمه كلاهما من أساليب فنية. كما أنه صاغ مادته التاريخية باللغة التى كانا يستخدمانها.

كذلك كان عامل الدعاية من العوامل التى حكمت التدوين التاريخى فى العصور الوسطى. ويبدو هذا العامل أشد ما يكون فظاظة وخشونة فى التراجم : إذ كانت أية ترجمة ملكية عبارة عن مؤلف دعائى بكل معنى الكلمة. وربما كان كاتب الترجمة ينجز عمله بناء على طلب أو تلبية لأمر من أحد الملوك أو الأمراء، على نحو ما فعل المؤلف المجهول من سان أومير « لايما » أثناء حياتها، وربما كان يمتدح الحاكم بعد موته بناء على طلب أصدقائه أو ورثته. وبغض النظر عن المراثى التقليدية كان المؤرخ يؤكد على الجانب الذى يروقه فى حياة الحاكم، سواء كان نبيلا علمانيا أو راهبا، أو واحدا من كبار القساوسة. والتواريخ، والمدونات، والمذكرات جميعها تحمل فى طياتها دعاية من

نمط واضح أو ملموس على الأقل. وكلمة «دعاية» اليوم توحى بالغرض فى التضليل. إلا أن معناها الأصلى - خلال فترة الاصلاح الدينى المضاد - كان يعنى الترويج للعقيدة. ونحن نستخدم الكلمة بهذا المعنى حين نصف مؤرخ العصور الوسطى بأنه كان «داعية». وغالبا ما كان للكتاب غرض دينى يشغل الحيز الأكبر من اهتمامهم، وهذا ما كانوا يقولونه. وكان المؤرخون الأكثر علمانية فى تفكيرهم يهتمون من أجل عزيز عليهم، وهكذا كتب كافارو من أجل جنوا كما كتب فيلهاردوين من أجل رفاقه الصليبيين. وتتداخل ظلال المثالية والمصلحة فى كل منهما الأخرى. وإذا كان من الصعب دائما أن نفصل بينهما، فإن الفصل بينهما فى مجال التدوين التاريخى أمر غاية فى الصعوبة. إذ كان المؤرخون يكتبون عادة لصالح مؤسسة أو جماعة من الرفاق. وكان للداعية -مالم يكن مأجورا- نصيبه الشخصى فى الهيمنة على الرأى العام. وفى العصور الوسطى كانت مصلحة الداعية الشخصية تتلاشى فى غمار شعوره بالانتماء للجماعة.

وثمة عقيدة راسخة كانت تغذى هذه الدوافع جميعا. فما حدث له نصيبه من الأهمية ومن ثم يجب أن يظل ماثلا فى الأذهان. فبينما كان الواعظ يقول: «**احتقر الدنيا ومتاعها الغرور**» كان العالم - الذى غالبا ما كان هو الواعظ نفسه - يقول: «**انقذهم من الغرق فى بحر النسيان**». وقد تصرف المؤرخون بوحى من المقولة الثانية.

أما تقدير منجزات المؤرخين، فهو أمر أكثر صعوبة من شرح دوافعهم إلى الكتابة. ويحذرنا هاسكينز C.H. Haskins - وهو أحد كبار المتخصصين فى العصور الوسطى - من أنه «**ليس من شان المؤرخ ان يمنح الجوائز على العصرية**». فمن المؤكد أنه ينبغى للحكم ان يكون ملما بقواعد اللعبة. ولا يجب أن نلوم كاتب المدونة لأنه لم يكتب التاريخ. كما انه لا يجب أن نبحث فى إحدى التراجم عن الحقائق والتواريخ التى نتوقع وجودها فى المدونة. بيد أننا نستطيع أن نحاول قياس المسافة بين المستويات فى العصور الوسطى والمستويات فى العصور الحديثة. وليس ثمة مستويات مطلقة فى التدوين التاريخى، ذلك أن المستويات فى حالة تغير مستمر. وكل ما يمكننا هو أن نستخدم منها ما يلائمنا فى أيامنا هذه. ومن ناحية أخرى، لم يتغير المثال: إذ يجب على المؤرخ أن يخبرنا بالحقيقة. ولكن كيف يصل إليها؟ إن قلة وسائل البحث، وغياب الوعى، والايمان الأعمى بروايات شهود العيان، كانت من عوامل الاحباط الذى نال مؤرخ العصور الوسطى وهو يبحث عن الحقيقة. وفيما يتعلق بمسألة التحيز، فإننا نحاول اليوم أن نتحكم فى تحيزاتنا واهوائنا الشخصية من خلال إدراكها ومن خلال امانتنا الدقيقة فى استخدام الأدلة والبراهين. ومن هذه الناحية فقط أحرزنا من

المنجزات أكثر مما أحرزه أسلافنا من مؤرخي العصور الوسطى. واتهامنا لهم بالتحيز والمحاباة أشبه ما يكون بقذف الأحجار بينما بيوتنا من زجاج. فليس بمقدور أحد أن يكتب التاريخ دون أن تكون له أفكاره عما يرد فى كتابتـه، والأفكار تعنى -ضمنـا التحيز- وكل ما يمكننا أن نسأل عنه هو ما إذا كان المؤلف يحاول أن يكون موضوعيا، كما أننا نستبعد العناصر الغيبيـة كوسـائط فى السببية، اللهم إلا بقـدر ما يكـون الاعتقاد فى الغيبيات عاملا من عوامل صنع التاريخ. ولكن على المؤرخ أن يكتب عن العالم كما يعرفه، وهذا ما فعله مؤرخ العصور حين كتب عن العالم الذى كان يضم وسطاء من عالم ما وراء الطبيعة. ورغم هذا فإنه لم يكن يعتقد أن الناس مجرد دمى تحركها القوى الغيبية. ومن الممكن أن نطرح السؤال القائل : إلى أى مدى يترك مؤرخ العصور الوسطى مهمة صنع التاريخ للاله والشيطان؟ وإلى أى مدى يضع فى اعتباره الأسباب الانسانية والطبيعية؟

إن الطريقة المثلى لقياس الانجازات هى أن ننطلق من نقطة البداية. فما الذى كان مؤرخو العصور الوسطى يفيدونه من مصادرهم؟ لقد ورثوا قدرا هائلا من القواعد، والنماذج والاصطلاحات، إذ خلف لهم الرومان خطوطا إرشادية - رغم أنها تعرضت للالتواء - ما زالت لازمة لكتابة التاريخ المعـاصر. كذلـك فإنهم تعلمـوا من التراث اليهودى - المسيحى أن يحاولوا كتابة التاريخ العالمى. وهذا التراث يجعل من الانسان مركزا تدور حوله الدراما الكونية، التى هى تاريخ الخلاص : فقد بدأ الزمن بالتكوين وسوف ينتهى بيوم القيامة. ومن ثم كان على المؤرخـين أن يتقبلوا «العـالم»، وكل التاريخ المدون. ويبدو هذا أمرا غير معقول. بيد أن المناطق التى كان مطلوبا تغطيتها باعتبارها العالم كانت محدودة، كما كانت سجلاتها التاريخية محدودة أيضا. لقـد كانت مهمة مؤرخ العصور الوسطى أسهل مما يفترض المرء، لأن ايسيدور علمه أن كتابة التاريخ السابق على عصره تعنى مجرد النسخ من المصادر الأسبق زمنا، أى مجرد التجميع. كذلك خلف أوروسيوس نموذجا قياسيا للتاريخ العالمى أو المدونة، رتبه حسب تقسيم الزمن على ستة عصور هى عمر العالم، وملكيات أربع تولت حكمه. وقد صيغت الرسالة التاريخية، والتراجم، والمراثى التى تخلفت عن التراث الرومانى فى إطار أرحب لتكون بمثابة البدائل المطروحة للتاريخ العالمى أو المدونة. أما ايوسيبيوس فإنه قدم نموذجا لتاريخ الكنيسة، كما قدم أوروسيوس تاريخا دنيويا من وجهة نظر المؤرخ الكنسى. إذ أن التاريخ الدنيوى كان يقدم الدليل الوحيد المتاح، شأنه فى ذلك شأن النماذج الكلاسيكية. وبذلت محاولات للحفاظ على انفصال النوعين (التاريـخ الكنسى والتاريخ الدنيوى) ولكنها باءت بالفشل. فقد كان التاريخ الكنسى والتـاريخ العلمانى يتداخلان باطراد كلما زاد حجم الدور الذى تلعبـه البابـوية فى الشئـون العلمانية، وكلما زاد احتكارها للتعليم. وكان المتعلمون من رجال الكنيسـة يعرفـون

تراثهم اللاتينى كما يعرفون كتابهم المقدس، وقد استخدموا كليهما بدرجات متفاوتة كمادة تدخل فى سياق كتاباتهم فى ميدان التدوين التاريخى.

وقد حمل التراث المختلط فى طياته بعض المخاطر. فقد كان اعتماد كتاب العصور الوسطى على مصادرهم كبيرا للغاية. ولذا كانت الشخصيات القديمة والشخصيات الواردة فى الكتاب المقدس تبرز فى سياق القصة التى يكتبها مؤرخ العصور الوسطى الذى كان يوائمهم مع ما يكتبه، كما كان يكسوهم بملابس عصره، أو يجعل معاصريه يتحدثون بلغتهم. ومما يريح القارىء الحديث أن تختفى هذه الشخصيات من المشهد او تقبع فى الخلفية. كما أن مؤرخى العصور الوسطى تقبلوا تقسيم أوروسيوس للزمن كعقيدة ظلت جاثمة على صدر التدوين التاريخى بحيث كان من الصعب أن يتخلص منها. وفى بعض الأحيان كان التقسيم الزمنى وفقا للملكيات الأربع حافزا على طرح بعض الأسئلة: إلا أنه غالبا ما كانت تطوى فى غياهب التجاهل. ولم يستبدله أى مؤرخ بنظام زمنى آخر. لقد اقترح يواقيم الفوارى تقسيما جديدا للزمن، ورؤية جديدة للتاريخ، ولكن المؤرخين لم يأخذوا به، اما لأنهم لم يجرؤوا على خرق التقاليد، وإما لأن التفكير التاريخى لم يكن يستهويهم.

أما أصحاب النزعة التأملية فقد اتجهوا مباشرة إلى المدارس الديرية أو الكاتدرائية أو الجامعات. ويقف أوتو الفريزى وحيدا كمؤرخ - باحث له أفكاره عن التاريخ التى اختبرها فى ضوء خبرته العملية. وتبرز نزعة البعد عن الشك فى التراث نفسها فى موقف العصور الوسطى من التاريخ البربرى. فالأساطير الشعبية وما اخترعه المتعلمون من حكايات عن أصول الشعوب، تناقلتها الأجيال كأمر مسلم به. وعادة ما كان كتاب العصور الوسطى يلجأون إلى تقليد هذه الأصول بدلا من نقدها رغم زيفها. بل إن تزييفات جديدة كانت تتولد عنها، إذ اشتهر وليم المالسبورى ووليم النيوبورجى بتشككهما فى موضوع الروايات التى تدور حول التاريخ البريطانى الباكر. وتقوم الشهرة التى أحرزتها هذه الروايات المختلفة دليلا على مدى ما وصل إليه المستوى العام فى السذاجة وسرعة التصديق. وفى هذه الحالة، لم تكن المسألة مسألة قصور ذاتى - كما كان الحال فى تقبل تقسيم اوروسيوس للزمن - بل كان الموقف تعبيرا عن مقولة «وانا ايضا». ذلك أنه كان لابد وأن يكون للشعوب والمدن المحترمة أسلاف من القدماء الذين ورد ذكرهم فى الكتاب المقدس. ومن الأفضل أن يكون أولئك الأسلاف من شخصيات التاريخ القديم والكتاب المقدس معا. كذلك كانت للأديرة والأسقفيات قصصها الخرافية التى تتحدث عن تأسيس كل منها. لقد أدى التفاخر المحلى إلى دراسة التاريخ ولكنه أدى ايضا إلى انتحال التاريخ المزيف.

هذه ذرات صغيرة على سطح الملكة الابداعية الفوارة التى ميزت التدوين التاريخى

فى العصور الوسطى. فقد خلفت لنا هذه العصور تاريخ الصالونات، والتاريخ الدينى بأنماطه المتعددة، والتاريخ المحلى، وتاريخ البلاط، والتاريخ الوعظى، وتاريخ حزب البلاد الحربى، والتاريخ الاستعمارى، وتاريخ الحنين إلى الماضى، بل والتاريخ الفكرى. وقد ورثنا عن العصور الوسطى مجموعة متنوعة وثرية من الموضوعات التى تمتد من رسائل سالست التاريخية حتى «كتاب البابوات»، كتاب بولس الشماس عن «تاريخ ميتز». وقد أظهر المؤرخون قدرة وموهبة فى تطويع الموضوعات القديمة بحيث تتلاءم مع الاستخدامات الجديدة. وكان كاتب سير القديسين يرى فى نفسه استمرارا للأنجيل. وكان ثمة ما يمكن أن نعده ملاحق من نوع ما للعهد الجديد تمثلت فى الترجمة التى كتبها وبيو للامبراطور كونراد الثانى، وفى كتاب «أعمال الفرنجة» المجهول المؤلف. وثمة اختراق حقيقى تمثل فى فن تصوير الشخصيات، فالصور الثابتة التى كان أوروسيوس قد رسمها بدات تنبض بالحياة. فها هو ذا آدم البريمينى يصف أحد كبار الأساقفة ويتتبع تطور شخصيته، وهو يتحول إلى مريض بجنون العظمة. كما أن جوسلين البركيلوندى يوضح كيف أن وظيفة سمسون، كمقدم للدير - قد نمت فيه شخصيته المتسلطة. ويشير وليم المالمسبورى إلى الرابطة التى تربط بين شخصية الملك ستيفن والأحداث التى شهدها عصره. وعلى أية حال، فان ستيفن كان فى الجانب الخاطىء من وجهة نظر وليم؛ بيد أن عيوبه هى التى حالت دونه وكسب الحرب الأهلية طالما كان وليم حيا يسجل تاريخ هذه الحرب. أما وليم الصورى فيلاحظ كيف أثرت شخصيات ملوك بيت المقدس فى دفاعهم عن مملكتهم.

والمذكرات الشخصية هى النغمة الدالة على التدوين التاريخى فى العصور الوسطى كما رأينا. وفى هذه العصور تأخذ المذكرات الشخصية شكل الترجمة الذاتية فى أغلب الأحوال. وفى الفترة ما بين سنة ٨٠٠ وسنة ١٣٠٠ كان جويبرت النوجنتى أصيلا وغير نمطى، كما كان ابيلار وجيرالد الويلزى أكثر اقترابا من الترجمة الذاتية من غيرهما. وكان كاتب المذكرات يصف تجاربه كعضو فى جماعة بدلا من أن يجعل من نفسه بؤرة تدور حولها الأحداث التى يرويها: أى انه كان يلاحظ الأحداث ويشارك فيها، ولكنه لم يكن يضع نفسه فى مقدمة روايته. ولدينا مذكرات خالصة مثل تقرير لويدبراند عن سفارته إلى القسطنطينية، وروايات جالبرت البروجى، وجيوفرى الفيلهاردوينى. وغالبا ما كانت المذكرات هى أفضل موضوعات التدوين التاريخى المتعددة. إذ كان الكاتب يهرب فيها من الاضطرار إلى التقليد، كما يجد فيها الحافز الذى يدفعه إلى كتابة مباشرة وجديدة.

ورغم هذا، فإن المذكرات ليست تاريخا. إذ ينبغى على المؤرخ أن يحاول الكشف عن الرابطة التى تجمع بين الأحداث التى يصفها، أى أنه يجب أن يسأل لماذا »؟ بقدر

سؤاله عن «ماذا»؟ أو «كيف»؟ إن أفضل ما يمكن للمرء أن يقوله عن مؤرخى العصور الوسطى أنهم استجابوا للصدمة. فقد كانت الأسئلة تطرح نفسها عليهم. فالصراع حول التقليد العلمانى، وظهور المدن، ونمو البيروقراطية، وحروب الحدود، والحملات الصليبية، وانتشار الهرطقة، كل هذا خلق المشكلات التى كانت تتطلب حلا لكل منها. لماذا فشل هنرى الرابع كامبراطور؟ ولماذا أخفق السكسون المحاربون من أجل حريتهم؟ لماذا حل الدمار والخراب فى بروج؟ هل كان هناك ما يسوغ لهنرى الثانى أن يقيد الحريات الكنسية فى سبيل اقرار النظام والقانون؟ لماذا كانت مقاومة السلاف الوثنيين والايرلنديين طويلة هكذا؟ لماذا تدهورت مملكة بيت المقدس؟ لماذا انتشرت الهرطقة فى جنوب فرنسا؟ ولم تكن هذه الأسئلة تدور بخلد تلاميذ أوروسيوس. لأنهم كانوا يرون فى التاريخ مجرد قصة البؤس الانسانى. فلماذا نرى فى أية حقبة بعينها حقبة غير عادية؟ إلا أن المؤرخين كانوا يفكرون فى الفترات المعينة التى كانت تهمهم، ولذا أخذوا يبحثون عن الأسباب الخاصة إذ إن الاجابات القديمة الجاهزة تقول إن الرب يعاقب الناس على ما ارتكبوه من خطايا، أو أن أساليبه تستعصى على الفهم، أو أن ربة الحظ المتقلبة تدير عجلتها، أو أن الرفاهية المستحدثة تؤدى إلى عدم التمسك بالقيم الأخلاقية وتقود إلى الهزيمة. وقد بدا لبعض المؤرخين أن هذه الأسباب غير كافية، لأنها لم تفسر الكثير من الأمور. واقترح الكتاب الأكثر عقلانية أسبابا معقولة وسديدة. فها هو ذا رالف الديسى يقرر أن من الأفضل أن ينحى بعض المسائل جانبا، وبذلك وجد لنفسه مهربا من خلال وضع معلوماته فى إطار منفصل. ذلك أنه ـ على الأقل ـ كان بصيرا بمشكلته.

إن ادراك الدافع وراء الحدث التاريخى لا يزال يمثل واحدة من أكبر المشكلات التى تسبب الحيرة للمؤرخ. فمن الصعوبة أن نحلل دوافعنا الخاصة وحين نلتمس دوافع إحدى الشخصيات التاريخية لا نجد دليلا ما لم يكن صاحب هذه الشخصية، أو من يرتبطون به قد أوضحوا لنا هذه الدوافع، وهو ما يمكن أن يكون مجرد دعاية. وكل ما يمكننا قوله دون خشية أنه كانت هناك مصلحة للشخصية فى اتخاذ مسار معين ـ وربما كان تصور الشخصية لمصالحها مختلفا تماما ـ بل انه ربما كان صاحب الشخصية قد فضل أن يفعل ما كان يعتقد انه واجبه، وربما كان غبيا جدا. لقد خلبت مشكلة الدوافع ألباب مؤرخى العصور الوسطى. إذ يوضح جيوبرت النوجنتى فى تاريخه عن الحملة الصليبية الأولى مدى صعوبة تحديد الدوافع البشرية. وقد كانت له تجربته فى الاستبطان، مثل كاتب الترجمة الذاتية، التى تفوق تجارب معظم المؤرخين، واندفع آخرون فيما خشى هو الاقدام عليه. ومرة أخرى، كانت الفطنة وسداد الرأى ملهما لهم فيما اقترحوه من دوافع. إذ كان من المعتاد أن يتناقض ما يقدمه الشخص على أنه السبب الذى حفزه على العمل على نحو ما، مع الهدف

الحقيقى الذى كان يسعى إليه. والمؤرخون ككل لم يرتكبوا زلة العيش فى الأوهام، لقد كانوا ساخرين تماما لأنهم كانوا يفترضون الأسوأ فى كل الأمور.

والموضوعية التامة مستحيلة فى كل زمان. وكان أمام مؤرخى العصور الوسطى عائق غير عادى، إذ أن أفضل جهودهم انصرفت إلى كتابة التاريخ المعاصر أو القريب من المعاصر، وهو ما يجعل التحيز يأتى فى سياق الرواية التاريخية. بيد أننا نجد بالفعل محاولات شجاعة للخروج من خضم الأحداث والتعرف على أكثر من وجهة نظر. فقد حاول كل من آدم البريمينى وهيلمولد فهم السلاف، كما عاد حنا السالسبورى إلى الماضى لكى يكون عادلا بالنسبة لكل من سان برنار وجلبرت دى لابوريه، كذلك نجح وليم البيلورنسى فى عرض وجهة نظر الجنوبيين عن الهرطقة، شارحا سبب انتشارها وسبب عدم مقاومتها دون أن يلتمس العذر للهراطقة. وإذا ما عدنا القهقرى إلى القرن التاسع، وجدنا والافريد سترابو ينتقد المؤرخ ثيجان لانحيازه إلى لويس لتقى. إلا أن دلائل الرغبة فى الموضوعية تتجلى فى غمار التدوين التاريخى الوسيط رغم هدفه الدعائى المعتاد. حقيقة أن العصور الوسطى أنجبت دعاة أفذاذا، ولكن المدهش أنها أنجبت لنا المؤرخين أيضا.

وأخيرا، فاننا نتوقع أن يعتمد المؤرخ على الدليل وأن يبين جهده. وفى العصر الحديث ابتكرت الملاحظات الهامشية، ولكن كان من الممكن اقتباس الدليل الوثائقى ونسخ المخطوطات فى العصور الوسطى. وهذا ما فعله سويتونيوس، وما جعله ايوسيبيوس جزءا من الاسلوب الفنى فى كتابه تاريخ الكنيسة. وقد تداخل التاريخ العلمانى مع التاريخ الكنسى وأثرى كل منهما الآخر. ولكن طغيان التراجم القديمة وسير القديسين الوسيطة تولد عنه الاتجاه نحو عدم استخدام الدليل الوثائقى فى تراجم الحكام والقديسين رغم أنه عاد يتسرب اليها فى القرن الثانى عشر. ومن ناحية اخرى فان الرسائل التاريخية، والتواريخ، والمدونات تضم قدرا متزايدا من نسخ الرسائل والمواثيق والمعاهدات والقوانين. وفى بعض الأحيان كان للمؤرخين سبب دعائى يدعوهم لاثبات هذه الوثائق فى كتبهم كما كان البعض يرون فى الوثائق جزءا لا يتجزأ من القصة التى يروونها. لقد كانوا يضحون بالرشاقة الأدبية فى سبيل واجبهم نحو توفير المعلومات.

وبوسعنا ان نرقب التطور الذى ألم بالتدوين التاريخى تدريجيا منذ العصور الوسطى فصاعدا. إذا أن أسلافنا بدأوا بالبقايا الضئيلة والفتات الذى خلفه المؤرخون القدماء. حقيقة أن العديد من المؤلفات التاريخية القديمة قد ضاع ولكننا نملك منها أكثر مما كان متاحا فى العصور الوسطى. فقد استفاد مؤرخو العصور الوسطى إفادة كاملة من تراثهم كما وجدوه. وفى بعض الأحيان كان هذا التراث بمثابة

العكاز الذى يتوكأ عليه مؤرخو العصور الوسطى، الا أن أكثرهم إقداما وجسارة كانوا ينحون هذا العكاز جانبا ويسيرون على أقدامهم فقط. ويصدق هذا القول على المؤرخين العلمانيين، فقد تعين على أولئك أن يعتمدوا على أنفسهم وأن يكونوا أصلاء فى وقت كان فيه التعليم وقراءة الكتب وقفا على رجال الكنيسة.

وتاريخ أى فن أو أى علم لا يسجل تقدما مطردا. فثمة عثرات دائما، أيا كان المستوى الذى نتخذه لقياس التقدم. إذ كاد التدوين التاريخى أن يختفى خلال العقود السابقة واللاحقة على سنة ٩٠٠. كما أن التاريخ ـ بتمايزه عن المدونة التاريخية ـ تعثر مرة أخرى فى القرن الثالث عشر. إذ أن مؤرخى القرن الثالث عشر لم يتفوقوا على مؤرخى القرن الثانى عشر اللاتين. ويمكن للمرء أن ينتقل بين صفحات المدونات التاريخية فى القرن الثالث عشر منتشيا باعتبارها مصادر للمادة التاريخية، إلا أن المرء يفتقد أى وعى أو إدراك للوظيفة الخاصة للتاريخ. ويتضاءل أولئك المؤرخون عند مقارنتهم بوليم المالمسبورى أو أوتو الفريزى أو وليم الصورى.

وبنهاية القرن تأتى وقفة للراحة. فالسنوات التى تلت سنة ١٣٠٠ شهدت تطورات جديدة فى كتابة التاريخ، كما شهدت مولد أفكار جديدة عن الكيفية التى ينبغى أن يكتب بها. فقد استمر الرهبان والقساوسة يكتبون التواريخ والمدونات باللغة اللاتينية. كما كان الاكليروس العلمانى مشغولا على نحو خاص فى إنجلترا. ولكن القرن الرابع عشر يشتهر أكثر بمدوناته المكتوبة باللغات القومية. ويأتى المؤرخ العلمانى ـ جنديا كان أو موظفا مدنيا ـ فى المقدمة. لأنه يروى الأحداث التى شاهدها وشارك فيها، ولدينا من الأمثلة على ذلك، «حياة سان لويس» التى كتبها جوانفيل Joinville، ومدونة القائد الكتلانى رومان مونتانر Roman Muntaner ومدونة Scalachronicon الانجلو ـ نورمانية، ومدونة فروبسار Froissart عن الحروب الانجلو ـ فرنسية، ومدونات فيلانى Villani عن فلورنسا. وقد صارت المدونة الألمانية Stadt Chronik أى مدونة المدينة مصدرا رئيسيا من مصادر التاريخ الامبراطورى.

وأعيد احياء التدوين التاريخى اللاتينى العلمى. إذ كان رجال المدارس يتجهون إلى دراسة التاريخ دون أن يفكر أحدهم أنه يحط من قدره كرجل أكاديمى. وقد كتب راهب أوكسفورد الدومينيكانى نيكولاس تريفيت بكل من اللاتينية والفرنسية على نطاق واسع. إذ أنه كان متعدد المعارف وكان التاريخ واحدا من اهتماماته العديدة، كذلك صار ليفى طرازا شائع التقليد كمؤلف. فقد كان تاريخه عن روما معروفا فى الفترة الماضية، ولكنه لم يكن يلقى رواجا كبيرا، وفى ذلك الحين صار ليفى هو الكاتب المفضل لدى الصفوة. وفى أوكسفورد صار تريفيت رائدا على الطريق حين قام بدراسة ليفى عند القرن الرابع عشر. إذ كان البلاط البابوى فى أفينون يسعى إلى اقتناء وقراءة

تعليقاته على كتاب ليفى. لقد عكست هذه (الموضة) الاهتمام الجدى بالتاريخ القديم.

وقد تمت الانجازات التى حققها مؤرخو القرن الثانى عشر من خلال حبهم للدراسات الكلاسيكية اللاتينية كما رأينا. وكان للاحياء الذى شهده القرن الرابع عشر للدراسات الكلاسيكية نفس الأثر الطيب على المؤرخين، فقد قام فريق من علماء بادوا - مسقط رأس ليفى - باتخاذ هذا المؤرخ الرومانى قدوة لهم، ولم يقنعوا بمجرد تقليد أسلوبه الكلاسيكى. ذلك أن التغيرات المحيرة التى طرأت على التاريخ الايطالى منذ العصور القديمة حتى أيامهم قادتهم إلى التفكير فى مشكلة تقسيم الزمن إلى عصور. وهذه المجموعة التى تعرف الآن باسم «ما قبل الانسانيين» البادويين تمرست فى مواضيع جديدة ونظم زمانية جديدة، وربما كان البرتينو موساتو Albertino Mussato هو أول مؤرخ منذ أوتو الفريزى يكتب «التاريخ الفكرى»، فقد تناول موضوعه بشكل أكثر علمانية ومحلية مما فعل أوتو، إلا أن كلا منهما كان يشعر بالحافز نفسه لوضع حقائق التاريخ غير المتسقة فى نظام واضح سهل الفهم. وتعتبر أصالتهم حلقة وصل بين الراهب الألمانى السسترشينى، ومواطن مدينة بادوا.

والأكثر حسما من هذه التجارب - رغم جسارتها - هو التغير الذى طرأ على موقف الناس من الماضى. والدارس للتدوين التاريخى فى العصور الوسطى يتعود العيش فى عالم فكرى يستطيع فيه أن يحاور آدم وحواء، أو يوليوس قيصر، أو شارلمان كما لو كانوا من جيرانه. وبمجرد أن نعرف مؤرخنا، نعرف كيف كان يتخيل الماضى، لأن الماضى سيكون عنده شبيها بالحاضر. وفى القرن الرابع عشر انكسر الشعور بالاستمرارية ولم تعد المسألة مسألة الانحدار من عصر أفضل إلى عصر أسوأ. إذا كان الرجل المسن يمكن أن يحتفظ بمشاعره التى كان يحس بها وهو صبى حتى أيامه الأخيرة. أما الآن وفجأة، فقد بدا وكأن الرجل المسن قد فقد ذاكرته وأفاق ليجد نفسه فى السجن أو مستشفى المجاذيب. كان بترارك يرى أن ثمة فجوة تفصل الثقافة القديمة عن الفروسية والمدرسية Scholasticism التى تميز بها عصره. وبدت له المؤسسات المعاصرة «**مؤسسات بربرية**». وقد أعلن اكتشافه بصوت العبقرى، إلا أن هذا الاكتشاف لم يكن سوى جزء من الجرد العام لما هو موجود من بضائع. وكانت الكنيسة فى القرن الرابع تبدو - بالنسبة للكاثوليك الطيبين والهراطقة على حد سواء - أقرب إلى بابل من ذلك المجتمع الذى عاش فيه الحواريون. وفى التاريخ الكنسى، كما فى التاريخ العلمانى، كان التناقض بين الماضى والحاضر يبدو كبيرا بحيث يمنع الاعتراف بأى تطور مستمر.

إن الانسانيين لم «**يعيدوا اكتشاف الماضى**». فذلك يعود إلى ما ورثته العصور الوسطى عن العالم القديم. فما فعلوه كان كشفا للماضى كماض. لقد كان التاريخ يرى

من منظور معين وليس كصورة أو لوحة مسطحة. ويبدو منظور الانسانيين خاطئا اليوم. إذ كانت أحكامهم على الماضى مشوشة. بيد أن محاولة اتخاذ منظور من أى نوع هى التى تخلق كل الفروق فى العرض التاريخى. وفى هذا المعنى نقول إن التدوين التاريخى الحديث قد بدأ فى القرن الرابع عشر.

لقد كان للرؤية الجديدة تأثيرها البطىء والجزئى على كتابة التاريخ. وكما يحدث غالبا، فإن أصحاب الأفكار الجديدة عن التاريخ لم يكتبوه، وتركت للمحافظين مهمة كتابة التاريخ. وقد رأينا أن اللاهوتيين ورجال القانون الكنسى أظهروا ادراكا أكبر لامكانية التغيير نحو الأفضل مما أظهر المؤرخون. وهكذا كان الأمر فى القرن الرابع عشر. وقد أبدى الانسانيون والاصلاحيون ادراكا أكبر بالفجوة بين الماضى والحاضر مع استثناءات قليلة. وسيشعر القارئ الذى فرغ لتوه من قراءة ودراسة مدونات القرن الثالث عشر بالألفة التامة حين يعكف على دراسة مدونات القرن الرابع عشر. ذلك أنه سيجد المناهج نفسها والرؤية نفسها للماضى. ورغم هذا، فإنه بحاجة إلى أن يرقب خطواته وأن يعد نفسه للتغير الذى سيطرأ فى المناخ السائد. ولا يصح أن نحذف كتاب داروين عن «أصل الأنواع» من تاريخ الأفكار لأن معظم معاصرى داروين كانوا ما يزالون يؤمنون بأن الله خلق الانسان فى الجنة. وحتى إذا كانت المفاهيم القديمة، وتقسيمات الزمن القديمة موجودة فى التدوين التاريخى أواخر العصور الوسطى، فإن القارئ الحديث يعرف أنه كان للرواد المبدعين آراء أخرى فى التاريخ. وأخذت المفاهيم القديمة تبدو كئيبة ومتهرئة. لقد استمرت هذه المفاهيم موجودة طوال ألف عام، وهى حقبة طويلة فى تاريخ الفكر.

قائمة ببلوجرافية

الفصل الأول حتى الرابع

مراجع عامة وتمهيدية :

R. G. Collingwood, *The Idea of History* (Oxford, 1946)

B. Croce, *Theory and History of Historiography,* trans. D. Ainslie (London, 1921)

H. Grundmann, 'Geschichtsschreibung im Mittelater' *Deutsche Philologie im Aufriss,* ed. W. Stammer, XXVI (1952–9), 1273–1335.

B. M. Lacroix, 'The Nation of History in Early Medieval Historians *Medieval Studies,* X (Toronto, 1948), 219–23, and L'Historien au moyen age, Montreal and Paris 1971.

A. Momigliano, 'Pagan and Christian Historiography in the Fourth Century A.D.', *The Conflict between Paganism and Christianity in the Fourth Century,* ed. A. Momigliano (Oxford, 1963), 79–99

J. T. Shotwell, *The History of History, i* (New York, 1939), 255–377

B. Smalley, 'Sallust in the Middle Ages'; *Classical Influences on European Culture, A.D. 500–1500,* ed R.R. Bolgar (Cambridge, 1971)

R. W. Southern, 'Aspects of the European Tradition of Historical Writing. 1. The Classical Tradition from Einhard to Geoffrey of Monmouth'; '2. Hugh of St. Victor and the Idea of Historical Development'; '3. History as Prophecy', *Transactions of the Royal Historical Society, 5th series, XX-XXII* (1970-72) To be completed by 'The Sense of the Past', forthcoming.

J. W. Thompson and B. J. Holm, *A History of Historical Writing 2 vol.* (New York, 1942, reprint, 1967)

نصوص أصلية :

Latin Historians and Latin Biography, ed. T.A. Dorey (London, 1966, 1967).

English Historical Documents, ed. D.C. Douglas, i-iii (from 1955), gives many excerpts from English and Anglo-Norman historians and chroniclers with introductions. The best known are translated in full in Bohn's Antiquarian Library

الفصل الخامس والفصل السادس:

La Storiografie Altomedievale (Settimane di Studio del Centro Italiano di Studio sull' Alto Medioevo, XVII 2 vol., Spoleto, 1970) has papers in English, French, German, Italian and Spanish on early medieval

historiography, up to the 11th century
D. A. Bullough, '*Europae Pater:* Charlemagne and his achievement the light of recent scholarship', *English Historical Review,* I, XXXV (1970), 59–105.
J. Leclercq, 'Monastic historiography from Leo IX to Callistus II'. *Studia Monastica, XII (1970), 57–86.*
Christopher Brooke, *The Twelfth Century Renaissance* (London, 1969)
R. W. Southern, *Medieval Humanism and Other Studies* (Oxford, 1970)
C. Morris, *The Discovery of the Individual 1050–1200* (London, 1972)
V.H. Galbraith, *Historical Research in Medieval England* (London, 1951)
H. Farmer, 'William of Malmesbury's Life and Works', *Journal of Ecclesiastical History* xiii (1962), 39–54

نصوص اصلية :

Einhard, *The Life of Charlemagne,* trans. L. Thorpe (London, 1970)
Carolingian Chronicles: Royal Frankish Annals and Knithard's Histories, trans. B. W. Scholz and B. Rogers (Michigan, 1970)
Imperial Lives and Letters of the Eleventh Century, trans. T.E. Mommsen and K. F. Morrison (Records of Civilization, New York, 1962)
Helgaud de Fleury, *Vie de Robert le Pieux,* ed. and trans. (French) R.-H. Bautier and G. Labory (Sources d'historie médiévale, Paris, 1965)
Suger, *Vie de Louis VI le Gros,* ed. and trans. (French) H. Waquer (Classiques de l'histoire de France au Moyen âge, Paris, 1929)
Encomium Emmae Reginae, ed. and trans. Alistair Campbell (Camden 3rd series, lXXII, London, 1949)
The Works of Liudprand of Cremona, trans. F.A. Wright (London, 1930)
Richer, *Histoire de France 888–995,* ed. and trans. (French) R. Latouche (Classiques de l'histoire de France au Moyen âge, Paris, 1930–67)
The Anglo-Saxon Chronicle, a revised translation, ed. D. Whitelock (London, 1961)
The Ecclesiastical History of Orderic Vitalis, ed. and trans. M. Chibnall (Oxford, 1969–72)
The Historia Novella of William of Malmesbury, ed. and trans. K.R. Potter (London, 1955)

الفصل السابع:

A.D.von den Brincken, *Studien zur lateinischen Weltchronistik bis in das Zeitalter Otto von Freisings* (Düsseldorf, 1957)

نصوص اصلية :

Otto of Freising, *The Two Cities,* trans. C.C. Mierow (Records of

الفصل الثامن:

D.M. Stenton, 'Roger of Howden and *Benedict*', *English Historical Review,*

IXVIII (1953), 574–82
A History of St Paul's Cathedral and the Men associated with it, ed. W.R. Matthews and W.M. Athins (London, 1957).
For Caffaro's Genoa, see below, chapter 9 (Boase)

نصوص أصلية :

The Murder of Charles the Good be Galbert of Bruges, trans. J.B. Ross (Records of Civilization, New York, 1960)
John of Salisbury's Memoirs of the Papal Court, ed. and trans. M. Chibnall (London, 1956)

الفصل التاسع:

A.P. Vlasto, *The Entry of the Slavs into Christendom* (Cambridge, 1970)
T.S.R. Boase, *Kingdoms and Strongholds of the Crusaders* (London, 1971) gives a bibliography which is also useful for Caffaro's Genoa (see chapter 8)
A.C. Krey, "William of Tyre', *Speculum, XVI* (1941), 149–66
R.B.C. Huygens, 'Guilaume de Tyr étudiant. Un chapitre de son *Histoire retrouvé', Latomus,* XXI (1962), 811–29
B.M. Lacroix. 'Guillaume de Tyr. Unité et diversité dans la tradition latine', *Etudes d'histoire littéraire et doctrinale, 4th series (Paris, 1968), 201–15*
C. Morris. 'Villehardouin and the Conquest of Constantinople', *History,* liii (1968), 24–34
P. Belperron, *La Croisade contre les Albigeois et l'union du Languedoc à la France (1209–1249)* Paris, 1946)
R.I. Moore, 'The Origins of Medieval Heresy', *History,* lv (1970), 21–36

نصوص أصلية :

Adam of Bremen, *History of the Archbishops of Hamburg-Bremen,* trans F.J. Tschan (Records of Civilization, New York, 1959)
Helmold. *The Chronicle of the Slavs,* trans. F.J. Tschan (Records of Civilization, New York 1935)
J.J. O'Meara and A.B. Scott are preparing a new edition and translation of Gerald of Wales, *De expugnatione Hiberniae;* Meanwhile on Gerald of Wales see the first version of his *Topographia,* trans. J.J. O'Meara (Dundalk, 1951)
Anonymous, *Deeds of the Franks,* ed. and trans. Rosalind Hill (London, 1962)
William of tyre, *A History of deeds done beyond the sea,* Trans.
E.A. Babcock and A.C. Krey (Roecords of Civilization, New York, 1943) Civilization, New York, 1928)
The Deeds of Frederick Barbarossa by Otto Freising and his Continuator

Rahewin, trans. C.C. Mierow (Records of Civilization, New York, 1953)

Chronicles of the Crusades. Histoire de Saint Louis. La Conquête de Constantinople, trans. M.R.B. Shaw (London, 1967)

Pierre des Vaux de Cernai, *Histoire Albigeoise,* Trans. (French) P Guébin and H. Maisonneuve (Paris, 1951)

Chanson de la Croisade Albigeoise, trans. (French from Provencal) E. Martin-Chabot (Classiques de l'histoire de France au Moyen âge, Paris, 1931–61)

Chronique de Guillaume de Puy Laurens contenant l'histoire de l'expédition contre les Albigeois, trans. (French) C. Lagarde (Béziers, 1964)

الفصل العاشر:

R. Brentano. *Two Churches: England and Italy in the Thirteenth Century* (Princeton, 1968) 306–45, compares Matthew Paris and Salimbene as chroniclers and gives bibliography

P. David, *Les Sources de l'histoire de Pologne (Paris, 1934), 56–72,* gives an account of Vincent of Cracow

B.L. Ullman, 'A Project for a New Edition of Vincent of Beauvais', *Speculum,* viii (1933), 312–26

N. G. Siraisi, 'The *Expositio Problematum Aristotelis* of Peter of Abano, *Isis, lxi* (1970), 321–39

M. E. Reeves, *The Influence of Prophecy in the Later Middle Ages* (Oxford. 1970)

نصوص اصلية :

The Chronicle of Jocelin of Brakelond concerning the acts of Samson, ed. and trans H.E. Butler (London, 1949)

Matthew Paris's English History, trans. J.A. Giles (London, 1852–4)

Thomas of Eccleston and Jordan of Giano, trans. E. Gurney Salter (London, 1926)

Grandes chroniques de la France, ed. J. Viard (Paris. 1920–34)

الفصل الحادى عشر (الخاتمة)

B. Smalley, *English Friars and Antiquity in the Early Fourteenth Century* (Oxford, 1960), Chapter 12

Peter Burke, *The Renaissance Sense of the Past* (London, 1969)

D. R. Kelley, *Foundations of Modern Historical Scholarship: Language, Law and History in the French Renaissance* (New York and London, 1970)

نصوص أصلية :

For original texts see A Potthast, *Bibliotheca historico medii aevi* (Berlin 1895–6). A new edition of Potthast is in progress *Repertorium fontium historiae medii aevi* (Rome, 1962–70)

محتويات الكتاب